
رومانسية رائعة - التايمز
جوليا كوين
قصة إلويز بريدجرتون
إلى السير فيليب،
مع حبي
سلسلة بريدجيرتون
المجلد الخامس
ترجمات
مكتبة الوادي
t.me/wadistreambooks
ترجمة / كاميليا

إلى السير فيليب، مع حبي

TO SIR PHILLIP , WITH LOVE

للمزيد من الترجمات

t.me/wadistreambooks

تُرجم هذا الكتاب بدعم من مبادرة ترجم

مبادرة ترجم

Tarjim Initiative

Translation funded by the Tarjim Initiative

ترجمة / كاميليا

جوليا كوين

JULIA QUINN

إلى السير فيليب، مع حبي

TO SIR PHILLIP, WITH LOVE

إلى ستيفاني وراندال هارغريفز ..لقد فتحتما لنا منزلكما، وعرّفتمانا
على مدينتكما، وحفظتما أغراضنا
وأيضاً إلى بول.

شجرة عائلة بريدجرتون

فيوليت ليدجر تزوجت من إدموند
(1766) (1764 - 1803)

أنطوني (1784)
الفيكونت الذي أحبني - الكتاب الثاني

بيندكت (1786)
الكتاب الثالث

كولين (1791)
الكتاب الرابع

دافني (1792)
الدوق وأنا
الكتاب الأول
يعرض قصة
سايمون باسيت
دوق هاستنجز

إلويز (1796)
الكتاب الخامس

فرانشيسكا (1797)
الكتاب السادس

جريجوري (1801)
الكتاب الثامن

هياسنث (1803)
الكتاب السابع



مقدمة

شهر فبراير ، عام 1823

مقاطعة غلوسترشاير، إنجلترا

إنها لسخرية القدر حقًا، أن يقع ما وقع في يومٍ مشمسٍ كهذا.

كان ذلك اليوم هو الأول الذي انفرجت فيه أسارير السماء عن شمسٍ ضاحكة، بعد ستة أسابيع عجاف تلبدت فيها الغيوم الكالحة، ولم تجُد إلا برذاذٍ شحيح من الثلج أو المطر، حتى أن فيليب – ذلك الطود الأشم الذي كان يحسب نفسه في مأمن من تقلبات الأنواء – أحس بروحه تنتفض من عقالها، وبثغره يفتر عن ابتسامة عريضة، فغادر مخدعه وخرج إلى الفضاء الرحب؛ إذ لم يكن لبشرٍ أن يلزم جحره والسماء تعرض فتنتها بهذا البهاء الساطع.

لا سيما في عزّ شتاءٍ مكفهرّ القسمات.

وحتى الساعة، وقد انقضى شهر ونيف على الفاجعة، لا يكاد يصدق أن الشمس ملكت الجرأة لتمازحه تلك المزحة الغادرة.

وكيف عُميت بصيرته فلم يتوقع ما كان؟ وهو الذي عاشر مارينا منذ ليلة زفافهما، ثماني سنوات حسومًا قضاها خبيرًا بخلجات نفسها، كان حريًا به أن يستشف المصير. والحق يقال...

بلى، الحق أنه كان يتوقع ذلك، بيد أنه أبى الاعتراف، ولعله كان يخدع نفسه، بل يحصنها بالوهم، هربًا من الحقيقة الساطعة، مؤملًا أن تجاهل البلاء يدفعه.

ولكنه وقع، وفي يوم مشمسٍ!

إن للأقدار سخريةً مُرة المذاق.

أطرق فيليب برأسه يرمق كأس الويسكي، وقد ألفاها فارغة جوفاء بلا سابق إنذار. لا ريب أنه تجرعها حتى الثمالة، ولكنه لا يذكر من ذلك شيئًا، ولم يعتره الدوار الذي ينشد، أو حتى الدوار الذي يستحق.

أرسل طرفه عبر النافذة يراقب الشمس وهي تجنح للغروب عند الأفق البعيد. لقد كان اليوم مشمسًا أيضًا، ولعل هذا ما يفسر ذلك الحزن الجاثم على صدره، أو هكذا رجا. كان ينشد تعليلًا لهذا الوهن الذي يدب في أوصاله، فالسوداوية كانت ترعبه.

ترعبه أكثر من أي شيء، أكثر من لظى النار، وويلات الحروب، بل أكثر من الجحيم ذاته. إن فكرة الغرق في بحر الأحزان، وأن يغدو مثلها...

لقد كانت مارينا حليفة الحزن، قضت عمرها – أو ما شهده منه – رهينة الكآبة. لا تذكره ذاكرته بصوت ضحكتها، والحق أنه يشك إن كان قد سمعها يومًا.

كان يومًا مشمسًا، و... اعتصر عينيه إغماضًا، لا يدري أكان يستحضر الذكرى أم يطردها. كان يومًا مشمسًا، و...

باغته صوت مايلز كارتر قائلًا:

– "ما خلتُك ستشعر بلمساتٍ كهذه على أديم وجهك مجددًا، أليس كذلك يا سير فيليب؟"

ولّى فيليب كرين وجهه شطر الشمس، مغمضًا عينيه ليدع الدفء يتسرب إلى مسامه، ثم همس:

– "إنه لجو بديع، أو كاد يكون، لولا هذا الزمهرير الذي يجمّد الدماء في العروق."

ضحك مايلز كارتر، سكرتيره الخاص، وقال:

– "ليس البرد قاسيًا إلى هذا الحد، فالبحيرة لم تتجمد هذا العام، إلا في مواضع متفرقة."

على مضض، أشاح فيليب بوجهه عن الشمس وفتح عينيه قائلًا:

– "ولكنه ليس الربيع بعد."

رد مايلز:

– "إن كنت تتوق للربيع يا سيدي، فلعله كان الأجدر بك مراجعة التقويم."

رمقه فيليب بنظرة جانبية وتساءل:

– "أأدفع لك أجرًا نظير هذه الوقاحة؟"

أجابه:

– "بلى، وأجرًا مجزيًا أيضًا."

ابتسم فيليب لنفسه، ووقف الرجلان هنيهة ينهلان من عبق الشمس لحظات أخر.

قال مايلز وقد استأنفا سيرهما صوب الدفيئة الزجاجية الخاصة بـ فيليب:

– "حسبت أنك لا تأبه للغيم."

أجابه فيليب وهو يخطو بثقة الرياضي المطبوع:

– "لا آبه له، ولكن احتمالي للسماء الملبدة لا يعني عزوفي عن الشمس."

ثم صمت لحظة مفكرًا وأردف:

– "تأكد من إخبار المربية ميلسبي أن تخرج بالأطفال اليوم. سيحتاجون للمعاطف الثقيلة والقبعات والقفازات وما إلى ذلك، ولكن حريّ بهم أن ينالوا نصيبًا من الشمس، فقد حبسوا طويلًا."

همس مايلز:

– "كما حُبسنا جميعًا."

قهقه فيليب:

– "حقًا."

ثم التفت إلى دفيئته. كان خليقًا به أن ينظر في رسائله الآن، ولكن لديه بذورًا تحتاج للفرز، ولا ضير في تأجيل أعماله مع مايلز لساعة أو نحوها. قال لـ مايلز:

– "اذهب الآن، وابحث عن المربية ميلسبي. سنتدبر الأمور لاحقًا، وأنت تعلم أنك تمقت الدفيئة على كل حال."

رد مايلز:

– "ليس في هذا الوقت من العام، فحرارتها تغدو محببة."

رفع فيليب حاجبًا وهو يومئ برأسه صوب قصر رومني هول متسائلًا:

– "أتلمح إلى أن منزل أجدادي تعبث به الرياح؟"

– "كل منازل الأجداد تعبث بها الرياح."

قال فيليب مبتسمًا:

– "صدقت."

لقد كان يستلطف مايلز. عينه قبل ستة أشهر ليعينه على جبال الأوراق والتفاصيل التي تتراكم من إدارة أملاكه الصغيرة. كان مايلز ماهرًا، شابًا ولكنه حاذق، وكانت روحه الفكاهية بلسمًا في منزل عز فيه الضحك. فالخدم ما كانوا ليجرؤوا على ممازحة فيليب، ومارينا... غني عن القول إن مارينا لم تكن تضحك أو تمازح.

كان الأطفال أحيانًا ينتزعون الضحكة من فيليب، ولكنها فكاهة من طراز آخر، وفضلًا عن ذلك، لم يكن يدري في جل الأوقات ماذا يقول لهم. يحاول، فيشعر بالخطل والثقل، وبأنه أضخم وأقوى مما ينبغي، ثم يجد نفسه يصرفهم عنه، يأمرهم بالعودة إلى مربيتهم.

كان ذلك أيسر السبل.

– "انطلق إذًا."

قالها فيليب صارفًا مايلز لمهمة كان الأجدر به أن يقوم بها بنفسه. لم يرَ أطفاله بعد في هذا اليوم، وكان ينبغي عليه ذلك، لكنه لم يشأ أن يعكر صفو اليوم بصرامة قد تبدر منه دون قصد.

سيجدهم أثناء نزهتهم في الطبيعة مع المربية ميلسبي. تلك فكرة سديدة. حينها يشير إلى نبتة ما ويحدثهم عنها، وتبقى الأمور في نصاب البساطة والود.

دخل فيليب دفيئته وأوصد الباب خلفه، مستنشقًا الهواء الرطب بنهم. لقد درس علم النبات في كامبريدج، ونال فيه المرتبة الأولى، ولولا أن أخاه الأكبر قضى نحبه في معركة ووترلو [1] – دافعًا بـ فيليب، الابن الثاني، إلى تولي أعباء الإقطاعية – لكان انخرط في سلك الأكاديميين.

لعل الأمر كان ليكون أسوأ؛ فلقد وجد هنا ملاذًا لمتابعة أبحاثه النباتية في سكون.

انكب على منضدة عمله يتفحص مشروعه الأخير، سلالة من البازلاء يحاول تهجينها لتكون أكثر امتلاءً واكتنازًا. لم يحالفه الحظ بعد، فهذه الدفعة لم تكن ضامرة فحسب، بل اصفر لونها، وهو ما لم يكن في الحسبان.

قطب فيليب جبينه، ثم سمح لابتسامة صغيرة أن ترتسم على محياه وهو يتجه لجمع أدواته. لم يكن ييأس حين تخيب تجاربه، ففي عرفه، لم تكن الحاجة يومًا أم الاختراع.

بل هي الصدف، الصدف وحدها. لن يعترف عالم بذلك، ولكن جل الاختراعات العظيمة ولدت بينما كان المرء يحاول حل معضلة أخرى تمامًا.

ضحك وهو يزيح البازلاء الضامرة جانبًا.

بهذا المعدل، قد أجد علاجًا للنقرس بحلول نهاية العام.

عد للعمل، عد للعمل.

انكب على مجموعة بذوره يمهدها للفحص. كان يحتاج لواحدة بعينها لـ...

رفع بصره عبر الزجاج المغسول حديثًا، فاستوقفته حركة عبر الحقل. وميض أحمر.

---

[1] معركة وقعت عام ١٨١٥ بين فرنسا بقيادة نابليون بونابرت والتحالف السابع بقيادة بريطانيا وبروسيا، وانتهت في يوم واحد بفوز التحالف، مع خسائر قُدِّرت بنحو خمسين ألف قتيل وجريح.

*أ*حمر. ابتسم فيليب وهز رأسه. لا بد أنها مارينا. كان الأحمر لونها المفضل، وهو أمر طالما أثار عجبه. فمن عاشرها لظن أنها تؤثر الألوان الداكنة الكئيبة.

راقبها وهي تتوارى في الأجمة الشجرية، ثم عاد لعمله. نادرًا ما كانت مارينا تغادر مخدعها، فسرّه أن يراها تحت الشمس. لعل ذلك يرمم روحها. ليس تمامًا – بطبيعة الحال – فلا الشمس ولا غيرها يقوى على ذلك، ولكن لعل يومًا دافئًا مشرقًا يكفي لإخراجها بضع ساعات، ورسم بسمة شاحبة على ثغرها.

والسماء تشهد أن الأطفال بحاجة لذلك. كانوا يزورونها في غرفتها كل مساء، لكن ذلك لم يكن يكفي.

وفيليب يعلم يقينًا أنه لم يكن يعوضهم عن ذلك النقص.

تنهد، واجتاحته موجة من الشعور بالذنب. لم يكن الأب الذي يحتاجونه، كان يعلم ذلك. حاول إقناع نفسه بأنه يبذل قصارى جهده، وأنه ينجح في هدفه الأوحد من الأبوة: ألا يكون كأبيه.

ولكنه كان يعلم أن ذلك لا يكفي.

بحركات حازمة، دفع نفسه بعيدًا عن المنضدة. البذور يمكنها الانتظار. والأطفال يمكنهم الانتظار أيضًا، ولكن ذلك لا يعني أنه ينبغي لهم ذلك. يجب أن يأخذهم في نزهتهم، لا المربية ميلسبي التي لا تفرق بين شجرة نفضية وصنوبرية، والتي قد تخبرهم أن الوردة أقحوانة و...

نظر عبر النافذة مجددًا، مذكرًا نفسه بأنه فبراير. لن تجد المربية ميلسبي زهرة في هذا الطقس، ولكن ذلك لا يعفيه من واجبه. كانت النزهة الطبيعية هي النشاط الوحيد الذي يجيده مع الأطفال، ولا ينبغي له التملص منه.

خطا خارج الدفيئة ثم توقف قبل أن يقطع ثلث المسافة إلى رومني هول. إن كان سيحضر الأطفال، فالأجدر أن يأخذهم لرؤية أمهم. إنهم يتوقون لقربها، حتى وإن لم تفعل شيئًا سوى التربيت على رؤوسهم. نعم، فليبحثوا عن مارينا. سيكون ذلك أجدى نفعًا من نزهة الطبيعة.

لكنه علم من الخبرة ألا يفترض شيئًا بشأن حالة مارينا المزاجية. خروجها لا يعني تحسنها، وكان يكره أن يراها الأطفال في إحدى نوباتها.

استدار فيليب ويمم شطره صوب الأجمة حيث توارت مارينا. كان سيره أسرع من سيرها بضعفين؛ لن يطول الوقت حتى يدركها ويستبرئ حالها.

سار عبر الغابة مقتفيًا أثرها بسهولة. كانت الأرض رطبة، ويبدو أن مارينا تنتعل حذاءً ثقيلًا، إذ غارت طبعات أقدامها في الطين بوضوح، تقود إلى المنحدر وخارج الغابة، ثم إلى رقعة عشبية.

تمتم فيليب والريح تشتد حوله:

- "تبًا."

استحال عليه رؤية الأثر على العشب. ظلل عينيه بيده ومسح الأفق بحثًا عن أي أثر لذلك الوميض الأحمر.

لا أثر لها قرب الكوخ المهجور، ولا في حقل تجاربه، ولا عند الصخرة الكبيرة. اتجه شمالًا، وضاقت عيناه حين رآها أخيرًا. كانت تتجه صوب البحيرة.

البحيرة.

انفرجت شفتا فيليب وهو يحدق في خيالها يتحرك ببطء صوب حافة الماء. لم يتجمد في مكانه، بل توقفت حواسه للحظة بينما يستوعب عقله المشهد الغريب. مارينا لا تسبح. ولا يعلم إن كانت تجيد السباحة أصلًا. كان يفترض علمها بوجود البحيرة، لكنه لم يرها تقصدها قط طوال زواجهما. بدأ يمشي نحوها، وقد أدركت قدماه ما رفض عقله تصديقه. وحين وطأت قدماها المياه الضحلة، زاد من سرعته، لكنه كان أبعد من أن يفعل شيئًا سوى الصراخ باسمها.

لكنها - وإن سمعته - لم تبدِ حراكًا، بل واصلت تقدمها البطيء الثابت نحو الأعماق.

صرخ بأعلى صوته، وانطلق يعدو:

- "مارينا!"

كان لا يزال يحتاج دقيقة كاملة بأقصى سرعته للوصول.

– "مارينا!"

بلغت النقطة التي يهوي فيها القاع، وهوت هي الأخرى، متوارية تحت السطح الرمادي الكئيب، وطفت عباءتها الحمراء لحظات قبل أن تبتلعها المياه خلف صاحبتها.

صرخ باسمها مجددًا، رغم يقينه أنها لن تسمع. تعثر وانزلق أسفل التل المؤدي للبحيرة، ولم يملك من رباطة الجأش إلا ما يكفي لانتزاع معطفه وحذائه قبل أن يغوص في الماء القارص. لم يمضِ على غيابها سوى دقيقة؛ أدرك عقله أن ذلك لا يكفي للغرق، ولكن كل ثانية تمر كانت خطوة نحو حتفها.

لقد سبح في هذه البحيرة مرارًا، ويعلم مواضع العمق، فوصل النقطة الحرجة بضربات سريعة متزنة، غير عابئ بثقل ملابسه المبتلة.

سيجدها. لا بد أن يجدها.

قبل فوات الأوان.

غاص إلى الأسفل، يمسح بعينيه المياه العكرة. لا بد أن مارينا أثارت رمال القاع، وقد فعل هو المثل، فكان الطمي يدور حوله سحبًا تحجب الرؤية.

ولكن في النهاية، أنقذتها نزوتها اللونية الوحيدة؛ إذ شق فيليب الماء ليرى حمرة عباءتها تتهادى في القاع كطائرة ورقية كسولة. لم تقاومه وهو يسحبها للسطح؛ فقد غابت عن الوعي، ولم تكن سوى ثقل هامد بين ذراعيه.

اخترقا سطح الماء، وشهق الهواء بملء رئتيه المحترقتين. للحظة، لم يستطع إلا التنفس، مدركًا أن جسده يطلب النجاة لنفسه قبل إنقاذ غيره. ثم سحبها إلى الشاطئ، حريصًا على إبقاء وجهها فوق الماء، رغم أنها لم تكن تتنفس.

أخيرًا، بلغ حافة الماء، وجرها إلى الشريط الضيق من الحصى والتراب. بحركات مسعورة، تحسس أنفاسها، فلم يجد خارجًا من شفتيها شيئًا.

لم يدرِ ما يصنع، لم يحسب أنه سيضطر لإنقاذ غريق يومًا، ففعل ما بدا له صوابًا؛ طرحها على ركبتيه ووجهها لأسفل، وانهال ضربًا على ظهرها. لم

يحدث شيء في البدء، ولكن بعد الضربة الرابعة العنيفة، سعلت، وتدفق تيار من الماء العكر من فمها.

قلبها بسرعة وسأل بلهفة وهو يصفع وجهها برفق:

– "مارينا؟ مارينا؟"

سعلت مجددًا، وانتفض جسدها بارتعاشات متشنجة. ثم بدأت تشهق الهواء، ورئتاها تجبرانها على الحياة، حتى وإن تاقت روحها لغير ذلك.

قال فيليب وصوته يرتجف ارتياحًا:

– "مارينا... الحمد لله."

لم يكن يحبها، لم يحبها حقًا يومًا، لكنها زوجته، وأم أطفاله، وهي في قرارة نفسها – تحت ركام الحزن واليأس – إنسانة طيبة ونقية. ربما لم يحبها، لكنه لم يرد لها الموت.

رفت جفونها، وكانت عيناها زائغتين. ثم، وأخيرًا، بدا أنها أدركت أين هي، ومن هو، فهمست:

– "لا."

قال بخشونة، وقد راعه غضبه من تلك الكلمة الوحيدة:

– "يجب أن أعيدك للمنزل."

لا.

كيف تجرؤ على رفض نجاة ساقها إليها؟ أتتخلى عن الحياة لمجرد أنها حزينة؟ أيساوي حزنها أكثر من طفليهما؟ في ميزان الحياة، هل يرجح مزاج عكر بحاجة أطفال لأمهم؟

نطقها بحدة، ورفعها بين ذراعيه بلا هوادة:

– "سأحملك للبيت."

كانت تتنفس الآن، وبكامل وعيها، وإن كان وعيًا ضالًا. لا حاجة لمعاملتها كزهرة رقيقة.

انتحبت بصوت خافت:

– "لا، أرجوك لا تفعل. لا أريد... أنا لا..."

قرر بحزم، صاعدًا التل، غير عابئ بالريح الصرصر التي حولت ملابسه المبللة جليدًا، ولا بالحصى الذي يدمي قدميه الحافيتين:

– "ستعودين للمنزل."

همست بها وكأنها آخر ما بقي لها من طاقة:

– "لا أستطيع."

وبينما كان فيليب يحمل عبئه عائدًا، لم يفكر إلا في مدى ملاءمة تلك الكلمات.

لا أستطيع.

بطريقة ما، بدا أن هذه العبارة تختزل حياتها بأسرها.

وبحلول الليل، بدا أن الحمّى قد تنجح فيما فشلت فيه البحيرة.

كان فيليب قد حمل مارينا إلى المنزل بأقصى ما أوتي من سرعة، وبمعاونة السيدة هيرلي – مدبرة منزله – جردها من ثيابها الجليدية وحاول تدفئتها تحت لحاف ريش الأوز الذي كان درة جهاز عرسها قبل ثماني سنوات.

شهقت السيدة هيرلي حين ترنح فيليب داخلًا من باب المطبخ:

– "ماذا حدث؟"

لم يشأ استخدام المدخل الرئيسي خشية أن يراه الأطفال، فضلًا عن أن باب المطبخ كان أقرب بمسافة معتبرة.

أجاب بفظاظة:

– "سقطت في البحيرة."

رمقته السيدة هيرلي بنظرة مزجت بين الشك والتعاطف في آن واحد، فعلم أنها تدرك الحقيقة. لقد عملت لدى عائلة كرين منذ زواجهما، وتعرف نوبات مارينا.

طردته من الغرفة ما إن وضعا مارينا في الفراش، مصرة على أن يبدل ثيابه قبل أن يدركه الموت هو الآخر. لكنه عاد لجانب مارينا.

كان ذلك مكانه كزوج، كما فكر بشعور بالذنب، وهو مكان تجنبه في السنوات الأخيرة.

كان البقاء مع مارينا يورث الاكتئاب. كان أمرًا شاقًا.

ولكن الوقت لم يكن وقت التنصل من الواجبات، لذا جلس بجوار سريرها طوال النهار وجنح الليل. كان يمسح جبينها حين تتصبب عرقًا، ويحاول سكب الحساء الفاتر في حلقها حين تهدأ.

أخبرها أن تقاوم، رغم علمه أن كلماته تقع على آذان صماء.

وبعد ثلاثة أيام، كانت في عداد الأموات.

كان ذلك ما أرادته، لكن ذلك لم يكن عزاءً يذكر لـ فيليب وهو يواجه طفليه، التوأم اللذين أتما السابعة لتوّهما، محاولًا أن يشرح لهما أن أمهما قد رحلت. جلس في غرفتهما، وجسده الضخم يضيق به كراسي الصغار. لكنه جلس، متكورًا كعقدة حبل، وأجبر نفسه على تلاقي النظرات وهو ينتزع الكلمات انتزاعًا.

لم يقولا الكثير، وهو أمر خالف عادتهما. لكنهما لم يبدوا متفاجئين، وهو ما أزعج فيليب.

قال بغصة بعد أن أنهى حديثه:

– "أنا... أنا آسف."

كان يحبهم حبًا جمًا، وقد خذلهم في مواطن شتى. بالكاد يعرف كيف يكون أبًا، فكيف بحق الجحيم سيقوم بدور الأم أيضًا؟

قال أوليفر، وعيناه البنيتان تأسران عيني أبيه بحدة مقلقة:

– "ليس خطأك، لقد سقطت في البحيرة، أليس كذلك؟ أنت لم تدفعها."

أومأ فيليب برأسه فقط، حائرًا في الرد.

سألت أماندا بصوت خافت:

– "هل هي سعيدة الآن؟"

أجابها فيليب:

– "أظن ذلك. هي تراكم الآن طوال الوقت من السماء، فلا بد أنها سعيدة."

بدا أن التوأم يفكران في الأمر مليًا. وأخيرًا قال أوليفر بصوتٍ فاق تعابير وجهه حزمًا:

– "آمل أن تكون سعيدة. ربما لن تبكي بعد الآن."

احتبست أنفاس فيليب. لم يدرك أنهم سمعوا نحيب مارينا. كانت لا تغرق في أحزانها إلا في الهزيع الأخير من الليل؛ وكانت غرفتهم تعلو غرفتها مباشرة، لكنه ظن دومًا أنهم نيام حين تبدأ أمهم في البكاء.

أومأت أماندا برأسها الأشقر الصغير موافقة وقالت:

– "إن كانت سعيدة الآن، فأنا مسرورة لرحيلها."

قاطعها أوليفر:

– "هي لم ترحل، بل ماتت."

أصرت أماندا:

– "لا، بل رحلت."

قال فيليب بصوت جامد، متمنيًا لو كان لديه ما يخبرهم به غير الحقيقة:

– "إنهما أمر واحد، ولكني أظنها سعيدة الآن."

وبشكل ما، كانت تلك هي الحقيقة أيضًا. كان ذلك ما أرادته مارينا على أية حال. وربما كان كل ما أرادته طوال الوقت.

صمتت أماندا وأوليفر طويلًا، وعيناهما مثبتتان على الأرض بينما تتأرجح أرجلهما من على حافة سرير أوليفر. بدوا صغارًا للغاية، جالسين هناك على سرير يعلو قامتهم بوضوح. قطب فيليب.

كيف لم ألحظ هذا من قبل؟ ألم يكن حريًا بهم أن يناموا على أسرة أكثر انخفاضًا؟ ماذا لو سقطوا في الليل؟

أو ربما كبروا على ذلك. ربما ما عادوا يسقطون من الأسرة. وربما لم يسقطوا قط.

ربما كنت أبًا سيئًا بحق. ربما كان علي أن أعلم هذه الأمور.

ربما... ربما...

أغمض عينيه وتنهد.

ربما علي أن أكف عن كثرة التفكير وأن أبذل قصارى جهدي وأرضى بذلك.

سألت أماندا رافعة رأسها:

– "هل ستذهب بعيدًا أنت أيضًا؟"

نظر في عينيها، الزرقاوين كعيني أمها، وهمس بحرارة وهو يجثو أمامها ممسكًا بيديها الصغيرتين:

– "لا."

بدت يداها ضئيلتين في قبضته، هشتين.

كرر قوله:

– "لا، لن أذهب بعيدًا. لن أذهب أبدًا..."

نظر فيليب إلى كأس الويسكي. فارغة مجددًا.

عجيب كيف تفرغ الكأس حتى بعد ملئها أربع مرات.

كان يكره التذكر. لم يكن واثقًا أيهم كان الأسوأ: الغوص تحت الماء، أم اللحظة التي التفتت إليه فيها السيدة هيرلي قائلة "لقد رحلت"؟

أم كان أطفاله، الحزن على وجوههم، والخوف في عيونهم؟

رفع الكأس إلى شفتيه، تاركًا القطرات الأخيرة تنزلق في فمه. الأسوأ كان أطفاله بلا ريب. أخبرهم أنه لن يتركهم أبدًا، ولم يفعل – ولن يفعل – لكن مجرد وجوده لم يكن يكفي. كانوا بحاجة لأكثر من ذلك. كانوا بحاجة لمن يعرف كيف يكون والدًا، من يعرف كيف يحادثهم ويفهمهم ويقوم سلوكهم.

وبما أنه لا يستطيع جلب أب آخر لهم، فقد خمن أنه ينبغي التفكير في إيجاد أم.

الوقت مبكر بالطبع. لا يمكنه الزواج قبل انقضاء فترة الحداد المقررة، لكن ذلك لا يمنع البحث.

تنهد متهالكًا في مقعده. إنه بحاجة لزوجة. أي زوجة ستفي بالغرض. لا يهم مظهرها. لا يهم مالها. لا يهم إن كانت تجيد الحساب أو تتحدث الفرنسية أو حتى تمتطي جوادًا.

حسبها أن تكون سعيدة.

أهذا كثير في زوجة؟ ابتسامة، ولو مرة في اليوم؟ وربما صوت ضحكتها؟

وأن تحب أطفالي. أو على الأقل تتظاهر بذلك ببراعة لا يدركون معها الفرق.

ليس طلبًا عسيرًا، أليس كذلك؟

باغته صوت:

– "سير فيليب؟"

رفع فيليب بصره، لاعنًا نفسه لتركه باب مكتبه مواربًا. كان مايلز كارتر، سكرتيره، يطل برأسه.

سأل فيليب:

– "ما الأمر؟"

– "رسالة يا سيدي، من لندن."

وتقدم مايلز ليسلمه مظروفًا.

نظر فيليب للمظروف في يده، وارتفع حاجباه للخط ذي الطابع الأنثوي الجلي. صرف مايلز بإيماءة، ثم التقط فتاحة الرسائل ومررها تحت الشمع. انزلقت ورقة واحدة. فركها فيليب بين أصابعه. ورقة فاخرة. باهظة. وثقيلة أيضًا، دلالة على أن المرسل لا يعبأ بتكلفة البريد.

قلبها وقرأ:

رقم ٥، شارع بروتون

لندن

إلى السير فيليب كرين

أكتب إليك لأعرب عن خالص عزائي في فقد زوجتك، ابنة عمي العزيزة ماريناـ. ورغم انقضاء سنوات طوال منذ آخر لقاء جمعني بمارينا، إلا أني أذكرها بكل مودة، وقد أحزنني أيما حزن نبأ وفاتها.

أرجو ألا تتردد في الكتابة إليّ إن كان في وسعي فعل أي شيء للتخفيف من مصابكم في هذا الوقت العصيب.

المخلصة،

الآنسة إلويز بريدجرتون

فرك فيليب عينيه.

بريدجرتون... بريدجرتون.

هل كان لمارينا أقارب من آل بريدجرتون؟

لا بد من ذلك، إن كانت إحداهم تراسله.

تنهد، ثم فاجأ نفسه بمد يده إلى أوراقه وريشته. نادرة هي رسائل التعزية التي وصلته منذ وفاة مارينا. يبدو أن جل أصدقائها وعائلتها قد نسوها منذ زواجها. افترض أنه لا ينبغي له أن يغضب، أو حتى يندهش. لقد ندر خروجها من مخدعها؛ ومن السهل نسيان من لا تراه العين.

الآنسة بريدجرتون تستحق ردًا. إنها كياسة معهودة، أو حتى إن لم تكن – وفيليب كان واثقًا من جهله بآداب التعامل مع وفاة الزوجة – فقد بدا له الأمر صوابًا.

وهكذا، وبنفسٍ مثقلٍ بالإعياء، وضع ريشته على الورق وشرع يكتب.

الفصل الأول

مايو ، عام 1824

في مكانٍ ما على الطريق بين لندن وغلوسترشاير

في غياهب الليل البهيم

عزيزتي الآنسة بريدجرتون...

أزجي إليكِ وافر الشكر على رسالتكِ الرقيقة التي واسيتِني فيها بوفاة زوجتي. إنه لنبلٌ منكِ أن تستقطعي من وقتكِ للكتابة إلى رجلٍ لم تحظي بلقائه قط. أقدم لكِ هذه الزهرة المضغوطة عربون شكر؛ هي ليست سوى زهرة "المخيم الأحمر" البسيطة (Silene dioica)، بيد أنها تضفي بهجةً على الحقول ههنا في غلوسترشاير، ويبدو أنها قد أينعت باكرًا هذا العام. لقد كانت الزهرة البرية المفضلة لدى مارينا.

المخلص،

السير فيليب كرين

مهدت إلويز بريدجرتون الورقة – التي أبلتها كثرة القراءة – على حجرها. لم يكن النور يسعفها لتبين الكلمات، حتى مع تسلل خيوط القمر البدر عبر

نوافذ العربة، غير أن ذلك لم يكن ذا بال؛ فقد حفظت الرسالة عن ظهر قلب، واستقرت الزهرة المضغوطة الرقيقة – التي كانت إلى الوردية أقرب منها إلى الحمرة – في مأمن بين طيات كتاب اختلسته من مكتبة أخيها.

لم تباغتها الدهشة حين تلقت ردًا من السير فيليب. فدواعي اللياقة تقتضي ذلك، وإن كانت والدة إلويز – وهي الحجة العليا في أصول السلوك – ترى أن ابنتها تأخذ مسألة المراسلات بمأخذ الجد أكثر مما ينبغي.

كان من المألوف، بطبيعة الحال، للسيدات من طبقة إلويز أن يصرفن سحابة من وقتهن كل أسبوع في تدبيج الرسائل، غير أن إلويز دأبت منذ زمن بعيد على استقطاع ذلك القدر من الوقت كل يوم. كانت تجد لذةً في خط الرسائل، لا سيما لأولئك الذين لم ترهم منذ سنوات (طالما راق لها تخيل دهشتهم عند فض المظروف)، ولذا كانت تشهر قلمها وورقها في كل مناسبة سانحة – ولادة، وفاة، أو أي إنجاز يستوجب تهنئة أو عزاء.

لم تكن تدري كنه الدافع الذي يحملها على إرسال تلك المكاتيب، سوى أنها كانت تمضي وقتًا طويلًا في مراسلة من غاب من إخوتها عن لندن، فبدا لها يسيرًا أن تخط رسالة مقتضبة لقريب ناءٍ ما دامت جالسة إلى مكتبها.

ورغم أن الجميع كان يرد برسالة مقتضبة – فهي من آل بريدجرتون في المقام الأول، ومن ذا الذي يجرؤ على إغضابهم؟ – إلا أنه لم يسبق لأحد أن أرفق هدية، حتى ولو كانت شيئًا متواضعًا كزهرة مضغوطة.

أغمضت إلويز عينيها، مستحضرة صورة البتلات الوردية الرهافة. عزّ عليها أن تتخيل رجلًا يلمس زهرة بهذا الضعف؛ فإخوتها الأربعة رجالٌ صناديد، ذوو مناكب عريضة وأيادٍ ضخمة كفيلة بأن تسحق تلك المسكينة في طرفة عين.

لقد أثار رد السير فيليب فضولها، لا سيما استخدامه للغة اللاتينية، فما كان منها إلا أن خطت ردها على الفور.

عزيزي السير فيليب...

شكرًا جزيلًا لك على تلك الزهرة المضغوطة الفاتنة. كانت مفاجأة عذبة حين تهادت من المظروف، وتذكارًا نفيسًا للغالية مارينا أيضًا.

لم يسعني إلا أن ألاحظ براعتك في إيراد الاسم العلمي للزهرة. هل أنت عالم نبات؟

المخلصة،

الآنسة إلويز بريدجرتون

كان مكرًا منها أن تذيل رسالتها بسؤال؛ فالرجل المسكين سيجد نفسه مضطرًا للرد مجددًا.

ولم يخيب ظنها؛ إذ لم يمضِ سوى عشرة أيام حتى تلقت إلويز رده.

عزيزتي الآنسة بريدجرتون...

بلى، أنا عالم نبات، تلقيت تدريبي في جامعة كامبريدج، وإن كنت لست منتسبًا حاليًا لأي جامعة أو هيئة علمية. أجري تجاربي ههنا في قاعة رومني هول، داخل دفيئتي الخاصة. هل لكِ باعٌ في العلم أنتِ أيضًا؟

المخلص،

السير فيليب كرين

كان ثمة شيء مثير في هذه المراسلة؛ لعلها نشوة العثور على شخص لا يمت لها بصلة قرابة، ومع ذلك يبدي حماسة حقيقية لإدارة حوار مكتوب.

ومهما كان السبب، فقد كتبت إلويز ردها في التو واللحظة.

عزيزي السير فيليب...

كلا، وا أسفاه، ليس لي عقل علمي، وإن كنت أجيد الحساب. إنما تكمن اهتماماتي في الإنسانيات؛ ولعلك لاحظت ولعي بتدبيج الرسائل.

المخلصة في الصداقة،

إلويز بريدجرتون

لم تكن إلويز موقنة من صواب التذيل بتحية غير رسمية كهذه، لكنها آثرت الجنوح صوب الجرأة. فالسير فيليب كان بوضوح يستمتع بالمراسلة بقدر استمتاعها؛ وإلا ما كان لينهي رسالته بسؤال، أليس كذلك؟

جاءها جوابه بعد أسبوعين.

عزيزتي الآنسة بريدجرتون...

آه، ولكنها ضربٌ من الصداقة، أليس كذلك؟ أعترف لكِ بشيء من العزلة ههنا في الريف، وإن كان المرء لا يجد وجهًا مبتسمًا على مائدة إفطاره، فحسبه أن يجد رسالة ودودة، ألا توافقينني الرأي؟

أرفقت لكِ زهرة أخرى. هذه هي (Geranium pratense)، المعروفة باسم "منقار الكركي".

مع فائق التقدير،

فيليب كرين

تذكرت إلويز ذلك اليوم جيدًا. جلست في مقعدها بجوار نافذة غرفتها، وظلت تتأمل الزهرة الأرجوانية المضغوطة بعناية لدهر من الزمان. هل يحاول التودد إليها؟ عبر البريد؟

ثم ذات يوم، تلقت رسالة باينت سابقاتها كل المباينة.

عزيزتي الآنسة بريدجرتون...

لقد انصرم وقت طويل ونحن نتراسل، ورغم أننا لم نلتقِ رسميًا قط، إلا أنني أشعر وكأني أعرفكِ. وآمل أن يراودكِ الشعور ذاته.

اعذري جرأتي، ولكني أكتب لأدعوكِ لزيارتي ههنا في رومني هول.

يحدوني الأمل أنه بعد انقضاء فترة مناسبة، قد نرى أننا نأتلف، فتقبلين بي زوجًا.

ستكونين، بطبيعة الحال، تحت رعاية لائقة. فإن قبلتِ دعوتي، سأرتب فورًا لإحضار عمتي الأرملة إلى رومني هول.

آمل حقًا أن تنظري في عرضي هذا.

المخلص لكِ دومًا،

فيليب كرين

دست إلويز الرسالة فورًا في أحد الأدراج، عاجزة حتى عن استيعاب طلبه. أيريد الزواج من امرأة لا يعرفها؟

لا، للإنصاف، لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا. إنهما يعرفان بعضهما البعض. لقد باحا في مراسلات عام واحد بأكثر مما يبوح به كثير من الأزواج والزوجات طيلة عمر من الزواج.

ولكنهما، رغم ذلك، لم يلتقيا قط.

جالت بخاطر إلويز كل عروض الزواج التي رفضتها على مر السنين. كم كان عددها؟ ستة على الأقل. والآن، لم تعد تذكر حتى لمَ رفضت بعضهم. لا سبب حقيقيًا، سوى أنهم لم يكونوا...

مثاليين.

أكان ذلك مطلبًا عسيرًا؟

هزت رأسها، مدركة أنها تبدو حمقاء ومدللة. لا، لم تكن تنشد شخصًا كاملًا. كانت تنشد الشخص الكامل لها.

كانت تعلم ما تلوك به ألسنة السيدات في المجتمع عنها. إنها متطلبة، بل أسوأ من حمقاء. سينتهي بها المطاف عانسًا – لا، لم يعودوا يقولون ذلك. باتوا يقولون إنها عانس بالفعل، وتلك هي الحقيقة. فالمرأة لا تبلغ الثامنة والعشرين دون أن يُهمس بذلك خلف ظهرها.

أو يُقذف به في وجهها.

لكن الحقيقة المضحكة هي أن إلويز لم تكن تأبه لوضعها. أو على الأقل لم تكن كذلك حتى عهد قريب.

لم يخطر ببالها أنها ستبقى عانسًا أبد الدهر، وفضلًا عن ذلك، كانت تستمتع بحياتها أيما استمتاع. لديها أروع عائلة يمكن تصورها – سبعة إخوة وأخوات، سُمّوا أبجديًا، مما وضعها في المنتصف تمامًا عند الحرف E، يسبقها أربعة ويلحقها ثلاثة. كانت أمها بهجة الحياة، حتى إنها كفت عن إلحاحها على إلويز بشأن الزواج. وما زالت إلويز تحتل مكانة مرموقة في المجتمع؛ فآل بريدجرتون محبوبون ومحترمون (ومرهوبون أحيانًا) من الجميع، وشخصية إلويز المشرقة الجامحة جعلت الجميع يطلب ودها، سواء كانت في سن العنوسة أم لا.

ولكن مؤخرًا...

تنهدت، وقد شعرت فجأة بأنها أكبر من سنواتها الثماني والعشرين. مؤخرًا، لم تعد تشعر بذلك الإشراق. مؤخرًا، بدأ يساورها الشك بأن أولئك العجائز المتذمرات كنّ على حق، وأنها لن تظفر بزوج. ربما كانت صعبة

المراس، شديدة التصميم على الاقتداء بإخوتها وأختها الكبرى، الذين وجدوا جميعًا حبًا عميقًا جارفًا مع أزواجهم (حتى وإن لم يكن موجودًا بالضرورة منذ البداية).

ربما كان زواج يقوم على الاحترام المتبادل والرفقة خيرًا من العدم.

ولكن كان من العسير البوح بهذه المشاعر لأحد. لقد أمضت أمها سنوات طوالًا تحثها على العثور على زوج؛ ومهما كانت إلويز تعشقها، فمن الصعب عليها أن تتجرع مرارة الاعتراف بأنها كان عليها أن تصغي. أما إخوتها فلن يغنوا عنها شيئًا. أنطوني، الأكبر، كان سينصب نفسه مسؤولًا عن انتقاء زوج مناسب ثم يجبر المسكين على الخضوع. بينديكت كان غارقًا في أحلامه، وفضلًا عن ذلك، لم يعد ينزل إلى لندن إلا لمامًا، مفضلًا هدوء الريف. أما كولن... حسنًا، تلك قصة أخرى تمامًا، جديرة بفقرة خاصة بها.

افترضت أنه كان عليها الحديث مع دافني، لكن كلما ذهبت لرؤيتها، وجدتها سعيدة لدرجة لا تطاق، غارقة في نعيم الحب مع زوجها وحياتها كأم لأربعة أطفال. كيف لمثلها أن تسدي نصيحة مجدية لمن هي في وضع إلويز؟ وفرانشيسكا بدت وكأنها في عالم آخر، هناك في اسكتلندا. وعلاوة على ذلك، لم ترَ إلويز من الإنصاف إقلاقها بهمومها التافهة. لقد ترملت فرانشيسكا في الثالثة والعشرين من عمرها، يا للسماء! فمخاوف إلويز وهمومها تبدو تافهة بالمقارنة.

ولعل هذا كله هو السبب في أن مراسلتها مع السير فيليب قد غدت لذة محرمة. فآل بريدجرتون عائلة كبيرة، صاخبة، وجلبة. يكاد يستحيل إخفاء سر، لا سيما عن أخواتها، وأصغرهن – هياسينث – التي كان بإمكانها حسم الحرب ضد نابليون في نصف المدة لو فطن جلالته لتجنيدها في جهاز التجسس.

كان السير فيليب، بطريقته الغريبة، ملكًا لها وحدها. الشيء الوحيد الذي لم تضطر لمشاركته مع أحد. كانت رسائله محزومة ومربوطة بشريط

أرجواني، مخبأة في قاع درج مكتبها الأوسط، مدسوسة تحت أكوام الورق الذي تستخدمه لرسائلها الكثيرة.

كان سرها. لها وحدها.

ولأنها لم تقابله قط، استطاعت أن تخلقه في مخيلتها، مستخدمة رسائله كهيكل عظمي ثم تكسوه لحمًا كما يحلو لها. فإن كان ثمة رجل كامل، فلا بد أنه السير فيليب كرين الذي في خيالها.

والآن يريد اللقاء؟ لقاءً؟ أجنّ الرجل؟ وهل يريد إفساد ما كان حريًا به أن يكون التودد المثالي؟

ولكن المستحيل وقع. بينيلوبي فيذرينغتون، صديقة إلويز الحميمة لقرابة اثني عشر عامًا، تزوجت. وما هو أكثر من ذلك، تزوجت كولن. شقيق إلويز!

لو خر القمر من السماء واستقر في حديقتها الخلفية، لما كانت دهشة إلويز أكبر.

كانت إلويز سعيدة لـ بينيلوبي. بصدق كانت كذلك. وسعيدة لـ كولن أيضًا. إنهما – على الأرجح – أحب شخصين إليها في العالم بأسره، وسرها أنهما وجدا السعادة. لا أحد يستحقها أكثر منهما.

ولكن ذلك لا ينفي أن زواجهما خلّف فراغًا موحشًا في حياتها.

كانت تظن، حين كانت تتأمل حياتها كعانس وتقنع نفسها بأن هذا ما تريده حقًا، أن بينيلوبي كانت دائمًا حاضرة في الصورة، عانسًا بجوارها. كان مقبولًا – بل وشبه جريء – أن تكون في الثامنة والعشرين وغير متزوجة ما دامت بينيلوبي كذلك. لم تكن لا ترغب في أن تجد بينيلوبي زوجًا؛ بل إن الأمر لم يبدُ محتملًا ولو قيد أنملة. كانت إلويز تعلم أن بينيلوبي رائعة وطيبة وذكية ولماحة، لكن رجال المجتمع الراقي لم يلحظوا ذلك قط. طوال سنواتها في المجتمع – إحدى عشرة سنة – لم تتلقَ بينيلوبي عرض زواج واحدًا. ولا حتى ذرة اهتمام.

بطريقة ما، كانت إلويز تعول عليها لتبقى حيث هي، وكما هي – صديقة إلويز أولًا وقبل كل شيء. رفيقتها في العنوسة.

والأدهى من ذلك – الجزء الذي جعل إلويز تتمزق شعورًا بالذنب – أنها لم تفكر قط ـفي شعور بينيلوبي لو تزوجت هي أولًا، وهو ما افترضت دائمًا أنها ستفعله.

ولكن الآن ظفرت بينيلوبي بـ كولن، ورأت إلويز أن الزيجة كانت أمرًا بديعًا.

وهي بقيت وحيدة. وحيدة ـفي وسط لندن المكتظة، وفي قلب عائلة كبيرة ومحبة.

من العسير تخيل مكان أكثر وحدة من هذا.

فجأة، بدا عرض السير فيليب الجريء – القابع ـفي قاع حزمتها، ـفي قاع الدرج الأوسط، والمغلق عليه ـفي صندوق أمانات ابتاعته حديثًا كي لا توسوس لها نفسها بالنظر إليه ست مرات يوميًا – حسنًا، بدا الأمر أكثر إغراءً.

ازداد إغراءً يومًا تلو الآخر، بصراحة، كلما تنامى تململها، وتعاظم سخطها على النصيب الذي كان عليها الاعتراف بأنها اختارته.

وهكذا ذات يوم، بعد أن ذهبت لزيارة بينيلوبي، ليخبرها رئيس الخدم أن السيد والسيدة بريدجرتون لا يستقبلان الزوار (بنبرة جعلت حتى إلويز تدرك ما يعنيه)، اتخذت قرارًا. آن الأوان لتأخذ زمام حياتها بيدها، آن الأوان لتتحكم في مصيرها، بدلًا من حضور حفل تلو الآخر ـفي أمل واهٍ بأن يتجسد الرجل الكامل أمامها فجأة، ناهيك عن أنه لا يوجد وجوه جديدة ـفي لندن، وبعد عقد كامل ـفي المجتمع، كانت قد التقت بكل من هو ـفي السن والجنس المناسبين للزواج.

أقنعت نفسها بأن هذا لا يعني حتمية الزواج من السير فيليب؛ هي فقط تتحرى ما يبدو احتمالًا ممتازًا. إن لم يأتلفا، فلا حاجة للزواج؛ فهي لم تقطع له وعدًا ـفي النهاية.

ولكن إن كانت ثمة خصلة تميز إلويز، فهي أنها إذا عزمت أمرًا، نفذته على عجل. لا، استدركت مفكرة بصدق مثير للإعجاب (في رأيها على الأقل)، ثمة خصلتان تلونان كل أفعالها: أنها تحب العجلة، وأنها عنيدة.

وصفتها بينيلوبي ذات مرة بأنها ككلب ظفر بعظمة.

ولم تكن بينيلوبي تمزح.

فما إن تغرز إلويز مخالبها في فكرة، حتى تعجز قوة عائلة بريدجرتون مجتمعة عن زحزحتها عن مرادها. (وآل بريدجرتون قوة لا يستهان بها، حقاً). لعلها ضربة حظ حمقاء أن أهدافها وأهداف عائلتها لم تتقاطع من قبل، على الأقل ليس في أمر جلل.

علمت إلويز أنهم لن يقروا ذهابها بشكل أعمي للقاء رجل لم تره قط. كان أنطوني سيطالب السير فيليب بالمجيء إلى لندن لمقابلة العائلة بأسرها، ولا تستطيع إلويز تخيل سيناريو أكثر كفاءة في تنفير خاطب محتمل. الرجال الذين طلبوا ودها سابقاً كانوا على الأقل يألفون مشهد لندن ويعلمون ما هم مقدمون عليه؛ أما السير فيليب المسكين، الذي لم تطأ قدمه لندن منذ أيام دراسته – باعترافه في رسائله – ولم يشارك قط في الموسم الاجتماعي، فسيقع في كمين.

لذا كان الخيار الوحيد هو السفر إلى غلوسترشاير، وكما أدركت بعد تقليب الأمر لأيام، كان عليها أن تفعل ذلك خلسة. فلو علمت عائلتها بخططها، لربما منعوها من الذهاب. إلويز خصم عنيد، وقد تنتصر في النهاية، لكنها ستكون معركة طويلة ومؤلمة. ناهيك عن أنهم لو سمحوا لها بالذهاب، سواء بعد معركة طويلة أم لا، لأصروا على إرسال اثنين على الأقل من صفوفهم لمرافقتها.

ارتعدت إلويز. هذان الاثنان سيكونان، على الأرجح، أمها وهياسينث.

يا إلهي، لا أحد يمكنه الوقوع في الحب بوجود هاتين الاثنتين. لا يمكن لأحد حتى تكوين ارتباط طفيف ولكنه دائم، وهو ما اعتقدت إلويز أنها قد تكون مستعدة للرضا به في هذه الجولة.

قررت أن تنفذ هروبها أثناء حفل أختها دافني. سيكون حدثاً فخماً، يعج بجموع الضيوف، وفيه من الصخب والهرج ما يكفي ليمر غيابها دون أن يلحظه أحد لست ساعات، وربما أكثر. كانت أمها تصر دائماً على الدقة في المواعيد – بل والتبكير – حين يستضيف أحد أفراد العائلة مناسبة اجتماعية، لذا

سيصلون بالتأكيد إلى منزل دافني في موعد لا يتجاوز الثامنة. إن تسللت في وقت مبكر، والحفل لم ينفضّ إلا في ساعات الصباح الأولى... حسنًا، سيبزغ الفجر قبل أن يدرك أحد غيابها، وتكون قد قطعت نصف الطريق إلى غلوسترشاير.

وإن لم يكن النصف، فمسافة كافية لضمان ألا يكون اقتفاء أثرها أمرًا يسيرًا.

وفي النهاية، أثبت الأمر سهولة مخيفة. كانت عائلتها بأسرها مشتتة بإعلان كبير يعتزم كولن إذاعته. فكل ما كان عليها فعله هو الاستئذان إلى غرفة السيدات، والتسلل من الباب الخلفي، وقطع المسافة القصيرة إلى منزلها، حيث خبأت حقائبها في الحديقة الخلفية. ومن هناك، لم تحتج سوى المشي إلى الناصية، حيث رتبت لانتظار عربة مستأجرة.

يا للسماء، لو علمت أن شق طريقها في العالم بهذه السهولة، لفعلت ذلك منذ سنوات.

وها هي ذي الآن، تتدحرج عجلاتها صوب غلوسترشاير، صوب القدر كما افترضت – أو أملت، لم تكن متأكدة – وليس في حوزتها سوى بضع غيارات من الملابس وكومة رسائل خطها رجل لم تره قط.

رجل تأمل أن تحبه.

كان أمرًا مثيرًا.

لا، بل مرعبًا.

فكرت في أنها، على الأرجح، أكثر حماقة ارتكبتها في حياتها، وكان عليها الاعتراف بأنها اتخذت بضع قرارات حمقاء في زمنها.

أو ربما تكون فرصتها الوحيدة للسعادة.

تجهمت إلويز. بدأت تنجرف وراء الخيال. تلك علامة سيئة. كانت بحاجة لمقاربة هذه المغامرة بكل العملية والبراغماتية التي تحاول دائمًا اتخاذ قراراتها بها. لا يزال هناك وقت للعودة. ماذا تعرف عن هذا الرجل، حقًا؟ لقد قال الكثير خلال عام من المراسلة:

- ❖ *يبلغ الثلاثين من العمر، يكبرها بعامين.*
- ❖ *درس في كامبريدج وتعلم علم النبات.*
- ❖ *كان متزوجًا من ابنة عمها من الدرجة الرابعة مارينا لثماني سنوات، ما يعني أنه كان في الحادية والعشرين يوم زفافه.*
- ❖ *شعره بني.*
- ❖ *يملك كل أسنانه.*
- ❖ *يحمل لقب بارون.*
- ❖ *يقطن في رومني هول، بناء حجري شيد في القرن الثامن عشر قرب تيتبري، غلوسترشاير.*
- ❖ *يحب قراءة الرسائل العلمية والشعر، لكن لا الروايات، وبالتأكيد ليس كتب الفلسفة.*
- ❖ *يحب المطر.*
- ❖ *لونه المفضل الأخضر.*
- ❖ *لم يسافر خارج إنجلترا قط.*
- ❖ *لا يحب السمك.*

كظمت إلويز فقاعة من الضحك العصبي. لا يحب السمك؟ أهذا ما تعرفه عنه؟

تمتمت لنفسها، محاولة تجاهل نبرة الذعر في صوتها:

– "أساس متين للزواج، بلا ريب."

وماذا يعرف هو عنها؟ ما الذي دفعه لطلب الزواج من غريبة تمامًا؟

حاولت تذكر ما ضمنته في رسائلها الكثيرة:

- ❖ تبلغ الثامنة والعشرين.
- ❖ شعرها بني (كستنائي، في الحقيقة) وتملك كل أسنانها.
- ❖ عيناها رماديتان.
- ❖ تنحدر من عائلة كبيرة ومحبة.
- ❖ شقيقها فيكونت.

❖ توفي والدها وهي طفلة، قضت عليه لسعة نحلة وضيعة بشكل لا يمكن استيعابه.

❖ تميل للحديث أكثر مما ينبغي. (يا إلهي، هل كتبت ذلك حقًا؟).

❖ تحب قراءة الشعر والروايات، ولكن قطعًا ليست الرسائل العلمية أو كتب الفلسفة.

❖ سافرت إلى اسكتلندا، ولكن هذا كل شيء.

❖ لونها المفضل الأرجواني.

❖ لا تحب لحم الضأن، وتمقت بودنج الدم مقتًا شديدًا.

انفلتت ضحكة صغيرة مذعورة أخرى من شفتيها. حين تضع الأمر بهذا الشكل، فكرت بشيء غير قليل من التهكم، تبدو صيدة ثمينة حقًا.

نظرت عبر النافذة، وكأن ذلك قد يمنحها إشارة عن موقعها على الطريق بين لندن وتيتبري.

التلال الخضراء المتموجة تشبه التلال الخضراء المتموجة التي تشبه التلال الخضراء المتموجة، ولعلها في ويلز الآن، من يدري.

قاطبة جبينها، نظرت إلى الورقة في حجرها وأعادت طي رسالة السير فيليب. أعادتها إلى الحزمة المربوطة بالشريط في حقيبتها، ثم نقرت بأصابعها على فخذيها في حركة عصبية.

كان لديها ما يبرر توترها.

لقد غادرت الديار وكل ما هو مألوف.

تسافر عبر نصف إنجلترا، ولا أحد يعلم.

لا أحد.

ولا حتى السير فيليب.

لأنها في عجلتها لمغادرة لندن، أغفلت إخباره بقدومها. لم يكن نسيانًا؛ بل إنها نوعًا ما... نحّت المهمة جانبًا حتى فات الأوان.

لو أخبرته، لكانت ألزمت نفسها بالخطة. بهذه الطريقة، لا يزال لديها فرصة للتراجع في أي لحظة. قالت لنفسها إن السبب هو حبها لامتلاك

الخيارات، لكن الحقيقة أنها كانت ببساطة مرعوبة، وخشيت فقدان شجاعتها تمامًا.

فضلًا عن ذلك، هو من طلب اللقاء. سيكون سعيدًا برؤيتها.

أليس كذلك؟

نهض فيليب من فراشه وأزاح الستائر في غرفة نومه، كاشفًا عن يوم مشمس مثالي آخر.

مثالي.

دلف إلى غرفة ملابسه ليبحث عن ثياب، بعد أن صرف منذ أمد بعيد الخدم الذين اعتادوا القيام بهذه المهام. لم يستطع تفسير الأمر، لكن بعد وفاة مارينا، لم يرغب في أن يقتحم أحد غرفته في الصباح، يزيح ستائره، وينتقي ملابسه.

حتى إنه صرف مايلز كارتر، الذي حاول جاهدًا أن يكون صديقًا بعد رحيل مارينا. ولكن السكرتير الشاب جعل شعوره يزداد سوءًا بطريقة ما، لذا صرفه في سبيله، مع راتب ستة أشهر وخطاب توصية ممتاز.

لقد قضى زواجه بـ مارينا باحثًا عن شخص يحادثه، لغيابها الدائم، لكن الآن وقد رحلت، لم يرغب سوى في صحبة نفسه.

ظن أنه ألمح إلى ذلك في إحدى رسائله العديدة إلى إلويز بريدجرتون الغامضة، لأنه أرسل عرضه الذي "ليس زواجًا تمامًا ولكن قد يفضي إليه" منذ أكثر من شهر، وكان صمتها مدويًا، لا سيما أنها كانت ترد على رسائله عادة بسرعة ساحرة.

قطب جبينه. إلويز بريدجرتون الغامضة لم تكن غامضة حقًا. بدت في رسائلها منفتحة وصادقة وتملك طبعًا مشرقًا بشكل إيجابي، وهو، عند النظر للأمور بروية، كل ما يصر عليه في زوجة هذه المرة.

ارتدى قميص العمل؛ كان ينوي قضاء جل يومه في الدفيئة، غارقًا في التراب حتى مرفقيه. كان يشعر بخيبة أمل لأن الآنسة بريدجرتون قررت

بوضوح أنه نوع من المجانين المختلين الذين يجب تجنبهم بأي ثمن. بدت الحل الأمثل لمشاكله. كان بحاجة ماسة لأم لـ أماندا وأوليفر، لكنهما أصبحا جامحين لدرجة لا يستطيع معها تخيل امرأة توافق طوعًا على الارتباط به في زواج وتربط نفسها بهذين الشيطانين الصغيرين مدى الحياة (أو على الأقل حتى بلوغهما سن الرشد).

لكن الآنسة بريدجرتون في الثامنة والعشرين؛ عانس بوضوح. وكانت تتراسل مع غريب تمامًا لأكثر من عام؛ ألا يدل ذلك على شيء من اليأس؟ ألن تقدر فرصة العثور على زوج؟ لديه منزل، وثروة محترمة، وعمره ثلاثون عامًا فقط. ماذا عساها تطلب أكثر من ذلك؟

تمتم بعبارات مستاءة وهو يحشر ساقيه في بنطاله الصوفي الخشن. بوضوح كانت تريد شيئًا أكثر، وإلا لكانت تحلت بالكياسة لترد بالرفض على الأقل.

دبببب!

نظر فيليب إلى السقف وتجهم. قصر رومني هول قديم وصلب ومبني بإتقان، وإن كان سقفه يهتز، فإن أطفاله قد أسقطوا (دفعوا؟ قذفوا؟) شيئًا ضخمًا للغاية.

دبببب!

جفل. بدا صوت هذه الضربة أسوأ. ومع ذلك، مربيتهم هناك معهم، وهي دائمًا تدبر أمرهم أفضل منه. إن استطاع فقط انتعال حذائه في أقل من دقيقة، يمكنه الخروج من المنزل قبل أن يحدثوا مزيدًا من الضرر، وهكذا يستطيع التظاهر بأن شيئًا لم يحدث.

مد يده لحذائه. نعم، فكرة ممتازة. بعيدًا عن السمع، بعيدًا عن البال.

أكمل ارتداء ملابسه بسرعة مذهلة واندفع إلى الردهة، بخطوات سريعة نحو السلالم.

– "سير فيليب! سير فيليب!"

تبًا. رئيس خدمه يلاحقه الآن.

تظاهر فيليب بأنه لم يسمع.

– "سير فيليب!"

تمتم:

– "تبًا لهذا."

لم يكن هناك سبيل لتجاهل هذا الصياح إلا إذا كان مستعدًا لتحمل عذاب تحليق الخدم حوله، قلقين بشأن فقدانه المفاجئ للسمع.

استدار ببطء وقال:

– "نعم، يا غانينغ؟"

تنحنح غانينغ وقال:

– "سير فيليب، لدينا زائر."

ردد فيليب:

– "زائر؟ هل كان ذلك مصدر الـ... آه..."

أكمل غانينغ مساعدًا:

– "الضوضاء؟"

– "نعم."

تنحنح رئيس الخدم:

– "لا. ذلك كان أطفالك."

همس فيليب:

– "أرى ذلك. كم كان سخيفًا مني أن آمل غير ذلك."

– "لا أظنهم كسروا شيئًا يا سيدي."

– "هذا مريح وتغيير محمود."

– "بالفعل يا سيدي، ولكن هناك الزائر لننظر في أمره."

أنّ فيليب. من ذا الذي يزور في هذا الوقت من الصباح؟ لم يعتادوا استقبال الزوار حتى في الأوقات المعقولة.

حاول غانينغ الابتسام، لكن بدا واضحًا أنه لم يمارس ذلك منذ زمن.

– "اعتدنا أن يكون لدينا زوار، أتتذكر؟"

تلك هي مشكلة رؤساء الخدم الذين عملوا للعائلة قبل ولادتك. يميلون لأخذ السخرية علي محمل الجد.

سأل فيليب:

– "من هذا الزائر؟"

– "لست متيقنًا تمامًا يا سيدي."

سأله فيليب غير مصدق:

– "لست متيقنًا؟"

– "لم أستفسر."

– "أليس هذا ما يفترض برؤساء الخدم فعله؟"

– "الاستفسار يا سيدي؟"

صرّ فيليب على أسنانه متسائلًا إن كان غانينغ يحاول اختبار مدى احمرار وجه سيده قبل أن يسقط أرضًا بجلطة:

– "نعم."

– "ظننت أن أدعك تستفسر يا سيدي."

– "ظننت أن تدعني أستفسر."

خرجت العبارة كتقرير واقع، بعد أن أدرك فيليب عبث طرح الأسئلة.

– "نعم يا سيدي. هي هنا لرؤيتك، على أية حال."

– "وكذلك كل زوارنا، ولم يمنعك ذلك من التحقق من هوياتهم من قبل."

– "حسنًا، في الواقع يا سيدي – – "

حاول فيليب المقاطعة:

– "أنا متأكد تمامًا – – "

أنهى غانينغ الجملة، منتصرًا بوضوح في المعركة الكلامية:

– "نحن لا نستقبل زوارًا يا سيدي."

فتح فيليب فمه ليشير إلى أنهم يستقبلون زوارًا، فهناك واحدة بالأسفل في هذه اللحظة؛ ولكن حقًا، ما الجدوى؟

قال باستياء شديد:

– "حسنًا. سأنزل للأسفل."

تهلل وجه غانينغ:

– "ممتاز يا سيدي."

حدق فيليب في رئيس خدمه بصدمة:

– "هل أنت مريض يا غانينغ؟"

– "لا يا سيدي. لمَ تسأل يا سيدي؟"

لم يبدُ من اللباقة الإشارة إلى أن الابتسامة العريضة جعلت غانينغ يبدو كحصان، لذا تمتم فيليب فقط:

– "لا شيء."

ثم توجه لأسفل السلالم.

زائر؟ من عساه يزور؟ لم يأتِ أحد للزيارة منذ قرابة العام، منذ انتهى الجيران من واجبات العزاء الإلزامية. افترض أنه لا يمكنه لومهم حقًا على الابتعاد؛ ففي آخر مرة زارهم أحدهم، لطخ أوليفر وأماندا الكراسي بمربى الفراولة.

غادرت الليدي وينسلت في نوبة غضب تجاوزت ما ظنه فيليب صحيًا لامرأة في سنها.

قطب فيليب جبينه وهو يصل أسفل الدرج وينعطف إلى ردهة المدخل.

إنها امرأة، أليس كذلك؟ ألم يقل غانينغ إن الزائر "هي"؟

من بحق الجحيم – –

توقف فجأة؛ بل وترنح.

لأن المرأة الواقفة في ردهة مدخله كانت شابة، وجميلة جدًا، وحين رفعت بصرها لتلتقي نظراته، رأى أنها تملك أوسع وأجمل عينين رماديتين رآهما قط.

يمكنه الغرق في هاتين العينين.

ولم يفكر فيليب، كما قد يتبادر للذهن، في كلمة "الغرق" باستخفاف.

الفصل الثاني

... وبعد ذلك، ولستُ أحسبك ستعجب لسماع هذا، فقد أسرفت في الكلام أيما إسراف. ببساطة، لم أستطع كبح جماح لساني، ولكن أحسب أن تلك عادتي حين يلم بي التوتر.

ولا يسع المرء إلا أن يأمل في أن تقل دواعي توتري كلما تكشفت لي بقية فصول حياتي.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أخيها كولن،

بمناسبة تقديم إلويز للمجتمع اللندني لأول مرة.

ثم فتحت فمها.

سألت:

– "سير فيليب؟"

وقبل أن تحين منه إيماءة بالإيجاب، قالت بسرعة البرق الخاطف:

– "أعتذر أشد الاعتذار عن قدومي دون سابق إنذار، بيد أنه لم يكن لي خيار آخر، ولأكون صادقة، لو أرسلت إشعارًا، لكان على الأرجح وصل بعدي، مما يجعل الإشعار لغوًا لا طائل منه، وأنا موقنة أنك توافقني الرأي، و..."

طرف فيليب بعينيه، موقنًا أنه كان لزامًا عليه متابعة ما تقول، غير أنه ما عاد يميز موضع وقف الكلمة من مبتدأ تاليتها.

– "... رحلة طويلة، وأخشى أنني لم أذق طعم النوم، لذا ألتمس منك العذر لمظهري هذا و..."

كانت تصيبه بالدوار. هل يعد ضربًا من الوقاحة إن جلس؟

– "... لم أحمل معي الكثير، ولكن لم يكن بيدي حيلة، و..."

لقد طال هذا الأمر أكثر مما ينبغي، ولا تلوح في الأفق بارقة لنهايته. إن سمح لها بالاسترسال لحظة أخرى، فهو على يقين من أنه سيعاني اختلالًا في أذنه الداخلية، أو ربما ستخر هي مغشية عليها من انقطاع النفس لترتطم رأسها بالأرض. وفي كلتا الحالتين، سيصاب أحدهما بأذى أوألم مُقعّد.

قال وهو ينحني:

– "يا سيدتي."

إن كانت قد سمعته، فلم تبدِ أي إشارة، بل واصلت حديثها عن العربة التي يبدو أنها أقلتها إلى عتبة داره.

قال بصوت أعلى قليلًا هذه المرة:

– "يا سيدتي."

– "... ولكن حينها أنا –"

رفعت بصرها، تطرف بتلك العينين الرماديتين المهلكتين، وللحظة شعر باختلال مخيف في توازنه.

سألت:

– "نعم؟"

الآن وقد نال انتباهها، بدا وكأنه نسي لِمَ طلبه.

سأل مترددًا:

- "آه، من أنتِ بحق السماء؟"

حدقت فيه لـخمس ثوانٍ كاملة، وانفرجت شفتاها دهشة، ثم أجابت أخيرًا:

- "إلويز بريدجرتون، بطبيعة الحال."

كانت إلويز على يقين – أو كادت – من أنها أكثرت من الكلام، وكانت تعلم أنها تتحدث بسرعة، تلك عادتها حين يلم بها التوتر، وبينما كانت تزهو بكونها نادرة التوتر، بدا هذا الوقت جديرًا باستكشاف هذا الشعور، وفضلًا عن ذلك، لم يكن السير فيليب – إن كان حقًا هو هذا الرجل الذي يشبه الدب في ضخامته الواقف أمامها – كما توقعته على الإطلاق.

- "أنتِ إلويز بريدجرتون؟"

نظرت إلى وجهه الفاغر فاه، وشعرت ببوادر الانزعاج.

- "حسنًا، بالطبع أنا هي. من عساي أن أكون؟"

- "لم يكن بوسعي التخيل."

أشارت قائلة:

- "لقد دعوتني."

رد عليها:

- "وأنتِ لم تجيبي دعوتي."

ابتلعت ريقها. لقد أصاب في قوله. نقطة جوهرية، إن أراد المرء الإنصاف، وهي لم ترده. ليس في تلك اللحظة على أية حال.

راوغت قائلة:

- "لم تسنح لي الفرصة حقًا."

ثم، حين بدا من تعبير وجهه أن هذا التفسير غير كافٍ، أضافت:

- "كما ذكرت آنفًا في حديثي."

حدق فيها لفترة أطول مما يريحها، وعيناه الداكنتان عصيتان على الفهم، ثم قال:

- "لم أفهم كلمة مما قلتِ."

شعرت بفمها يتخذ شكلًا بيضاويًا من... الدهشة؟ لا، بل الانزعاج.

سألت:

– "ألم تكن تصغي؟"

– "لقد حاولت."

زمت إلويز شفتيها.

– "حسنًا إذًا."

قالتها وهي تعد للخمسة في رأسها – باللاتينية – قبل أن تضيف:

– "أقدم اعتذاري. آسفة لقدومي دون إخطار. كان سلوكًا يفتقر للكياسة بشكل مريع."

لزم الصمت لثلاث ثوانٍ كاملة – عدتها إلويز أيضًا – قبل أن يقول:

– "قبلت اعتذارك."

تنحنحت.

سعل وهو يجول بنظره في الأرجاء كمن يبحث عن منقذ يخلصه منها، ثم قال:

– "وبالطبع، أنا مسرور بوجودك ههنا."

قد يكون من غير اللائق الإشارة إلى أن نبرته بدت أي شيء سوى السرور، لذا وقفت إلويز مكانها، تحدق في عظمة وجنته اليمنى وهي تحاول تقرير ما يمكن قوله دون إهانته.

اعتبرت إلويز أنه لمن المحزن أن تعجز عن التفكير في شيء تقوله، وهي التي تملك لكل مقام مقالًا.

لحسن الحظ، أنقذ صمتهما المحرج من التضخم الهائل بسؤاله:

– "أهذه كل أمتعتك؟"

قوّمت إلويز كتفيها، مسرورة بالانتقال لموضوع تافه نسبيًا.

– "نعم. لم أكن حقًا..."

قطعت حديثها. هل هي بحاجة حقًا لإخباره أنها هربت من المنزل؟ لا يبدو الأمر مشرفًا لها، ولا لعائلتها في هذا الصدد. لم تكن واثقة من السبب،

لكنها لم ترغب في أن يعرف أنها – لكل الغايات والمقاصد – قد هربت. لم تكن متأكدة لمَ ظنت ذلك، لكن انتابها شعور قوي بأنه لو علم الحقيقة، لحزم أمتعتها وأعادها إلى لندن على جناح السرعة. ورغم أن لقاءها بالسير فيليب لم يثبت حتى الآن أنه مادة للرومانسية والنعيم كما تخيلت، إلا أنها لم تكن مستعدة للاستسلام بعد.

لا سيما إن كان ذلك يعني العودة لعائلتها ذليلة تجر أذيال الخيبة.

قالت بحزم:

– "هذا كل ما معي."

– "حسن."

نظر حوله مجددًا، هذه المرة بشيء من اليأس، مما لم تجده إلويز مفرحًا على الإطلاق. وصاح بصوت جهوري:

– "غانينغ!"

ظهر رئيس الخدم بسرعة توحي بأنه كان يتلصص السمع.

– "نعم يا سيدي؟"

– "نحن... آه... بحاجة لتجهيز غرفة للآنسة بريدجرتون."

طمأنه غانينغ:

– "لقد قمت بذلك بالفعل."

توردت وجنتا السير فيليب قليلًا، وغمغم:

– "حسن. ستقيم هنا لـ..."

نظر إليها مستفهمًا.

أكملت آملة أن تكون المدة مناسبة:

– "أسبوعين."

كرر السير فيليب وكأن رئيس الخدم لم يسمع ردها:

– "أسبوعين. سنبذل قصارى جهدنا لراحتها، بالطبع."

وافق رئيس الخدم:

– "بالطبع."

قال السير فيليب:

– "حسن."

كان لا يزال يبدو غير مرتاح للوضع برمته. أو إن لم يكن غير مرتاح تحديدًا، فلعله مرهق، وهو ما قد يكون أسوأ.

شعرت إلويز بخيبة أمل. صورته لنفسها رجلًا ذا سحر عفوي، يشبه أخاها كولن، الذي يملك ابتسامة جذابة ويعرف دائمًا ما يقول في أي موقف، محرجًا كان أو غير ذلك.

أما السير فيليب، فبدا كمن يود لو كان في أي مكان آخر سوى مكانه، وهو ما لم تجده إلويز مشجعًا، إذ إن محيطه الحالي يشملها. وما يزيد الطين بلة، أنه من المفترض به بذل جهد – ولو يسيرًا – للتعرف عليها وتقرير ما إذا كانت تصلح زوجة له.

ومن الأفضل أن تكون جهوده جيدة حقًا، لأنه إن صدق القول بأن الانطباعات الأولى هي الأصدق، فهي تشك كثيرًا في أنها ستقرر صلاحيته ليكون زوجًا مقبولًا.

ابتسمت له وهي تصر على أسنانها.

اندفع قائلًا:

– "أتودين الجلوس؟"

– "سيكون ذلك مبهجًا، شكرًا لك."

نظر حوله بتعبير فارغ، مانحًا إلويز انطباعًا بأنه بالكاد يعرف طريقه في منزله. غمغم مشيرًا لباب في نهاية الردهة:

– "هنا، غرفة الرسم."

سعل غانينغ.

نظر إليه السير فيليب وتجهم.

سأل رئيس الخدم بلهفة:

– "لعل سيدي نوى طلب المرطبات؟"

أجاب السير فيليب وهو ينحنح:

– "آه، نعم، بالطبع. بالطبع. آه، ربما..."

اقترح غانينغ:

– "صينية شاي، ربما؟ مع فطائر المافن؟"

تمتم السير فيليب:

– "ممتاز."

تابع رئيس الخدم:

– "أو ربما إن كانت الآنسة بريدجرتون جائعة، يمكنني إعداد إفطار أكثر دسامة."

أدار السير فيليب نظره نحو إلويز.

قالت، رغم أنها كانت تتضور جوعًا:

– "الفطائر ستكون رائعة."

سمحت إلويز للسير فيليب بأخذ ذراعها واقتيادها لغرفة الرسم، حيث جلست على أريكة مغطاة بالساتان الأزرق المقلم. كانت الغرفة مرتبة ونظيفة، لكن الأثاث كان باليًا. كان المنزل بأسره يحمل طابعًا مبهمًا من الإهمال، وكأن مالكه نفد ماله، أو ربما لم يعد يبالي.

مالت إلويز للاعتقاد بأنه الخيار الأخير. افترضت إمكانية ضائقة السير فيليب المالية، لكن الأراضي كانت خلابة، ورأت ما يكفي من دفيئته أثناء دخولها لتدرك أنها في حالة ممتازة. وبما أن السير فيليب عالم نبات، فقد يفسر ذلك العناية الفائقة بالخارج بينما تُرك الداخل ليذوي.

بوضوح، إنه بحاجة لزوجة.

شبكت يديها في حجرها، وراقبته يجلس قبالتها، حاشرًا جسده الضخم في كرسي صُمم بوضوح لشخص أصغر منه بكثير.

بدا في غاية عدم الارتياح، و(كان لـ إلويز ما يكفي من الإخوة لتمييز العلامات) بدا كمن يود بشدة أن يطلق السباب، لكن إلويز قررت أنه خطؤه لاختياره ذاك الكرسي، لذا ابتسمت له بما أملت أن يكون طريقة مهذبة ومشجعة، منتظرة منه بدء الحديث.

تنحنح.

مالت للأمام.

تنحنح مجددًا.

سعلت هي.

تنحنح مرة أخرى.

سألت أخيرًا، عاجزة عن احتمال فكرة سماع تنحنحة أخرى:

- "أتحتاج لبعض الشاي؟"

رفع بصره بامتنان، وإن لم تتيقن إلويز أكان ذلك لعرضها الشاي أم لكسرها الرحيم للصمت.

قال:

- "نعم، سيكون ذلك رائعًا."

فتحت إلويز فمها للرد، ثم تذكرت أنها في منزله ولا شأن لها بعرض الشاي. ناهيك عن أنه كان حريًا به تذكر تلك الحقيقة أيضًا.

قالت:

- "حسنًا. أنا واثقة من وصوله قريبًا."

وافقها وهو يتململ في مقعده:

- "صحيح."

تمتمت، رغم أنها قالت ذلك مسبقًا:

- "آسفة لقدومي دون إخطار."

لكن كان لا بد من قول شيء؛ قد يكون السير فيليب معتادًا على السكتات المحرجة، لكن إلويز من النوع الذي يحب ملء أي صمت.

قال:

- "لا بأس إطلاقًا."

ردت:

- "بلى، هناك بأس في الواقع. كان تصرفًا يفتقر للكياسة بشدة، وأنا أعتذر."

بدا مصعوقًا من صراحتها.

– "شكرًا لك. لا مشكلة، أؤكد لك. كنت فقط..."

أكملت له:

– "متفاجئًا؟"

– "نعم."

أومأت برأسها.

– "نعم، حسنًا، أي شخص كان ليتفاجأ. كان ينبغي أن أفكر في ذلك، وأنا آسفة حقًا للإزعاج."

فتح فمه، ثم أغلقه، ناظرًا بدلًا من ذلك عبر النافذة.

– "إنه يوم مشمس."

وافقت، مفكرة في بديهية الأمر:

– "نعم، هو كذلك."

هز كتفيه.

– "أتخيل أنها ستمطر بحلول الليل."

لم تكن واثقة كيف ترد على ذلك، فاكتفت بالإيماء، تدرسه خلسة بينما نظره لا يزال مثبتًا على النافذة. كان أضخم مما تخيلت، وأخشن مظهرًا، وأقل تمدنًا. رسائله كانت ساحرة وحسنة الصياغة؛ فصورته لنفسها أكثر... نعومة. أكثر نحولًا ربما، وبالتأكيد لا يميل للسمنة، لكنه أقل عضلًا. بدا وكأنه يعمل في الخارج كعامل، لا سيما في ذلك البنطال الخشن والقميص الخالي من ربطة العنق.

ورغم أنه كتب أن شعره بني، كانت تتخيله دائمًا أشقر داكنًا، يشبه الشعراء (لمَ كانت تتخيل الشعراء شقرًا دائمًا؟ لا تدري). لكن شعره كان تمامًا كما وصفه – بنيًا، درجة داكنة في الواقع، تقارب السواد، وبه تموج جامح. عيناه بنيتان، بنفس درجة شعره، داكنتان لدرجة يستحيل معها قراءتهما.

قطبت جبينها. كانت تكره الأشخاص الذين تعجز عن فهمهم في لمح البصر.

سأل بأدب:

– "هل سافرتِ طوال الليل؟"

– "فعلت."

– "لا بد أنكِ متعبة."

أومأت.

– "حقًا، أنا كذلك."

وقف، مشيرًا بشهامة نحو الباب.

– "أتفضلين الراحة؟ لا أود إبقاءك هنا إن كنتِ تفضلين النوم."

كانت إلويز منهكة، لكنها كانت أيضًا تتضور جوعًا بشراسة.

– "سأتناول لقيمات أولًا، ثم سأكون ممتنة لقبول ضيافتك والراحة."

أومأ وبدأ في الجلوس، محاولًا طي نفسه مرة أخرى في الكرسي الصغير المثير للسخرية، ثم تمتم بشيء تحت أنفاسه، والتفت إليها بعبارة أكثر وضوحًا قليلًا: "اعذريني"، وانتقل لكرسي آخر أكبر.

قال بمجرد استقراره:

– "أرجو المعذرة."

أومأت إلويز له فقط، متسائلة متى وجدت نفسها في موقف أكثر حرجًا من هذا.

تنحنح.

– "آه، هل كانت رحلتك ممتعة؟"

ردت، مانحة إياه الفضل ذهنيًا لمحاولته على الأقل الإبقاء على المحادثة:

– "بالفعل."

والإحسان يستحق الإحسان، لذا ساهمت بقولها:

– "لديك منزل جميل."

رفع حاجبًا عند ذلك، مانحًا إياها نظرة تقول إنه لم يصدق مجاملتها الزائفة لثانية واحدة.

أضافت بسرعة:

– "الأراضي خلابة."

من كان يظن أنه يعلم فعلًا أن أثاثه بالٍ؟ الرجال لا يلحظون أمورًا كهذه.

قال:

– "شكرًا لك. أنا عالم نبات، كما تعلمين، لذا أقضي جل وقتي في الخارج."

– "أكنت تخطط للعمل خارجًا اليوم؟"

أجاب بالإيجاب.

قدمت إلويز له ابتسامة مترددة.

– "آسفة لتعطيل جدولك."

– "لا عليك، أؤكد لك."

– "ولكن – – "

قاطعها:

– "لا داعي للاعتذار مجددًا. عن أي شيء."

ثم عاد ذلك الصمت المريع، وكلاهما ينظر بلهفة للباب، منتظرين عودة غانينغ بالخلاص في هيئة صينية شاي.

نقرت إلويز بأصابعها على وسادة الأريكة بطريقة كانت والدتها لتعدها قمة في سوء التربية. نظرت إلى السير فيليب وسرها نوعًا ما أن تراه يفعل المثل. ثم ضبطها تنظر إليه، فلوى ثغره بابتسامة نصفية مستفزة ونظره يهبط ليدها المتململة.

سكنت فورًا.

نظرت إليه، تتحدى – تتوسل؟ – بصمت أن يقول شيئًا. أي شيء.

لم يفعل.

كان هذا يقتلها. يجب أن تكسر الصمت. هذا ليس طبيعيًا. إنه مريع للغاية. خُلق الناس ليتحدثوا. هذا...

فتحت فمها، مدفوعة بيأس لم تفهمه تمامًا.

– "أنا – – "

ولكن قبل أن تتمكن من إكمال جملة كانت تنوي اختلاقها وهي تمضي، شق عنان السماء صراخ يجمّد الدماء في العروق.

قفزت إلويز واقفة.

– "ماذا كان هذا – – "

قال السير فيليب، مطلقًا تنهيدة مجهدة:

– "أطفالي."

– "لديك أطفال؟"

لاحظ وقوفها فنهض بوهن.

– "بالطبع."

حدقت فيه فاغرة فاهها.

– "لم تذكر قط أن لديك أطفالًا."

ضاقت عيناه وسأل بحدة:

– "أتمثل تلك مشكلة؟"

قالت وقد انتفضت:

– "بالطبع لا! أنا أعشق الأطفال. لدي من أبناء الإخوة والأخوات ما لا أحصيه عدًا، وأؤكد لك أنني عمتهم وخالتهم المفضلة. لكن ذلك لا يبرر حقيقة أنك لم تذكر وجودهم."

قال هازًا رأسه:

– "هذا مستحيل. لا بد أنكِ أغفلتِ الأمر."

ارتد ذقنها للخلف فجأة لدرجة العجب من عدم انكسار عنقها. وقالت بتغطرس:

– "هذا ليس من صنف الأمور التي قد أغفلها."

هز كتفيه، متجاهلًا اعتراضها بوضوح.

– "لم تذكرهم قط، ويمكنني إثبات ذلك."

عقد ذراعيه، مانحًا إياها نظرة مكذبة صريحة.

سارت نحو الباب.

– "أين حقيبتي؟"

قال مراقبًا إياها بتعبير متعالٍ:

– "حيث تركتِها، أتصور. أو الأرجح أنها في غرفتك بالفعل. خدمي ليسوا غافلين لتلك الدرجة."

التفتت إليه عابسة.

– "لدي كل رسالة من رسائلك معي، وأؤكد لك، ليست فيها واحدة تحوي عبارة 'أطفالي'."

انفرجت شفتا فيليب دهشة.

– "أاحتفظتِ برسائلي؟"

– "بالطبع. ألم تحتفظ برسائلي؟"

طرف بعينيه.

– "آه..."

شهقت.

– "لم تحتفظ بها؟"

لم يفهم فيليب النساء قط، وكان مستعدًا نصف الوقت لتنحية كل الفكر الطبي جانبًا وإعلانهن فصيلة منفصلة تمامًا. تقبل تمامًا أنه نادرًا ما يعلم ما يفترض قوله لهن، لكن هذه المرة حتى هو أدرك أنه ارتكب هفوة فادحة.

حاول قائلًا:

– "أنا واثق أن لدي بعضًا منها."

أطبق فكها في خط مستقيم غاضب.

أضاف بسرعة:

– "معظمها، أنا واثق."

بدت ثائرة. إلويز بريدجرتون، كما بدأ يدرك، تملك إرادة جبارة.

قال محاولًا حفر طريقه خارج حفرته التي لا قرار لها:

– "لا يعني ذلك أنني تخلصت منها. كل ما في الأمر أنني لست متيقنًا من موضعها بدقة."

راقب باهتمام وهي تسيطر على غضبها، ثم زفرت نفسًا قصيرًا. لكن عينيها بقيتا رماديتين عاصفتين.

قالت:

– "حسنًا. لا يهم ذلك على أية حال."

رأيي بالضبط، فكر فيليب، لكن حتى هو كان ذكيًا بما يكفي لعدم قول ذلك.

فضلًا عن ذلك، أوضحت نبرتها بجلاء أن الأمر في رأيها يهم. يهم كثيرًا.

مزق صراخ آخر سكون الجو، متبوعًا بتحطم مدوٍ. جفل فيليب. بدا كصوت أثاث.

نظرت إلويز نحو السقف، وكأنها تتوقع دوران الجص ساقطًا في أية لحظة.

سألت:

– "ألا ينبغي أن تذهب إليهم؟"

كان ينبغي، ولكن بكل ما هو مقدس، لم يرغب في ذلك. حين يخرج التوأم عن السيطرة، لا أحد يمكنه إدارتهم، وهو ما افترض فيليب أنه تعريف "الخروج عن السيطرة". كان رأيه أنه من الأسهل عمومًا تركهم يجمحون حتى يسقطوا إعياءً (وهو ما لا يستغرق طويلًا عادة) والتعامل معهم حينها. ربما لم يكن المسار الأكثر نفعًا، وبالتأكيد ليس شيئًا يوصي به أي والد آخر، لكن طاقة المرء محدودة للتعامل مع طفلين في الثامنة، وخشى أنه استنفد طاقته قبل ستة أشهر خلت.

حثته إلويز:

– "سير فيليب؟"

زفر نفسًا.

- "أنتِ محقة بالطبع."

بالتأكيد لا يليق الظهور بمظهر الوالد غير المبالي أمام الآنسة بريدجرتون، التي يحاول توددها - مهما كان ذلك أخرق - لمنصب أم لهذين العفريتين اللذين يحاولان حاليًا تدمير منزله بالكامل.

قال وهو يومئ لها متوجهًا للردهة:

- "أستأذنكِ."

وصاح:

- "أوليفر! أماندا!"

لم يكن متأكدًا، لكنه ظن أنه سمع الآنسة بريدجرتون تكبت ضحكة مذعورة.

اجتاحته موجة من الانزعاج، ورمقها بحدة، رغم علمه بأنه لا ينبغي له ذلك. افترض أنها تظن أنها تستطيع القيام بعمل أفضل مع هذين العفريتين.

خطا نحو السلالم وصرخ باسمي التوأم مجددًا. من ناحية أخرى، ربما لا ينبغي له أن يكون قاسي الحكم هكذا. إنه يأمل نوعًا ما - لا، بل يبتهل بحرارة - أن تتمكن إلويز بريدجرتون من القيام بعمل أفضل مع التوأم مما يستطيع.

يا إلهي، لو استطاعت تعليمهما الطاعة، لقبل الأرض التي تمشي عليها ثلاث مرات يوميًا.

انعطف أوليفر وأماندا عند زاوية الدرج وهبطا بقية الطريق للردهة، لا يبدو عليهما ذرة خجل.

سأل فيليب:

- "ماذا كان كل ذلك؟"

أجابه أوليفر بوقاحة:

- "ماذا كان ماذا؟"

صر فيليب على أسنانه:

- "الصراخ."

قال أوليفر:

– "تلك كانت أماندا."

وافقت قائلة:

– "بالتأكيد كنت أنا."

انتظر فيليب مزيدًا من الإيضاح، وحين بدا أنه لا شيء قادم، أضاف:

– "ولِمَ كانت أماندا تصرخ؟"

شرحت:

– "كان ضفدعًا."

– "ضفدع."

أومأت.

– "بالفعل. في فراشي."

قال فيليب:

– "أرى ذلك. هل لديكِ أدنى فكرة كيف وصل هناك؟"

أجابت:

– "أنا وضعته هناك."

حرف نظره عن أوليفر، الذي وجه إليه سؤاله، وعاد لـ أماندا.

– "وضعتِ ضفدعًا في فراشك؟"

أومأت.

لماذا، لماذا، لماذا؟ تنحنح.

– "لماذا؟"

هزت كتفيها.

– "أردت ذلك."

شعر فيليب بذقنه يندفع للأمام عدم تصديق.

– "أردتِ ذلك؟"

– "نعم."

– "وضع ضفدع في فراشك؟"

شرحت:

– "كنت أحاول تربية شراغف."

– "في فراشك؟"

– "بدا دافئًا ومريحًا."

تداخل أوليفر:

– "أنا ساعدت."

قال فيليب بصوت مكتوم:

– "لم أشك في ذلك. ولكن لمَ صرختِ؟"

قال أوليفر ساخطًا:

– "أنا لم أصرخ. أماندا فعلت."

قال فيليب، بالكاد يقاوم الرغبة في رفع يديه استسلامًا والتقاعد لدفيئته:

– "كنت أسأل أماندا!"

قال أوليفر:

– "كنت تنظر إليّ يا أبي."

ثم، وكأن أباه أبطأ فهمًا من أن يدرك ما يعنيه، أضاف:

– "حين طرحت السؤال."

أخذ فيليب نفسًا عميقًا قبل ترويض ملامحه لما أمل أن يكون تعبيرًا صبورًا والتفت لـ أماندا.

– "لماذا، يا أماندا، صرختِ؟"

هزت كتفيها.

– "نسيت أنني وضعت الضفدع هناك."

تداخل أوليفر بقمة الدرامية:

– "ظننت أنها ستموت."

قرر فيليب عدم الخوض في تلك العبارة.

قال عاقدًا ذراعيه وموجهًا نظره الأكثر صرامة لطفليه:

– "ظننت أننا قلنا لا ضفادع في المنزل."

قال أوليفر (مع إيماءات شديدة من أماندا):

– "لا، قلت لا علاجيم."

زمجر فيليب:

– "لا برمائيات من أي نوع."

سألت أماندا وعيناها الزرقاوان الجميلتان تمتلئان بالدموع:

– "ولكن ماذا لو كان أحدها يحتضر؟"

– "ولا حتى حينها."

– "ولكن – – "

– "يمكنكِ العناية به في الخارج."

– "ماذا لو كان باردًا ومتجمدًا ولا يحتاج سوى رعايتي وسرير دافئ داخل المنزل؟"

رد فيليب مفحمًا:

– "الضفادع يُفترض بها أن تكون باردة ومتجمدة. لهذا هي برمائيات."

– "ولكن ماذا لو – – "

صاح بصوت جهوري:

– "لا! لا ضفادع، لا علاجيم، لا صراصير، لا جنادب، ولا حيوانات من أي نوع في المنزل!"

بدأت أماندا تشهق للهواء.

– "ولكن... ولكن... ولكن..."

أطلق فيليب تنهيدة طويلة. لم يكن يعرف أبدًا ما يقول لأطفاله، والآن بدت ابنته وكأنها ستذوب في بركة من الدموع.

– "حبًا في..."

أمسك نفسه في الوقت المناسب ورقق صوته.

– "ما الأمر يا أماندا؟"

شهقت، ثم انتحبت:

– "ماذا عن بيسي؟"

تحسس فيليب بحثًا عن جدار يستند عليه بلا جدوى.

زمجر:

– "بطبيعة الحال، لم أقصد شمول كلبتنا (السبانييل) الحبيبة في ذلك البيان."

نشقت أماندا، وبدت متعافية بشكل مفاجئ– ومثير للريبة:

– "حسنًا، تمنيت لو قلت ذلك. لقد جعلتني حزينة للغاية."

صر فيليب على أسنانه.

– "أعتذر لأني جعلتك تشعرين بالحزن."

أومأت له كملكة.

أنّ فيليب. متى اكتسب التوأم اليد العليا في المحادثة؟ بالتأكيد رجل بحجمه و(يود الاعتقاد على أية حال) عقله، ينبغي أن يكون قادرًا على إدارة طفلين في الثامنة.

لكن لا، مرة أخرى، ورغم أفضل نواياه، فقد السيطرة تمامًا على الحديث والآن هو يعتذر لهما بالفعل.

لا شيء يجعله يشعر بالفشل أكثر من هذا.

قال راغبًا في الانتهاء:

– "حسنًا إذًا. انصرفا. أنا مشغول جدًا."

وقفا هناك للحظة، ينظران إليه بعيون واسعة، ترمش.

سأل أوليفر أخيرًا:

– "طوال اليوم؟"

ردد فيليب:

– "طوال اليوم؟"

عن أي شيء يتحدث بحق الشيطان؟

صحح أوليفر:

– "هل ستكون مشغولًا طوال اليوم؟"

قال بحدة:

– "نعم، سأكون."

اقترحت أماندا:

– "ماذا لو ذهبنا في نزهة طبيعية؟"

قال:

– "لا أستطيع."

رغم أن جزءًا منه أراد ذلك. لكن التوأم مثيران للحنق للغاية، ومن المؤكد أنهما سيدفعانه لفقدان أعصابه، ولا شيء يرعبه أكثر من ذلك.

قال أوليفر:

– "يمكننا مساعدتك في الدفيئة."

تدميرها هو الأصح.

قال فيليب:

– "لا."

لم يظن بصدق أنه يستطيع تحمل عواقب غضبه إن خربا عمله.

– "ولكن – – "

زمجر كارهًا نبرة صوته:

– "لا أستطيع."

– "ولكن – – "

جاء صوت من خلفه:

– "ومن هذان؟"

استدار. كانت إلويز بريدجرتون، تدس أنفها فيما لا يعنيها بالتأكيد، وهذا بعد وصولها لعتبة داره دون حتى تلميح بالتحذير.

قال لها، غير عابئ بإخفاء الانزعاج في صوته:

– "أرجو المعذرة."

تجاهلته وواجهت التوأم.

– "ومن عساكما أن تكونا؟"

سأل أوليفر بلهجة الآمر:

– "من أنتِ؟"

ضاقت عينا أماندا لشقين.

سمح فيليب لنفسه بأول ابتسامة حقيقية في الصباح وعقد ذراعيه. نعم، لنرَ كيف تتعامل الآنسة بريدجرتون مع هذا.

قالت:

– "أنا الآنسة بريدجرتون."

سأل أوليفر، بشك يقارب السم:

– "لستِ مربيتنا الجديدة، أليس كذلك؟"

أجابت:

– "يا للسماء، لا. ماذا حل بآخر مربية لكما؟"

سعل فيليب. بصوت عالٍ.

فهم التوأم التلميح.

قال أوليفر:

– "آه، لا شيء."

لم تبدُ الآنسة بريدجرتون مخدوعة قيد أنملة بجو البراءة الذي حاول التوأم إيصاله، لكنها بحكمة لم تختر متابعة الموضوع، واكتفت بالقول:

– "أنا ضيفتكما."

تأمل التوأم ذلك للحظة، ثم قالت أماندا:

– "لا نريد أي ضيوف."

متبوعة بـ أوليفر:

– "لا نحتاج أي ضيوف."

تدخل فيليب، غير راغب حقًا في الوقوف بصف الآنسة بريدجرتون بعد تطفلها، لكن لم يكن لديه خيار آخر. لا يمكنه ترك أطفاله بهذه الوقاحة.

– "يا أطفال!"

عقد التوأم ذراعيهما في وقت واحد وتجاهلا الآنسة بريدجرتون تمامًا.

صاح فيليب:

– "طفح الكيل. ستعتذران للآنسة بريدجرتون فورًا."

حدقا فيها بتمرد.

زمجر:

– "الآن!"

تمتما:

– "آسفان."

ولكن لم يكن لأحد أن يظن خطأً أنهما يعنيان ذلك.

قال فيليب بحدة:

– "عودا لغرفتكما، أنتما الاثنان."

انصرفا كجنديين شامخين، أنفاهما في الهواء. كان ليكون مشهدًا مثيرًا للإعجاب، لولا أن أماندا التفتت عند أسفل الدرج ودلعت لسانها.

صاح بصوت جهوري وهو يخطو نحوها:

– "أماندا!"

انطلقت صاعدة الدرج بسرعة ثعلب.

تسمر فيليب للحظات، يداه مقبوضتان وترتجفان بجانبيه. لمرة واحدة فقط – مرة واحدة! – يود لو أن أطفاله يحسنون السلوك ويطيعون ولا يجيبون السؤال بسؤال ويكونون مؤدبين مع الضيوف ولا يطلقون ألسنتهم، و...

لمرة واحدة، يود أن يشعر بأنه أب جيد، وأنه يعلم ما يفعله.

وألا يرفع صوته. كان يكره حين يرفع صوته، يكره وميض الرعب الذي ظن أنه رآه في عيونهما.

يكره الذكريات التي يستحضرها ذلك له.

– "سير فيليب؟"

الآنسة بريدجرتون. تبًا، كاد ينسى وجودها.

استدار وسأل، شاعرًا بالخزي لأنها شهدت إذلاله. وهو ما جعله بالطبع منزعجًا منها:

– "نعم؟"

قالت مشيرة لغرفة الرسم:

- "لقد أحضر رئيس خدمك صينية الشاي."

أومأ لها باقتضاب. كان بحاجة للخروج. بعيدًا عن أطفاله، بعيدًا عن المرأة التي رأت أي أب فظيع هو لهما. بدأت السماء تمطر، لكنه لم يبالِ.

قال:

- "آمل أن تستمتعي بإفطارك. سأراكِ بعد أن تأخذي قسطًا من الراحة."

ثم هرع خارجًا من الباب، يمم شطره صوب دفيئته، حيث يمكنه الانفراد بنباتاته التي لا تتكلم، ولا تسيء السلوك، ولا تدس أنفها فيما لا يعنيها.

الفصل الثالث

... حينها ستدركين لِمَ لم أقبل خطبته. كان فظًا غليظ الطبع فوق الحد، وتملكه مزاج عكر بغيض.

أود أن أتزوج رجلًا دمث الخلق، مراعيًا للمشاعر، يعاملني كملكة، أو كأميرة على أقل تقدير.

أحسب أن ذلك ليس مطلبًا عسيرًا.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى صديقتها العزيزة بينيلوبي فيذرينغتون، أرسلتها مع رسول بعد تلقيها أول عرض للزواج.

بحلول الظهيرة، كادت إلويز توقن بأنها ارتكبت خطأً فادحًا.

والحق يقال، إن السبب الوحيد لكونها "كادت توقن" فقط هو أن الشيء الوحيد الذي كانت تمقته أكثر من ارتكاب الأخطاء هو الاعتراف بها. لذا كانت تحاول التجلد، متذرعة برباطة جأشها المعهودة، ومجبرة نفسها على التظاهر بأن هذا الوضع المريع قد يؤول إلى حل في النهاية.

لقد تركها مذهولة – بل فاغرة الفم – حين غادر السير فيليب بكلمات لم تزد كثيرًا عن "استمتعي بطعامك" ثم خرج من الباب بخطوات واسعة. لقد

قطعت نصف إنجلترا تلبية لدعوته لزيارته، وهو يتركها وحيدة في غرفة الرسم بعد نصف ساعة فقط من وصولها؟

لم تكن تتوقع منه أن يقع في غرامها من النظرة الأولى ويخر راكعًا معلنًا إخلاصه الأبدي، لكنها أملت في شيء يزيد قليلًا عن عبارات مقتضبة مثل "من أنتِ؟" و"استمتعي بطعامك".

أو لعلها كانت تتوقع منه أن يقع في حبها من النظرة الأولى. لقد شيدت حلمًا مفصلًا حول صورتها لهذا الرجل – صورة تدرك الآن زيفها. لقد سمحت لنفسها بصياغته في قالب الرجل الكامل، وكان مؤلمًا للغاية أن تكتشف أنه ليس غير كامل فحسب، بل يكاد يكون كارثيًا.

والأسوأ أنها لا تلوم إلا نفسها. لم يزيف السير فيليب حقيقته قط في رسائله (وإن كانت ترى أنه كان حريًا به ذكر أبوته، لا سيما قبل عرضه الزواج).

كانت أحلامها مجرد ذلك – أحلامًا. أوهامًا وأماني من صنع خيالها. إن لم يكن كما توقعت، فذلك خطؤها هي. كانت تتوقع شيئًا لا وجود له أصلًا.

وكان ينبغي لها أن تكون أكثر فطانة.

فضلًا عن ذلك، لم يبدُ أبًا صالحًا، وتلك وصمة سوداء في عرفها لا تضاهيها وصمة.

لا، هي ليست منصفة. لا ينبغي لها الحكم عليه بهذه السرعة في هذا الشأن. لم يبدُ على الأطفال سوء معاملة أو سوء تغذية أو أي شيء مروع، لكن السير فيليب بوضوح لا يملك أدنى فكرة عن كيفية إدارتهم. لقد تعامل معهم بشكل خاطئ تمامًا هذا الصباح، واتضح من سلوكهم أن علاقته بهم فاترة في أحسن الأحوال.

يا للسماء، لقد توسلوا إليه تقريبًا لقضاء اليوم معهم. أي طفل ينال قسطًا كافيًا من اهتمام والديه لن يسلك مثل هذا المسلك أبدًا. لقد أمضت إلويز وإخوتها نصف طفولتهم يحاولون تجنب والديهم – إذ إن غياب الرقابة، بالطبع، كان أدعى للمشاغبة.

كان والدها رائعًا. كانت في السابعة فقط حين توفي، لكنها تذكره جيدًا، من القصص التي كان ينسجها وقت النوم إلى النزهات التي كانوا يقومون بها عبر حقول كنت، تارة مع كل آل بريدجرتون في ركبه، وتارة مع طفل واحد محظوظ، يُختار لقضاء وقت خاص مع الأب.

كان جليًا لها أنه لولا اقتراحها على السير فيليب أن يتقصى سبب صراخ أطفاله وإسقاطهم للأثاث، لتركهم وشأنهم. أو، لكي نكون أكثر دقة، لتركهم ليكونوا مشكلة شخص آخر. وبحلول نهاية حديثهم، بدا جليًا أن هدف السير فيليب الرئيسي في الحياة هو تجنب أطفاله.

وهو أمر لم تستسغه إلويز على الإطلاق.

دفعت نفسها عن سريرها، مجبرة جسدها على الاستقامة رغم الإنهاك الذي نخر عظامها. لكن كلما استلقت، بدأ شيء يتسارع في صدرها، وتشعر بنفسها تلهث في تلك النذر المريعة ليس للدموع فحسب، بل لشهقات بكاء حقيقية تهز الجسد. إن لم تنهض وتفعل شيئًا، فلن تكون قادرة على تمالك نفسها.

ولم تظن أنها ستطيق نفسها إن بكت.

فتحت النافذة عنوة، رغم أن الجو لا يزال رماديًا والرذاذ يتساقط في الخارج. لم تكن هناك رياح، لذا لن يندفع المطر للداخل، وما كانت تحتاجه حقًا الآن هو قليل من الهواء النقي. صفعة من البرد على وجهها قد لا تشعرها بتحسن، لكنها بالتأكيد لن تزيد حالها سوءًا.

من نافذتها، استطاعت رؤية دفيئة السير فيليب. افترضت أنه هناك، إذ لم تسمع صوته هنا في المنزل، يضرب الأرض بقدميه ويصرخ في أطفاله. كان الزجاج مغشى بالضباب والشيء الوحيد الذي استطاعت رؤيته هو ستار ضبابي من الخضرة – نباتاته الحبيبة، كما افترضت. أي نوع من الرجال هو، ليفضل النباتات على البشر؟ بالتأكيد ليس شخصًا يقدر المحادثة الراقية.

شعرت بكتفيها يتهدلان. لقد أمضت إلويز نصف حياتها بحثًا عن محادثة راقية. وإن كان ناسكًا هكذا، فلمَ تكبد عناء الرد عليها؟ لقد بذل جهدًا يماثل

جهدها لإدامة مراسلاتهما. ناهيك عن عرضه للزواج. إن لم يكن يرغب في صحبة، فلم يكن له حق في دعوتها إلى هنا.

أخذت بضعة أنفاس عميقة من الهواء الرطب ثم أجبرت نفسها على الوقوف باستقامة. لم تكن واثقة مما يُتوقع منها فعله بنفسها طوال اليوم. لقد أخذت قيلولة بالفعل؛ وسرعان ما انتصر الإرهاق على البؤس. لكن لم يأتِ أحد لإعلامها بالغداء أو بأي خطط أخرى قد تشملها كضيفة.

إن بقيت هنا، في هذه الغرفة الكئيبة والتي تعبث بها التيارات الهوائية قليلًا، ستفقد عقلها. أو على الأقل ستبكي حتى تفقد الوعي، وهو أمر لا تطيقه في الآخرين، ففكرة فعله بنفسها كانت مرعبة.

لا يوجد سبب يمنعها من استكشاف المنزل قليلًا، أليس كذلك؟ وربما تجد لنفسها بعض الطعام في طريقها. لقد التهمت الفطائر الأربع كلها من صينية الشاي هذا الصباح، مدهونة بأقصى ما أمكنها من الزبدة والمربى بأدب، لكنها كانت لا تزال تتضور جوعًا. في هذه المرحلة، ظنت أنها قد تكون مستعدة لارتكاب جريمة عنف من أجل شطيرة لحم.

بدلت ملابسها، وارتدت فستانًا من الموسلين الخوخي كان جميلًا وأنثويًا دون إفراط في الكشكشة. والأهم من ذلك، كان سهل الارتداء والخلع، وهو عامل حاسم بالتأكيد لمن هربت من منزلها دون وصيفة.

نظرة سريعة في المرآة أخبرتها أنها تبدو لائقة، وإن لم تكن صورة للجمال الأخاذ، فخرجت إلى الردهة.

لتواجه فورًا بتوأم كرين ذوي الثماني سنوات، وبديا كأنهما كانا يتربصان بها لساعات.

قالت إلويز، منتظرة وقوفهما:

– "طاب مساؤكما. كم هو لطيف منكما استقبالي."

اندفعت أماندا قائلة، وهي تئن حين وكزها أوليفر في ضلوعها:

– "لسنا هنا لاستقبالك."

سألت إلويز محاولة التصنع بالدهشة:

– "لستما كذلك؟ هل أنتما هنا إذًا لإرشادي لغرفة الطعام؟ أنا جائعة للغاية، لا بد لي من القول."

قال أوليفر عاقدًا ذراعيه:

– "لا."

تمتمت إلويز:

– "ولا حتى ذلك؟ دعني أحزر. أنتما هنا لتأخذاني لغرفتكما وترِياني ألعابكما."

قالا بصوت واحد:

– "لا."

– "إذًا لا بد أنه لتأخذاني في جولة بالمنزل. إنه كبير للغاية وقد أضل طريقي."

– "لا."

– "لا؟ ألن ترغبا في أن أضل طريقي، أليس كذلك؟"

قالت أماندا:

– "لا. أعني نعم!"

تظاهرت إلويز بعدم الفهم:

– "تريدان مني أن أضل طريقي؟"

أومأت أماندا. أما أوليفر فشدد عقد ذراعيه عبر صدره ورمقها بنظرة متجهمة.

– "هممم. هذا مثير للاهتمام، لكنه بالكاد يفسر وجودكما هنا أمام بابي مباشرة، أليس كذلك؟ ليس من المرجح أن أضيع في صحبتكما أنتما الاثنين."

انفرجت شفتاهما في دهشة وارتباك.

– "أنتما تعرفان طريقكما في المنزل، أليس كذلك؟"

نخر أوليفر:

– "بالطبع."

متبوعًا بـ أماندا:

– "نحن لسنا أطفالًا رضعًا."

قالت إلويز بإيماءة متأملة:

– "لا، أرى ذلك. فالأطفال الرضع لن يُسمح لهم بالانتظار بمفردهم خارج بابي، بطبيعة الحال. سيكونون مشغولين جدًا بالحفاضات والزجاجات وما شابه."

لم يكن لديهما ما يضيفانه لذلك.

– "هل يعلم والدكما بوجودكما هنا؟"

– "إنه مشغول."

– "مشغول جدًا."

– "إنه رجل مشغول للغاية."

– "مشغول أكثر مما ينبغي لأجلك."

راقبت إلويز واستمعت باهتمام والتوأم يطلقان عباراتهما بسرعة البرق، يتسابقان لإظهار مدى انشغال السير فيليب.

قالت إلويز:

– "إذًا ما تخبرانني به، هو أن والدكما مشغول."

حدقا فيها، مذهولين للحظات من إعادة سردها الهادئة للحقائق، ثم أومآ.

تمتمت إلويز:

– "لكن ذلك لا يزال لا يفسر وجودكما. لأنني لا أظن والدكما أرسلكما نيابة عنه..."

انتظرت حتى هزا رأسيهما نفيًا، ثم أضافت بصوت متحمس، سامحة لنفسها بابتسامة ذهنية لذكائها:

– "إلا إذا... عرفت!"

كان لديها تسعة من أبناء الإخوة والأخوات. كانت تعرف تمامًا كيف تحادث الأطفال.

– "أنتما هنا لتخبراني أن لديكما قوى سحرية وتستطيعان التنبؤ بالطقس."

قالا:

– "لا."

لكن إلويز سمعت قهقهة مكتومة.

– "لا؟ هذا مؤسف، لأن هذا الرذاذ المستمر بائس، ألا تظنان ذلك؟"

قالت أماندا بقوة:

– "لا. أبي يحب المطر، ونحن كذلك."

سألت إلويز بدهشة:

– "يحب المطر؟ كم هذا غريب."

رد أوليفر بوقفة دفاعية:

– "لا، ليس كذلك. أبي ليس غريبًا. إنه مثاليّ. لا تقولي أشياء لئيمة عنه."

ردت إلويز متسائلة عما يجري الآن بحق الأرض:

– "لم أقل."

في البداية ظنت أن التوأم هنا لإخافتها ودفعها للرحيل. افترضت أنهما سمعا أن والدهما يفكر في الزواج منها ولم يريدا زوجة أب، خاصة بالنظر للقصص التي روتها الخادمة لـ إلويز عن تتابع المربيات المسكينات اللاتي تعرضن للإيذاء ورحلن.

لكن إن كانت تلك هي الحقيقة البسيطة، ألم يكونا ليرغبا في إيهامها بوجود خطب ما في السير فيليب؟ لو أرادا رحيلها، ألم يكونا ليحاولا إقناعها بأنه سيكون مرشحًا مريعًا للزواج؟

قالت إلويز:

– "أؤكد لكما، لا أضمر سوءًا لأي منكما. في الواقع، أنا بالكاد أعرف والدكما."

– "إن جعلتِ أبي يحزن، سأقوم بـ... سأقوم بـ..."

راقبت إلويز وجه الصبي الصغير المسكين يحمر إحباطًا وهو يجاهد للعثور على الكلمات والشجاعة. بحذر، وبرفق، جثت بجواره حتى صار وجهها بمستوى وجهه وقالت:

– "أوليفر، أعدك، لست هنا لأجعل والدك يحزن."

لم يقل شيئًا، فالتفتت لتوأمه وسألت:

– "أماندا؟"

اندفعت أماندا قائلة، وذراعاها معقودتان بشدة لدرجة احمرار وجهها:

– "يجب أن ترحلي. لا نريدك هنا."

قالت لهما إلويز، مبقية صوتها حازمًا:

– "حسنًا، لن أذهب لأي مكان لمدة أسبوع على الأقل."

كان الطفلان بحاجة للتعاطف، وربما الكثير من الحب أيضًا، لكنهما كانا بحاجة أيضًا لقليل من الانضباط وفكرة واضحة عمن يمسك بزمام الأمور.

وفجأة، ومن حيث لا تحتسب، قذف أوليفر نفسه للأمام ودفعها بقوة بكلتا يديه على صدرها.

كان توازنها هشًا، جاثية كما كانت على أطراف أصابع قدميها. انقلبت إلويز للخلف، وهبطت بطريقة غير أنيقة بالمرة على مؤخرتها وتدحرجت للخلف حتى تيقنت من أن التوأم قد نالا نظرة جيدة على تنانيرها الداخلية.

أعلنت وهي تنهض وتقف عاقدة ذراعيها ومحدقة فيهما بصرامة:

– "حسنًا."

كانا قد تراجعا عدة خطوات ويحدقان فيها بمزيج من البهجة والرعب، وكأنهما لا يصدقان تمامًا أن أحدهما امتلك الجرأة لدفعها.

أكملت إلويز:

– "ذلك، لم يكن تصرفًا حكيمًا."

سأل أوليفر بصوت تحدٍ، لكنه حمل مسحة خوف وكأن أحدهم ضربه من قبل:

– "هل ستضربيننا؟"

قالت إلويز بسرعة:

– "بالطبع لا. أنا لا أؤمن بضرب الأطفال. لا أؤمن بضرب أي أحد."

إلا من يضربون الأطفال، أضافت لنفسها.

بدا عليهما شيء من الارتياح لسماع ذلك.

تابعت إلويز:

– "قد أذكرك، مع ذلك، بأنك ضربتني أولًا."

صحح لها:

– "أنا دفعتك."

سمحت لنفسها بأنّة خافتة. كان عليها توقع ذلك.

– "إن لم ترغب في أن يضربك الناس، عليك ممارسة الفلسفة ذاتها."

صاحت أماندا:

– "القاعدة الذهبية."

قالت إلويز بابتسامة عريضة:

– "بالضبط."

شكت كثيرًا في أنها غيرت مسار حياتهما بدرس صغير واحد، لكن مع ذلك كان من اللطيف أن تأمل بأن شيئًا قالته قد أثار بعض التفكير.

قالت أماندا بتفكير:

– "ولكن ألا يعني ذلك، أنه ينبغي لك العودة لمنزلك؟"

شعرت إلويز بلحظة انتشائها الصغيرة تتفتت غبارًا، وهي تحاول تخيل القفزة المنطقية التي توشك أماندا على خوضها لتفسير وجوب نفي إلويز إلى الأمازون.

قالت أماندا، بنبرة متعالية للغاية لطفلة في الثامنة – أو ربما متعالية كما لا يكون إلا طفل في الثامنة:

– "نحن في المنزل، لذا ينبغي لك الذهاب للمنزل."

قالت إلويز بحدة:

– "الأمر لا يسير هكذا."

ردت أماندا بإيماءة صغيرة مغرورة:

– "بلى، يسير هكذا. عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك. نحن لم نذهب لمنزلك، لذا لا ينبغي لك المجيء لمنزلنا."

سألتها إلويز:

- "أنتِ ذكية جداً، أتعلمين ذلك؟"

بدت أماندا كمن تود الإيماء، لكنها كانت بوضوح مرتابة في إطراء إلويز لدرجة تمنعها من قبوله.

انحنت إلويز لتواجههما وجهًا لوجه، الثلاثة معًا.

قالت لهما بصوت جاد للغاية – وفيه شيء من التحدي:

- "لكنني، ذكية جدًا أيضًا."

حدقا فيها بعيون واسعة، وأفواههما مفتوحة بذهول وهما يتأملان هذا الشخص الذي يختلف بوضوح عن أي بالغ آخر التقياه قط.

سألت إلويز، وهي تقوّم ظهرها وتمسد يديها على تنورتها بطريقة عفوية مخادعة:

- "هل فهمنا بعضنا البعض؟"

لم يقولا شيئًا، فقررت الإجابة نيابة عنهما.

- "حسن. والآن، هل تودان إرشادي لمكان غرفة الطعام؟ أنا أتضور جوعًا."

قال أوليفر:

- "لدينا دروس."

سألت إلويز رافعة حاجبيها:

- "حقًا؟ كم هو مثير. إذًا عليكما العودة إليها فورًا. أتصور أنكما تأخرتما بعد قضاء وقت طويل في الانتظار خارج بابي."

- "كيف عرفتِ – –"

قُطع سؤال أماندا بكوع أوليفر في ضلوعها.

أجابت إلويز، مقررة أن سؤال أماندا يستحق إجابة، حتى لو لم يسمح لها أخوها بإكمال جملتها:

- "لدي سبعة إخوة وأخوات. ليس هناك الكثير عن هذا النوع من الحروب مما لا أعرفه بالفعل."

ولكن بينما هرع التوأم عبر الردهة، تُركت إلويز تعض شفتها السفلى توجسًا. كان لديها شعور بأنها ما كان ينبغي لها إنهاء لقائهم بمثل هذا التحدي. لقد تحدت أوليفر وأماندا عمليًا لإيجاد طريقة لطردها من المكان.

ورغم يقينها بأنهما لن يفلحا – فهي من آل بريدجرتون في النهاية، ومصنوعة من مادة أصلب مما يعلم هذان الاثنان بوجوده – كان لديها شعور بأنهما سيكرسان كل ذرة من كيانهما لهذه المهمة.

ارتعدت إلويز. ثعابين في السرير، شعر مغموس في الحبر، مربى على الكراسي. كل ذلك فُعل بها في وقت أو آخر، ولم تكن تتوق بشكل خاص لإعادة العرض – وبالتأكيد ليس على يد طفلين يصغرانها بعشرين عامًا.

تنهدت، متسائلة فيما ورطت نفسها. من الأفضل لها العثور على السير فيليب والشروع في مهمة تقرير ما إذا كانا متوافقين. لأنها إن كانت سترحل حقًا خلال أسبوع أو اثنين، ولن ترى أحدًا من آل كرين مجددًا، لم تكن واثقة من رغبتها في تكبد عناء الفئران والعناكب والملح في وعاء السكر.

قرقرت معدتها. لم تدرِ إلويز إن كان التفكير في الملح أو السكر هو السبب. لكن بالتأكيد حان الوقت للعثور على شيء لتأكله. وكلما كان أبكر كان أفضل، قبل أن يتاح للتوأم فرصة معرفة كيفية تسميم طعامها.

كان فيليب يعلم علم اليقين أنه قد ارتكب هفوة فادحة. ولكن بحق الجحيم، لم تمنحه تلك المرأة اللعينة أدنى تحذير. لو أنها نبهته فقط إلى قدومها، لكان استعد، وفكر في بضع عبارات شاعرية يقولها. هل ظنت حقًا أنه دبج كل تلك الرسائل دون أن يجهد نفسه في انتقاء كل كلمة؟ لم يكن يرسل المسودة الأولى لأي من مراسلاته قط (وإن كان يكتبها دائمًا على أفضل ورقه، آملًا في كل مرة أن تكون هذه هي المرة التي يصيب فيها من المحاولة الأولى).

تبًا، لو أنها أعطته إشعارًا، لربما استطاع استحضار لفتة رومانسية أو اثنتين. الزهور كانت لتكون خيارًا لطيفًا، والله يعلم أنه إن كان ثمة شيء يجيده، فهو الزهور.

ولكن بدلًا من ذلك، ظهرت أمامه ببساطة وكأنها استُحضرت من حلم، فأفسد هو كل شيء.

ومما زاد الطين بلة أن الآنسة إلويز بريدجرتون لم تكن كما توقع.

إنها عانس في الثامنة والعشرين، يا للسماء. كان من المفترض أن تكون دميمة. ذات وجه يشبه الحصان، حتى. وبدلًا من ذلك كانت...

حسنًا، لم يكن متأكدًا تمامًا كيف يمكن للمرء وصفها. ليست جميلة بالمعنى الدقيق، ولكنها مع ذلك مذهلة بطريقة ما، بشعر كستنائي كثيف وعينين من أصفى وأنقى درجات الرمادي. كانت من نوع النساء اللاتي تضفي تعبيراتهن عليهن جمالًا. كان ثمة ذكاء في عينيها، وفضول في طريقة إمالتها لرأسها إلى الجانب. ملامحها فريدة، تكاد تكون غريبة، بوجهها الذي يشبه القلب وابتسامتها العريضة.

ليس وكأنه رأى الكثير من تلك الابتسامة. سحره الذي يقل كثيرًا عن الأسطوري تكفل بذلك.

غرس يديه في كومة من التربة الرطبة وغرف بعضها في وعاء فخاري صغير، تاركًا إياها مفككة لتسمح بنمو الجذور الأمثل. ما الذي سيفعله الآن بحق الشيطان؟ لقد علق آماله على سراب الآنسة إلويز بريدجرتون، بناءً على الرسائل التي أرسلتها إليه خلال العام الماضي. لم يكن لديه وقت (ولا الرغبة، في الحقيقة) للتودد لأم محتملة للتوأم، لذا بدا الأمر مثاليًا (ناهيك عن كونه سهلًا تقريبًا) أن يتودد إليها عبر الرسائل.

بالتأكيد ستكون امرأة غير متزوجة تقترب بسرعة من سن الثلاثين ممتنة لتلقي عرض زواج. لم يكن يتوقع منها قبول عرضه دون مقابلته، بالطبع، ولم يكن هو مستعدًا للالتزام رسميًا بالفكرة دون التعرف عليها أيضًا. لكنه توقع أن تكون امرأة يائسة ولو قليلًا للحصول على زوج.

وبدلًا من ذلك، وصلت وهي تبدو شابة وجميلة وذكية وواثقة من نفسها، ويا إلهي، لِمَ قد ترغب امرأة كهذه في الزواج من شخص لا تعرفه حتى؟ ناهيك عن ربط نفسها بضيعة ريفية تمامًا في أقصى ركن من غلوسترشاير.

قد يكون فيليب جاهلًا تمامًا بالموضة، لكن حتى هو استطاع أن يدرك أن ملابسها كانت متقنة الصنع وعلى الأرجح من أحدث الصيحات. ستتوقع رحلات إلى لندن، وحياة اجتماعية نشطة، وأصدقاء.

وكل ذلك لن تجده على الأرجح هنا ـ في رومني هول.

بدا الأمر شبه عبثي حتى أن يحاول التعرف عليها. لن تبقى، وسيكون أحمق إن علق آماله عليها.

أطلق أنينًا، ثم أتبعه بلعنة من باب الاحتياط. الآن سيضطر للتودد لامرأة أخرى. تباً، الآن سيضطر للعثور على امرأة أخرى ليتودد إليها، وهو ما سيكون بصعوبة الأمر نفسه تقريبًا. لا أحد ـ في المقاطعة سينظر إليه حتى. كل السيدات غير المتزوجات يعرفن بأمر التوأم، وليست هناك واحدة منهن مستعدة لتحمل مسؤولية شيطانيه الصغيرين.

لقد علق كل آماله على الآنسة بريدجرتون، والآن يبدو أنه سيضطر للتخلي عنها أيضًا.

وضع وعاءه بقوة زائدة على الرف، وجفل حين تردد صدى ارتطامه ـ في الدفيئة.

بتنهيدة عالية، غمس يديه الموحلتين ـ في دلو من الماء المتسخ أصلًا لغسلهما. لقد كان وقحًا هذا الصباح. لا يزال منزعجًا نوعًا ما لأنها جاءت إلى هنا وأضاعت وقته – أو إن لم تكن قد أضاعته بعد، فهي بالتأكيد ستضيعه، لأنها لن تستدير وتغادر هذا المساء على الأرجح.

لكن ذلك لا يبرر سلوكه. ليس خطأها أنه لا يستطيع إدارة أطفاله، وبالتأكيد ليس خطأها أن هذا الفشل يضعه دائمًا ـ في مزاج عكر.

مسح يديه بمنشفة يحتفظ بها قرب الباب، وخرج بخطوات واسعة إلى الرذاذ متجهًا نحو المنزل. ربما حان وقت الغداء، ولن يضير أحدًا أن يجلس معها إلى المائدة ويتبادل معها أطراف الحديث المهذب.

فضلًا عن ذلك، هي هنا. بعد كل جهده ﮯفي الرسائل، يبدو من الحماقة ألا يرى على الأقل إن كانا يتوافقان بما يكفي للزواج. وحده الأحمق من يطردها – أو يسمح لها بالمغادرة – دون التأكد من ملاءمتها.

من غير المرجح أن تبقى، لكنه قدر أن ذلك ليس مستحيلًا، وقد يجرب الأمر على الأقل.

شق طريقه عبر الرذاذ الضبابي وإلى داخل المنزل، ماسحًا قدميه على البساط الذي اعتادت مدبرة المنزل تركه له قرب المدخل الجانبي. كان ﮯفي حالة يرثى لها، شعثًا أغبر كما هو دأبه بعد العمل ﮯفي الدفيئة، والخدم معتادون على رؤيته ﮯفي هذه الهيئة، لكنه افترض أنه من الواجب عليه أن يهندم نفسه قبل البحث عن الآنسة بريدجرتون ودعوتها لمشاركته الطعام. فهي قادمة من لندن، وبالتأكيد ستأنف الجلوس إلى مائدة مع رجل يفتقر هندامه للكمال.

اخترق المطبخ، موزعًا إيماءات دمثة على خادمة تغسل الجزر ﮯفي حوض من الماء. كان سلم الخدم يقع خارج باب المطبخ الآخر مباشرة و– –

هتف متفاجئًا:

– "آنسة بريدجرتون!"

كانت جالسة إلى طاولة ﮯفي المطبخ، وقد انتصفت ﮯفي أكل شطيرة لحم ضخمة للغاية، وتبدو ﮯفي غاية الألفة والراحة وهي متربعة على كرسي مرتفع.

– "ماذا تفعلين هنا؟"

قالت وهي تومئ له برأسها:

– "سير فيليب."

قال وهو يقطب جبينه ﮯفي وجهها، لا لسبب سوى أنها لم تكن حيث توقعها أن تكون:

– "ليس عليكِ تناول طعامك ﮯفي المطبخ."

أضف إلى ذلك حقيقة أنه كان ينوي تبديل ملابسه للغداء – وهو أمر لا يتكلف عناءه عادة – إكرامًا لها، وها هي ذي قد ضبطته ﮯفي حالته المزرية على أية حال.

أجابت وهي تميل رأسها وتطرف بتلك العينين الرماديتين المهلكتين نحوه:

– "أعلم، ولكني كنت أنشد طعامًا وأنيسًا، وبدا هذا المكان الأفضل للعثور على كليهما."

أكانت تلك إهانة؟ لم يستطع الجزم بذلك، وعيناها بدتا بريئتين، لذا قرر تجاهل الأمر وقال:

– "كنت في طريقي لتبديل ملابسي بأخرى أنظف ودعوتك لمشاركتي طعام الغداء."

قالت إلويز:

– "يسعدني أن أنتقل لغرفة الإفطار وأكمل شطيرتي هناك، إن كنت ترغب في الانضمام إليّ. أنا واثقة أن السيدة سميث لن تمانع صنع شطيرة أخرى لك. هذه الشطيرة لذيذة."

ونظرت صوب الطباخة.

– "السيدة سميث؟"

قالت الطباخة بنبرة ودودة لم يسمعها فيليب تخرج من شفتيها قط، تاركة إياه فاغر الفم تقريبًا:

– "لا كلفة في ذلك إطلاقًا يا آنسة بريدجرتون."

زحزحت إلويز نفسها عن الكرسي المرتفع وحملت طبقها. وقالت لـ فيليب:

– "هل نذهب؟ ليس لدي أي اعتراض على هندامك."

وقبل أن يدرك حتى أنه لم يبدِ موافقته على خطتها، وجد فيليب نفسه في غرفة الإفطار، جالسًا قبالتها على الطاولة المستديرة الصغيرة التي يستخدمها أكثر بكثير من تلك الطويلة الموحشة في غرفة الطعام الرسمية. كانت الخادمة قد حملت صينية الشاي الخاصة بالآنسة بريدجرتون، وبعد الاستفسار عما إذا كان يريد بعضًا منه، قامت الآنسة بريدجرتون بنفسها بإعداد كوب له بمهارة.

كان شعورًا مثيرًا للاضطراب. لقد ناورته ببراعة تامة ليخدم أغراضها، وبطريقة ما لم يعد يهم أنه كان ينوي دعوتها للغداء معه بالطريقة نفسها. كان يحب أن يعتقد أنه – ولو شكليًا – صاحب الكلمة في منزله.

قالت الآنسة بريدجرتون وهي ترفع فنجان الشاي إلى شفتيها:

– "لقد قابلت أطفالك في وقت سابق."

أجاب، مسرورًا لأنها بادرت بالحديث، فكفاه ذلك مؤونة البدء:

– "نعم، كنت هناك."

صححت له:

– "لا، بل بعد ذلك."

رفع بصره متسائلًا.

شرحت:

– "كانوا بانتظاري خارج باب غرفة نومي."

بدأ شعور مريع يعتمل ويموج في معدته.

بماذا كانوا ينتظرونها؟ بكيس من الضفادع الحية؟ كيس من الضفادع الميتة؟

لم يكن أطفاله رحيمين بمربياتهم، ولم يتخيل أنهم سيكونون أكثر إحسانًا لضيفة أنثى وجودها بوضوح ينصب في دور زوجة الأب المحتملة.

سعل وقال:

– "أثق أنكِ نجوتِ من اللقاء؟"

قالت:

– "أوه، نعم. لقد توصلنا لتفاهم من نوع ما."

رمقها بحذر:

– "تفاهم؟ من نوع ما؟"

لوحت بيدها صارفة سؤاله وهي تمضغ طعامها.

– "لا داعي للقلق بشأني."

– "هل عليّ القلق بشأن أطفالي؟"

نظرت إليه بابتسامة مبهمة.

– "بالطبع لا."

– "حسنًا جدًا."

نظر لأسفل إلى الشطيرة التي وُضعت أمامه وأخذ قضمة كبيرة. وبمجرد أن ابتلعها، نظر مباشرة في عينيها وقال:

– "يجب أن أعتذر عن ترحيبي بك هذا الصباح. كنت أفتقر للكياسة."

أومأت برأسها كملكة.

– "وأنا أعتذر عن الوصول بلا سابق إنذار. كان تصرفًا منافيًا للأصول من جانبي."

أومأ بدوره.

– "أنتِ، مع ذلك، اعتذرتِ عن ذلك هذا الصباح، بينما لم أفعل أنا."

منحته ابتسامة، ابتسامة صادقة، فشعر بقلبه يثب بين ضلوعه. يا إلهي، حين تبتسم، يتبدل وجهها كله. طوال فترة مراسلته لها، لم يحلم قط بأنها قد تخطف أنفاسه.

همست، ووجنتاها تتوردان بلمحة خفيفة من الزهري:

– "شكرًا لك. هذا نبل بالغ منك."

تنحنح فيليب وتململ في مقعده بعدم ارتياح. ما خطبه؟ لمَ يشعر براحة أقل مع ابتسامتها مقارنة بعبوسها؟

قال وهو يسعل مرة أخرى ليغطي على خشونة صوته:

– "حسنًا. الآن وقد أزحنا ذلك عن طريقنا، ربما يجدر بنا التطرق لسبب وجودك هنا."

وضعت إلويز شطيرتها جانبًا ونظرت إليه بدهشة واضحة. لم تكن تتوقع منه هذه المباشرة.

قالت:

– "كنتَ راغبًا في الزواج."

رد عليها:

– "وأنتِ؟"

قالت ببساطة:

– "أنا هنا."

نظر إليها نظرة تقييم، وعيناه تبحثان ـ في عينيها حتى تململت ـ في مقعدها.

– "أنتِ لستِ كما توقعت، يا آنسة بريدجرتون."

قالت:

– "في ظل هذه الظروف، لا أحسبه غير لائق أن تستخدم اسمي الأول، وأنت لست كما توقعت أيضًا."

أرجع ظهره ـ في مقعده، ناظرًا إليها بأقل القليل من الابتسام.

– "وماذا توقعتِ؟"

ردت إلويز:

– "وماذا توقعت أنت؟"

منحها نظرة أخبرتها أنه لاحظ تهربها من سؤاله، ثم قال بصراحة تامة:

– "لم أتوقع أن تكوني بهذا الجمال."

شعرت إلويز بنفسها تتراجع قليلًا للخلف أمام هذا الإطراء المباغت. لم تكن ـ في أبهى حلتها هذا الصباح، وحتى لو كانت... حسنًا، لم تُعتبر يومًا من جميلات الطبقة الراقية. نساء بريدجرتون يُنظر إليهن عمومًا على أنهن جذابات، مفعمات بالحيوية، وذوات شخصية محببة. هي وأخواتها كن ذوات شعبية، وتلقين جميعهن أكثر من عرض للزواج، لكن الرجال كانوا يميلون إليهن لشخصهن، لا لأن الجمال عقد ألسنتهم.

تلعثمت:

– "أنا... آه..."

شعرت بنفسها تحمر خجلًا، مما أشعرها بالخزي، وبالطبع زاد من احمرار وجنتيها.

– "شكرًا لك."

أومأ بلطف.

قالت، وهي تشعر بانزعاج شديد من نفسها لتفاعلها القوي مع إطرائه:

– "لست واثقة لمَ قد يكون مظهري مفاجأة لك."

يا للسماء، ليظنن المرء أنها لم تتلقَ مديحًا من قبل. لكنه كان جالسًا هناك فقط، ينظر إليها. ينظر، ويحدق، و...

ارتعدت.

ولم يكن المكان به تيار هواء يُذكر. هل يمكن للمرء أن يرتعد من الشعور بـ... الحرارة المفرطة؟

قال:

– "أنتِ كتبتِ بنفسك أنكِ عانس. لا بد من سبب لعدم زواجك قط."

شعرت بأنها ملزمة بإخباره:

– "لم يكن ذلك بسبب عدم تلقي أي عروض."

قال مميلًا رأسه نحوها في إيماءة تقدير:

– "بوضوح لا. ولكن لا يسعني إلا الفضول حول السبب الذي يجعل امرأة مثلك تشعر بالحاجة للجوء إلى... حسنًا... إليّ."

نظرت إليه، نظرت إليه حقًا لأول مرة منذ وصولها. كان وسيمًا جدًا بطريقة خشنة وغير مهندمة قليلًا. شعره الداكن بدا بحاجة ماسة لقصة جيدة، وبشرته تظهر علامات سمرة خفيفة، وهو أمر مثير للإعجاب نظرًا لقلة ضوء الشمس الذي حظوا به مؤخرًا. كان ضخمًا ومفتول العضلات، ويجلس في كرسيه بنوع من الرشاقة الرياضية اللامبالية، وساقاه ممتدتان بطريقة ما كانت لتكون مقبولة في غرفة رسم لندنية.

والنظرة التي تعلو وجهه أخبرتها أنه لا يأبه كثيرًا لكون أخلاقه ليست مطابقة للقواعد الصارمة. لم تكن تلك النزعة المتمردة ذاتها التي رأتها كثيرًا بين شباب الطبقة الراقية. لقد قابلت الكثيرين من هذا الصنف – أولئك الذين يتعمدون تحدي الأعراف، ثم يفسدون الأمر بسعيهم الدؤوب للتأكد من أن الجميع يعلمون كم هم جريئون وفاضحون.

لكن مع السير فيليب كان الأمر مختلفاً. كانت إلويز لتراهن بمال وفير على أنه ببساطة لم يخطر بباله أن يهتم بكونه لا يجلس بطريقة رسمية لائقة، وبالتأكيد لم يخطر بباله التأكد من معرفة الآخرين بعدم اهتمامه.

جعل ذلك إلويز تتساءل إن كانت تلك سمة الشخص الواثق بنفسه حقاً، وإن كان كذلك، فلماذا احتاج للجوء إليها؟ لأنه مما رأته منه، وبغض النظر عن فظاظة هذا الصباح، ما كان ينبغي له أن يواجه صعوبة كبيرة في العثور على زوجة.

قالت أخيرًا، متذكرة أنه طرح عليها سؤالًا:

– "أنا هنا، لأني بعد رفض عدة عروض للزواج..."

كانت تعلم أن شخصًا أفضل كان ليكون أكثر تواضعًا ولن يتكبد عناء التشديد على كلمة "عدة"، لكنها لم تستطع منع نفسها.

– "... وجدت أني لا أزال أرغب في زوج. رسائلك أشارت إلى أنك قد تكون مرشحًا جيدًا. وبدا من قصر النظر ألا ألتقي بك وأكتشف ما إذا كان ذلك صحيحًا بالفعل."

أومأ.

– "تفكير عملي للغاية من جانبك."

ردت عليه:

– "وماذا عنك؟ أنت من طرح موضوع الزواج في البداية. لمَ لمْ تعثر ببساطة على زوجة من بين النساء هنا؟"

للحظة، لم يفعل شيئًا سوى الطرف بعينيه، ناظرًا إليها وكأنه لا يصدق تمامًا أنها لم تكتشف الأمر بنفسها. أخيرًا قال:

– "لقد قابلتِ أطفالي."

كادت إلويز تغص بلقمة الشطيرة التي بدأت في مضغها للتو.

– "عفوًا؟"

قال بصوت جامد:

– "أطفالي. لقد قابلتِهم. مرتين، على ما أعتقد. لقد أخبرتِني بذلك."

– "نعم، ولكن ما..."

شعرت بعينيها تتسعان.

– "أوه، لا، لا تخبرني أنهم أخافوا كل زوجة محتملة في المقاطعة؟"

النظرة التي صوبها إليها كانت قاتمة.

– "معظم النساء في المنطقة يرفضن حتى الدخول في صفوف المرشحات."

سخرت قائلة:

– "إنهم ليسوا بهذا السوء."

قال بصراحة فجة:

– "إنهم بحاجة لأم."

رفعت حاجبيها.

– "بالتأكيد يمكنك العثور على طريقة أكثر رومانسية لإقناعي بأن أكون زوجتك."

تنهد فيليب بتعب، ممررًا يده خلال شعره الشعث أصلًا.

– "يا آنسة بريدجرتون..."

ثم صحح نفسه قائلًا:

– "إلويز. سأكون صادقًا معك، لأني، بصراحة، لا أملك الطاقة ولا الصبر للكلمات الرومانسية المنمقة أو القصص المحبوكة بذكاء. أنا أحتاج لزوجة. أطفالي يحتاجون لأم. دعوتكِ إلى هنا لأرى ما إذا كنتِ راغبة في تولي هذا الدور، وبالفعل، ما إذا كنا سنتوافق."

همست:

– "أيهما؟"

قبض يديه، واحتكت مفاصله بمفرش الطاولة. ما خطب النساء؟ هل يتحدثن بشفرة من نوع ما؟

سأل وقد لوّن نفاد الصبر صوته:

– "أيهما... ماذا؟"

أوضحت، وصوتها لا يزال خافتًا:

– "أيهما تريد؟ زوجة أم أمًا؟"

قال:

– "كلاهما. ظننت أن ذلك واضح."

– "أيهما تريد أكثر؟"

حدق فيليب فيها لفترة طويلة، مدركًا أن هذا سؤال مهم، وربما يكون السؤال الذي قد يعلن نهاية تودده غير المعتاد. أخيرًا، هز كتفيه بقلة حيلة وقال:

– "آسف، ولكني لا أعرف كيف أفصل بين الأمرين."

أومأت، وعيناها جادتان.

– "فهمت. وأتوقع أنك محق."

أطلق فيليب زفرة طويلة لم يكن يدرك حتى أنه كان يحبسها. بطريقة ما – والله وحده يعلم كيف – أجاب بشكل صحيح. أو على الأقل، ليس بشكل خاطئ.

تململت إلويز قليلًا في مقعدها، ثم أشارت للشطيرة النصف مأكولة في طبقه.

اقترحت:

– "هل نكمل طعامنا؟ لقد كنت في دفيئتك طوال الصباح. أنا واثقة أنك تتضور جوعًا."

أومأ فيليب وأخذ قضمة من طعامه، شاعرًا فجأة بالرضا عن الحياة. لم يكن واثقًا بعد من أن الآنسة بريدجرتون ستقبل بأن تصبح الليدي كرين، لكن إن فعلت...

حسنًا، لم يظن أنه سيكون لديه أي اعتراضات.

لكن التودد إليها لن يكون بالسهولة التي توقعها. اتضح له أنه يحتاج إليها أكثر مما تحتاج هي إليه. كان يعول على كونها عانسًا يائسة، وهو ما لم يكن الحال بوضوح، رغم تقدم سنواتها.

الآنسة بريدجرتون، كما شك، لديها عدد من الخيارات في حياتها، وهو مجرد واحد منها.

ولكن مع ذلك، لا بد أن شيئًا ما دفعها لترك منزلها والسفر كل هذه المسافة إلى غلوسترشاير. إن كانت حياتها في لندن مثالية للغاية، فلماذا إذًا رحلت؟

ولكن بينما كان يراقبها عبر الطاولة، يراقب وجهها يتبدل بمجرد ابتسامة، خطر له – أنه لم يعد يأبه كثيرًا لسبب رحيلها.

كان عليه فقط التأكد من بقائها.

الفصل الرابع

... كم حزنت لسماع أن كارولين تعاني المغص وتسبب لك النوبات.
وبالطبع، إنه لمن المؤسف ألا تتقبل أميليا ولا بليندا قدومها برحابة صدر.
ولكن عليك أن تنظري إلى الجانب المشرق، يا عزيزتي دافني.
كان الأمر ليكون أصعب بكثير لو أنجبت توأمًا.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أختها دوقة هاستينغز،
بعد شهر واحد من ولادة طفل دافني الثالث

كان فيليب يصفر لنفسه وهو يسير عبر الردهة الرئيسية باتجاه السلم، مسرورًا بحياته بشكل غير عادي.

لقد أمضى الشطر الأكبر من الظهيرة في صحبة الآنسة بريدجرتون – لا، إلويز، كما ذكر نفسه – وقد بات مقتنعًا الآن بأنها ستكون زوجة ممتازة. إنها ذكية بوضوح، وبفضل إخوتها وأخواتها الكثر (ناهيك عن أبناء الإخوة والأخوات) الذين حدثته عنهم، فمن المؤكد أنها ستعرف كيف تدير أوليفر وأماندا.

وفكر بابتسامة ماكرة أنها جميلة نوعًا ما، وأكثر من مرة هذا المساء ضبط نفسه ينظر إليها، متسائلًا عن شعورها بين ذراعيه، وعما إذا كانت ستستجيب لقبلته.

اشتد جسده عند الفكرة. لقد مضى وقت طويل منذ كان مع امرأة. سنوات أكثر مما يود عده. سنوات، بصدق، أكثر مما يود أي رجل الاعتراف به.

لم يستفد من أي من الخدمات التي تقدمها النادلات في النزل العام المحلي، مفضلًا نساءه أكثر نظافة، والحق يقال، ليس بمثل تلك السرية.

أو ربما أكثر سرية. لم يكن من المرجح أن تغادر أي من هؤلاء النادلات القرية خلال حياتهن، وكان فيليب يستمتع بوقته في النزل العام أكثر من أن يفسده بالاصطدام المستمر بنساء كان قد ضاجعهن سابقًا ولم يعد يهتم لأمرهن.

وقبل وفاة مارينا... حسنًا، لم يفكر قط في خيانتها، رغم أنهما لم يتشاركا الفراش منذ كان التوأم صغارًا للغاية.

لقد كانت حزينة للغاية بعد ولادتهما. بدت مارينا دائمًا هشة ومفرطة في التأمل، لكن بعد مجيء أوليفر وأماندا، غرقت في عالمها الخاص من الحزن واليأس.

كان الأمر مروعًا لـ فيليب، وهو يشاهد الحياة خلف عينيها تتلاشى، يومًا بعد يوم، حتى لم يبقَ سوى فراغ موحش، مجرد ظل باهت للمرأة التي كانت موجودة يومًا.

كان يعلم أن النساء لا يستطعن إقامة علاقات فور الولادة، لكن حتى بعد تعافيها جسديًا، لم يستطع تخيل إجبار نفسه عليها. كيف يُفترض بالمرء أن يشتهي امرأة تبدو دائمًا وكأنها على وشك البكاء؟

حين كبر التوأم قليلًا، وظن فيليب – أو أمل، في الحقيقة – أن مارينا تتحسن، زارها في مخدعها.

مرة واحدة.

لم ترفضه، لكنها لم تشارك في حميميته أيضًا. استلقت هناك فقط، لا تفعل شيئًا، ورأسها مائل للجانب، وعيناها مفتوحتان، بالكاد ترمشان.

كان الأمر وكأنها لم تكن هناك على الإطلاق.

غادر شاعرًا بالقذارة، وبالفساد الأخلاقي، وكأنه انتهكها بطريقة ما، رغم أنها لم تنطق بكلمة "لا" قط.

ولم يلمسها مرة أخرى.

لم تكن حاجاته ملحة لدرجة إروائها بامرأة ترقد تحته كجثة هامدة.

ولم يرغب أبدًا في الشعور مجددًا بما شعر به في تلك الليلة الأخيرة.

بمجرد عودته لغرفته، أفرغ محتويات معدته فورًا، يرتجف ويرتعد، قرفًا من نفسه. لقد تصرف كحيوان، محاولًا يائسًا استثارة أي نوع – أي نوع! – من الاستجابة فيها. وحين ثبتت استحالة ذلك، غضب منها، وأراد معاقبتها.

وذلك ما أرعبه.

لقد كان عنيفًا للغاية. لم يظن أنه آذاها، لكنه لم يكن لطيفًا. ولم يرغب أبدًا في رؤية ذلك الجانب من نفسه مرة أخرى.

ولكن مارينا رحلت.

رحلت.

وإلويز مختلفة. لن تبكي لأتفه سبب أو تحبس نفسها في غرفتها، تنقر في طعامها وتبكي في وسادتها.

إلويز تملك روحًا. وعمودًا فقريًا.

إلويز سعيدة.

وإن لم يكن ذلك معيارًا جيدًا للزوجة، فلا يدري ما هو المعيار إذًا.

توقف عند أسفل السلم ليتفقد ساعة جيبه. أخبر إلويز أن العشاء سيكون في السابعة وأنه سيلاقيها خارج غرفتها ليصحبها لغرفة الطعام. لم يرغب في التبكير والظهور بمظهر الملهوف.

من ناحية أخرى، لا يصح التأخير. ليس هناك الكثير ليجنيه من جعلها تظن أنه غير مهتم.

أغلق ساعته بحدة وقلب عينيه. إنه يتصرف كصبي غر. هذا سخيف. إنه سيد منزله وعالم متمكن. لا ينبغي له عد الدقائق فقط ليفوز بود امرأة.

ولكن حتى وهو يفكر بذلك، فتح ساعته لتفقد أخير. ثلاث دقائق قبل السابعة. ممتاز. سيعطيه ذلك الوقت الكافي لصعود السلم وملاقاتها خارج بابها قبل دقيقة واحدة بالضبط.

ابتسم، مستمتعًا بتوهج رغبته الدافئ عند التفكير فيها بثوب سهرة. أمل أن يكون أزرق. ستبدو فاتنة في الأزرق.

اتسعت ابتسامته. ستبدو فاتنة بلا شيء على الإطلاق.

إلا أنه حين وجدها، في الطابق العلوي خارج مخدعها، كان شعرها قد اشتعل شيبًا.

وكذلك، على ما يبدو، بقية جسدها.

يا للجحيم. صاح بصوت جهوري:

– "أوليفر! أماندا!"

قالت إلويز بحدة:

– "أوه، لقد ولّيا منذ أمد."

نظرت إليه بعينين تقدحان شررًا. عينان، لم يستطع إلا أن يلاحظ، أنهما الجزء الوحيد منها غير المغطى بطبقة كثيفة بشكل ملحوظ من الطحين.

حسنًا، يحسب لها أنها أغمضتهما في الوقت المناسب. لطالما أعجب بردود الفعل السريعة لدى النساء.

قال مادًا يده لمساعدتها، ثم سحبها حين أدرك أنه لا جدوى من المساعدة:

– "آنسة بريدجرتون، لا أستطيع البدء في التعبير عن..."

قاطعته بحدة:

– "لا تعتذر بالنيابة عنهما."

– "حسن. بالطبع. ولكني أعدك... سأقوم بـ..."

خفت صوته. الحق يقال، النظرة في عينيها كانت لتكون كافية لإسكات نابليون نفسه.

قالت ببطء، وبحدة، وتبدو كمن قد ينقض عليه في نوبة غضب عارمة:

– "سير فيليب. كما ترى، لست جاهزة تمامًا للعشاء."

تراجع خطوة للوراء حفاظًا على سلامته.

– "أستنتج أن التوأم قاما بزيارتك."

أجابت بسخرية لا تخفى:

– "أوه، نعم. ثم ولّيا الأدبار. الجبناء الصغار لا أثر لهما في أي مكان."

– "حسنًا، لن يكونا بعيدين."

قالها وهو يسمح لها بإهانة أطفاله المستحقة بينما يحاول إجراء محادثة وكأنها لا تبدو كشبح مرعب.

بطريقة ما بدا ذلك أفضل مسار للعمل. أو على الأقل، المسار الأقل احتمالًا لأن ينتهي بالتفاف أصابعها حول عنقه.

أضاف، متراجعًا خطوة حذرة أخرى حين سعلت مرسلة سحابة دوامة من الطحين:

– "سيرغبان في رؤية النتائج بالطبع. لا أفترض أنكِ سمعتِ أي ضحك حين انهمر الطحين؟ قهقهة، ربما؟"

حدقت فيه بغضب.

جفل وقال:

– "حسن. آسف لذلك. دعابة غبية."

قالت بحدة شديدة لدرجة جعلته يتساءل إن كان فكها سينكسر:

– "كان من الصعب سماع أي شيء سوى صوت الدلو يرتطم برأسي."

تمتم متتبعًا نظرها حتى وقعت عيناه على دلو معدني كبير ملقى على جانبه على السجاد، وبه قليل من الطحين لا يزال بداخله:

– "تبًا. هل تأذيتِ؟"

هزت رأسها.

مد يده وأمسك برأسها بين كفيه، محاولًا فحص جلدها بحثًا عن كدمات أو تورمات.

صرخت وهي تحاول الإفلات من قبضته:

- "سير فيليب! يجب أن أطلب منك..."

أمرها وهو يمرر إبهاميه على صدغيها يتحسس الكدمات:

- "اثبتي."

كانت إيماءة حميمية، ووجدها مرضية بشكل غريب. بدت في الطول المناسب تمامًا بجانبه، ولو كانت نظيفة، لم يكن واثقًا من قدرته على منع نفسه من الانحناء وطبع قبلة ناعمة على جبينها.

دفعت نفسها متحررة وقالت بحدة:

- "أنا بخير. الطحين كان أثقل من الدلو."

انحنى فيليب وعدل الدلو، مختبرًا وزنه في يده. كان خفيفًا نسبيًا ولا ينبغي أن يسبب ضررًا كبيرًا، لكن مع ذلك، ليس بالشيء الذي يود المرء أن يُضرب به على رأسه.

قالت بحدة:

- "سأنجو، أؤكد لك."

تنحنح.

- "أتصور أنكِ سترغبين في حمام؟"

ظن أنها قالت: "أتصور أني سأرغب في تعليق هذين الوغدين الصغيرين على طرف حبل"، لكن الكلمات خرجت تحت أنفاسها، ومجرد لأن هذا ما كان سيقوله هو... حسنًا، لا يعني أنها تميل لنفس القسوة.

قال بسرعة:

- "سأمر بتجهيز واحد لكِ."

- "لا تكلف نفسك. ماء حمامي الأخير لا يزال في الحوض."

جفل. توقيت أطفاله لم يكن ليكون أدق.

قال بسرعة:

– "رغم ذلك، سأحرص على تدفئته ببضعة دلاء جديدة."

جفل مرة أخرى من نظرتها الحادة. اختيار سيء للكلمات.

– "سأرى في ذلك الآن."

ردت باقتضاب:

– "نعم. افعل ذلك."

اندفع عبر الردهة لإعطاء الأمر لخادمة، إلا أنه بمجرد انعطافه عند الزاوية، رأى نصف دزينة من الخدم يحدقون بهما بالفعل، بل وأقاموا رهانًا على المدة التي سيصمدها التوأم قبل أن يجلدهما فيليب.

بعد صرفهم مع تعليمات بتجهيز حمام جديد فورًا، عاد لجانب إلويز. كان قد تغبر بالطحين بالفعل، فلم يرَ ضيرًا في الإمساك بيدها.

همس محاولًا عدم الضحك:

– "أنا آسف للغاية."

كان رد فعله الفوري الغضب، لكن الآن... حسنًا، إنها تبدو سخيفة حقًا.

حدقت فيه، مستشعرة بوضوح تغير مزاجه.

سرعان ما اتخذ مظهرًا رصينًا.

اقترح:

– "ربما ينبغي لكِ العودة لغرفتك؟"

قالت بحدة:

– "وأجلس أين؟"

كان معها حق. من المرجح أن تتلف أي شيء تلمسه، أو على الأقل تستلزم تنظيفًا شاملًا.

قال محاولًا أن يبدو مرحًا:

– "سأؤنسكِ فقط إذًا."

رمقته بنظرة خالية تمامًا من أي تسلية.

قال محاولًا ملء الصمت بشيء غير الطحين:

– "حسن."

نظر لأعلى الباب، معجبًا بصنيع التوأم رغم النتائج المؤسفة.

تمتم:

– "أتساءل كيف فعلا ذلك."

انفرج فمها.

– "هل يهم؟"

قال، مدركًا من وجهها أن هذا ليس المسار الأنسب للمحادثة، لكنه تابع مع ذلك:

– "حسنًا، بالتأكيد لا أستطيع التغاضي عن أفعالهما، لكن بوضوح نُفذ الأمر ببراعة. لا أرى أين علقا الدلو، و..."

– "لقد أسنداه على أعلى الباب."

– "عفوًا؟"

قالت باستخفاف:

– "لدي سبعة إخوة وأخوات. أتظن أني لم أرَ هذه المزحة من قبل؟ لقد فتحا الباب – مجرد شق – ثم وضعا الدلو بعناية."

– "وأنتِ لم تسمعيهما؟"

حدقت فيه بغضب.

قال بسرعة:

– "حسن. كنتِ في الحمام."

قالت بصوت متعالٍ:

– "لا أظن أنك تنوي التلميح بأن هذا كان خطئي لعدم سماعهما."

قال بسرعة كبيرة:

– "بالطبع لا."

حكمًا من النظرة القاتلة في عيني الآنسة بريدجرتون، كان شبه متيقن أن صحته وسلامته تعتمدان مباشرة على سرعة موافقته لها.

– "لمَ لا أتركك لـ..."

هل كانت هناك حقاً طريقة جيدة لوصف عملية تنظيف عدة أرطال من الطحين عن جسد المرء؟

سأل، مقررًا أن تغيير الموضوع ضروري للغاية:

– "هل سأراكِ على العشاء؟"

أومأت، مرة واحدة، باقتضاب. لم يكن هناك الكثير من الدفء في تلك الإيماءة، لكن فيليب قدر أنه يجب أن يكون سعيدًا لأنها لا تخطط لمغادرة المقاطعة الليلة.

– "سآمر الطباخة بإبقاء العشاء دافئًا. وسأرى في معاقبة التوأم."

أوقفته في مكانه قائلة:

– "لا. اتركهما لي."

استدار ببطء، متوترًا قليلًا من نبرة صوتها.

– "ماذا، بالتحديد، تنوين فعله بهما؟"

– "بهما، أم لهما؟"

لم يظن فيليب أن اليوم سيأتي الذي يخشى فيه امرأة، لكن والله شاهده، إلويز بريدجرتون أرعبته حتى النخاع.

النظرة في عينيها كانت شيطانية تمامًا.

قال عاقدًا ذراعيه:

– "آنسة بريدجرتون، يجب أن أسأل. ماذا تنوين فعله بأطفالي؟"

– "أنا أقلب خياراتي."

فكر في ذلك.

– "هل يمكنني الاعتماد على بقائهما حيين غدًا صباحًا؟"

أجابت:

– "أوه، نعم. حيين، وبكل أطرافهما سليمة، أؤكد لك."

حدق فيليب فيها للحظات، ثم ترك شفتيه تنفرجان في ابتسامة بطيئة راضية. كان لديه شعور بأن انتقام إلويز بريدجرتون – أيًا كان – سيكون

بالضبط ما يحتاجه طفلاه. بالتأكيد أي شخص لديه سبعة إخوة وأخوات سيعرف كيف يعيث فسادًا بأكثر الطرق مكرًا ودهاءً وعبقرية.

قال وهو يكاد يفرح لإلقائهم دلوًا من الطحين عليها:

– "حسنًا جدًا، يا آنسة بريدجرتون. هما لكِ بالكامل."

بعد ساعة، وفور جلوسه وإلويز للعشاء، بدأ الصراخ.

أسقط فيليب ملعقته بالفعل؛ صرخات أماندا حملت نبرة رعب أكثر من المعتاد.

لم تتوقف إلويز حتى وهي تضع ملعقة من حساء السلاحف بين شفتيها. همست وهي تمسح فمها برقة بمنديلها:

– "إنها بخير."

دوى وقع أقدام صغيرة مسرعة فوق الرؤوس، معلنًا أن أماندا تسابق الريح نحو الدرج.

نهض فيليب نصف نهضة في مقعده.

– "ربما ينبغي لي..."

قالت الآنسة بريدجرتون، لا تبتسم تمامًا، لكنها تبدو مسرورة بنفسها للغاية:

– "وضعت سمكة في سريرها."

ردد:

– "سمكة؟"

– "حسنًا، كانت سمكة كبيرة نوعًا ما."

سرعان ما كبر الشغروف في عقله ليصبح قرشًا ذا أنياب، ووجد نفسه يغص بالهواء. لم يستطع منع نفسه من السؤال:

– "آه، من أين حصلتِ على سمكة؟"

قالت وكأن طباخته توزع أسماك سلمون ضخمة كل يوم من أيام الأسبوع:

– "السيدة سميث."

أجبر نفسه على الجلوس مجددًا. لن يركض لإنقاذ أماندا. أراد ذلك؛ فهو يملك الغريزة الأبوية الغريبة، بعد كل شيء، وهي تصرخ وكأن نيران الجحيم تلعق أصابع قدميها.

لكن ابنته جنت على نفسها؛ وحان الوقت لتذوق ما طبخته لها الآنسة بريدجرتون. غمس ملعقته في حسائه، ورفعها بضع بوصات، ثم توقف.

– "وماذا وضعتِ في سرير أوليفر؟"

– "لا شيء."

رفع حاجبًا متسائلًا.

شرحت ببرود:

– "سيبقيه ذلك في حالة ترقب."

أمال فيليب رأسه نحوها تحية. إنها بارعة. شعر بأن شرفه يلزمه بتحذيرها:

– "سينتقمان، بالطبع."

بدت غير مكترثة.

– "سأكون مستعدة."

ثم نظرت إليه، مباشرة في عينيه، مباغتة إياه للحظة بنظرتها المباشرة.

– "أفترض أنهما يعلمان أنك دعوتني هنا بغرض طلب يدي للزواج."

– "لم أقل لهما شيئًا قط."

همست:

– "لا، لن تفعل."

نظر إليها بحدة، عاجزًا عن تمييز إن كانت تقصد ذلك كإهانة.

– "لا أشعر بالحاجة لإبقاء أطفالي مطلعين على شؤوني الشخصية."

هزت كتفيها، حركة رقيقة وجدها مثيرة للحنق.

قال:

– "آنسة بريدجرتون، لست بحاجة لنصيحتك حول كيفية تربية أطفالي."

ردت:

– "لم أنبس بكلمة في هذا الموضوع، وإن كنت قد أشير إلى أنك تبدو يائسًا نوعًا ما للعثور على أم لهما، مما يبدو مؤشرًا على أنك تريد المساعدة."

قال بحدة:

– "حتى توافقي على تولي هذا الدور، يمكنك الاحتفاظ بآرائك لنفسك."

رمقته بنظرة جليدية، ثم أعادت انتباهها لحسائها. ولكن بعد ملعقتين فقط، نظرت إليه مجددًا بتحدٍ وقالت:

– "إنهما يحتاجان للانضباط."

– "أتظنين أني لا أعلم ذلك؟"

– "ويحتاجان للحب أيضًا."

تمتم:

– "إنهما يحصلان على الحب."

– "والاهتمام."

– "يحصلان على ذلك أيضًا."

– "منك."

قد يكون فيليب مدركًا لكونه بعيدًا عن كونه أبًا مثاليًا، لكن فليحل عليه اللعنة إن سمح لشخص آخر بقول ذلك.

– "وأفترض أنكِ استنتجتِ حالة إهمالهما المخزية خلال الاثنتي عشرة ساعة منذ وصولك."

نخرت باستهجان.

– "لم يتطلب الأمر اثنتي عشرة ساعة للاستماع إليهما هذا الصباح، يتوسلان إليك لقضاء بضع دقائق تافهة في صحبتهما."

رد عليها:

– "لم يفعلا شيئًا من هذا القبيل."

لكنه شعر بأطراف أذنيه تسخن، كما يحدث دائمًا حين يكذب. لم يكن يقضي وقتًا كافيًا معهما، وشعر بالخزي لتمكنها من اكتشاف ذلك في وقت قصير كهذا.

ردت بحدة:

– "لقد توسلا إليك عمليًا ألا تكون مشغولًا طوال اليوم. لو قضيت وقتًا أكثر قليلًا معهما – – "

هسهس:

– "أنتِ لا تعرفين شيئًا عن أطفالي. ولا تعرفين شيئًا عني."

وقفت فجأة متوجهة للباب.

– "بوضوح."

صاح قافزًا على قدميه:

– "انتظري!"

تبًا. كيف حدث هذا؟ قبل ساعة بالكاد كان مقتنعًا بأنها ستصبح زوجته، والآن هي عمليًا في طريق عودتها لـ لندن.

زفر نفسًا محبطًا. لا شيء يملك القدرة على إثارة غضبه كأطفاله، أو مناقشة شؤونهم. أو، لنكون أكثر دقة، مناقشة فشله كأب لهم.

قال، قاصدًا ذلك أيضًا – أو على الأقل قاصدًا ذلك بما يكفي لعدم رغبتها في الرحيل:

– "أنا آسف. أرجوكِ."

مد يده.

– "لا تذهبي."

– "لن أقبل بأن أعامل كمعتوهة."

قال متعمدًا تكرار كلماته السابقة:

– "إن كان هناك شيء واحد تعلمته في الاثنتي عشرة ساعة منذ وصولك، فهو أنكِ لستِ معتوهة."

تأملته لبضع ثوانٍ أخرى، ثم وضعت يدها في يده.

قال، غير عابئ حتى بكونه يبدو متوسلًا لها:

– "على الأقل، يجب أن تبقي حتى تصل أماندا."

ارتفع حاجباها بتساؤل.

همس، ثم أضاف بصوت خافت:

– "بالتأكيد سترغبين في تذوق طعم انتصارك. أعلم أني كنت لأرغب في ذلك."

سمحت له بإعادة إجلاسها، لكن لم يكن لديهما سوى دقيقة واحدة معًا قبل أن تقتحم أماندا الغرفة صارخة، ومربيتها تلاحقها.

انتحبت أماندا وهي ترمي نفسها في حجره:

– "أبي!"

احتضنها فيليب بخرق. مضى وقت طويل منذ فعل ذلك، ونسي كيف يكون الشعور. سأل وهو يربت على ظهرها:

– "ما المشكلة بحق السماء؟"

سحبت أماندا وجهها من مخبئه في عنقه وأشارت بإصبع غاضب ومرتجف نحو إلويز. قالت وكأنها تشير للشيطان نفسه:

– "إنها هي."

سأل فيليب:

– "الآنسة بريدجرتون؟"

– "لقد وضعت سمكة في سريري!"

قال بصرامة:

– "وأنتِ أفرغتِ الطحين على رأسها، لذا أقول إنكما متعادلتان."

انفرج فم أماندا الصغير.

– "ولكنك أبي!"

– "بالفعل."

– "يفترض بك أن تأخذ صفي!"

– "حين تكونين على حق."

انتحبت:

– "كانت سمكة."

– "أشم ذلك. سترغبين في حمام، أتصور."

ولولت:

– "لا أريد حمامًا! أريدك أن تعاقبها!"

ابتسم فيليب عند ذلك.

– "إنها كبيرة نوعًا ما على العقاب، ألا توافقينني؟"

حدقت فيه أماندا بذهول ورعب، ثم أخيرًا، وشفتاها ترتجفان، شهقت:

– "عليك أن تأمرها بالرحيل. الآن فورًا!"

أنزل فيليب أماندا، مسرورًا نوعًا ما بكيفية سير المواجهة برمتها. ربما كان حضور إلويز الهادئ، لكن بدا أن لديه صبرًا أكثر من المعتاد. لم يشعر برغبة في الصراخ في وجه أماندا، أو تجنب المشكلة تمامًا بنفيها لغرفتها.

قال:

– "أعتذر يا أماندا، لكن الآنسة بريدجرتون ضيفتي، وليست ضيفتك، وستبقى هنا ما دمت أرغب في ذلك."

تنحنحت إلويز. بصوت عالٍ.

صحح فيليب:

– "أو، ما دامت ترغب هي في البقاء."

تجعد وجه أماندا كله تفكيرًا.

قال بسرعة:

– "وهو ما لا يعني أنه يمكنك تعذيبها في محاولة لإجبارها على الرحيل."

– "ولكن..."

– "بلا لكن."

– "ولكن..."

– "ماذا قلت للتو؟"

– "ولكنها لئيمة!"

قال فيليب:

- "أظنها ذكية جدًا، وأتمنى لو أني وضعت سمكة في سريرك قبل شهور."

تراجعت أماندا رعبًا.

- "اذهبي لغرفتك يا أماندا."

- "ولكن رائحتها كريهة."

- "لا تلومي إلا نفسك."

- "ولكن سريري..."

أجاب:

- "سيكون عليك النوم على الأرض."

بوجه يرتجف – وجسد يرتجف كله، في الحقيقة – جرت نفسها نحو الباب.

- "ولكن... ولكن..."

سأل، بما ظنه صوتًا صبورًا بشكل مثير للإعجاب:

- "نعم يا أماندا؟"

همست الطفلة الصغيرة:

- "ولكنها لم تعاقب أوليفر. لم يكن ذلك عدلًا منها. الطحين كان فكرته."

رفع فيليب حاجبيه.

أصرت أماندا:

- "حسنًا، لم تكن فكرتي وحدي. فكرنا فيها معًا."

قهقه فيليب بالفعل.

- "ما كنت لأقلق بشأن أوليفر لو كنت مكانك يا أماندا. أو بالأحرى،" قال وهو يمسد ذقنه بتفكير، "كنت سأقلق. أشك أن لدى الآنسة بريدجرتون خططًا له بعد."

بدا أن ذلك أرضى أماندا، وتمتمت بـ "تصبح على خير يا أبي" بالكاد مسموعة، قبل أن تسمح لمربيتها باقتيادها خارج الغرفة.

عاد فيليب لحسائه، شاعرًا برضا كبير عن نفسه. لم يستطع تذكر آخر مرة خرج فيها من مواجهة مع أحد التوأم وشعر بأنه أدار كل شيء بشكل صحيح تمامًا. أخذ رشفة، ثم، وهو لا يزال ممسكًا بملعقته، نظر إلى إلويز وقال:

– "أوليفر المسكين سيرتعد في حذائه."

بدت كأنها تحاول جاهدة عدم الابتسام.

– "لن يستطيع النوم."

هز فيليب رأسه.

– "ولا غمضة عين، أظن. وعليك مراقبة خطواتك. أراهن أنه سينصب فخًا ما عند بابه."

قالت بلوحة يد مرحة:

– "أوه، ليس لدي خطط لتعذيب أوليفر هذا المساء. سيكون ذلك سهل التنبؤ به للغاية. أنا أفضل عنصر المفاجأة."

قال بضحكة:

– "نعم. أرى أنك تفعلين."

أجابته إلويز بتعبير مغرور:

– "كنت سأفكر تقريبًا في تركه في عذاب دائم، لولا أن ذلك لن يكون عدلًا لـ أماندا حقًا."

ارتعد فيليب.

– "أنا أكره السمك."

– "أعلم. لقد كتبت لي ذلك."

– "فعلت؟"

أومأت.

– "غريب أن السيدة سميث كان لديها بعض منه في المنزل، ولكني أفترض أن الخدم يحبونه."

غاصا في بحر من الصمت، بيد أنه كان صمتًا وادعًا، يفيض بالأنس والدعة. وبينما كانا يتناولان طعامهما، وينتقلان بين أطباق العشاء وهما يتجاذبان أطراف الحديث في صغائر الأمور التي لا طائل تحتها، لاح لـ فيليب خاطر، أو لعلها حقيقة تجلت له: لعل مؤسسة الزواج لم يُكتب عليها أن تكون بذلك العنت والمشقة.

مع مارينا، كان يشعر دائمًا وكأنه يسير على أطراف أصابعه في أرجاء المنزل، يتوجس خيفة في كل حين أن تهوي في غيابت نوبات سوداويتها، ويشعر بالخيبة تنهش قلبه كلما بدت وكأنها تنسلخ من الحياة، بل تكاد تتلاشى كالطيف.

ولكن، لعل الزواج قُدّر له أن يكون أيسر من ذلك. لعل صوته الحقيقي هو هذا الذي يعيشه الآن. أنيسًا. مريحًا.

لم تسعفه ذاكرته ليتذكر آخر مرة تحدث فيها مع مخلوق عن أطفاله، أو عن تنشئتهم. كانت أحماله دائمًا حكرًا على كاهله وحده، حتى حين كانت مارينا على قيد الحياة. فـ مارينا نفسها كانت عبئًا، ولا يزال هو يصارع وخز الضمير الذي يعتريه جراء شعور الراحة الذي غمره إثر رحيلها.

أما إلويز...

أرسل نظره عبر الطاولة إلى تلك المرأة التي هبطت في حياته من حيث لا يحتسب. توهجت خصلات شعرها كأنها جمرات حمراء تحت ضوء الشموع الراقص، وعيناها – حين ضبطته يحدق فيها – تألقتا ببريق الحيوية ولمحة من العبث المحبب.

أدرك، واليقين يترسخ في نفسه، أنها بالضبط ما كان ينشده. فَطِنة، ذات رأي، بل ومتسلطة – لم تكن تلك الخصال مما ينشده الرجال عادة في الزوجات، لكن فيليب كان في مسيس الحاجة، وبشكل يائس، لشخص يأتي إلى رومني هول ويلم شعث الأمور ويقيم أودها. فلا شيء كان على استقامة، من المنزل إلى أطفاله، وصولًا إلى ذلك الوجوم الصامت الذي خيم على المكان حين كانت مارينا حية، وللأسف لم ينقشع حتى بعد مماتها.

كان فيليب على أتم الاستعداد للتنازل عن بعض سلطاته الزوجية لزوجة، شريطة أن تعيد الأمور إلى نصابها. سيكون أكثر من سعيد بأن يتوارى في دفيئته ويوليها مقاليد كل شيء آخر.

هل ترضى إلويز بريدجرتون بتحمل عبء هذا الدور؟

يا رباه، كم كان يرجو ذلك.

الفصل الخامس

... أتوسل إليك يا أمي، يجب عليك معاقبة دافني.
ليس عدلًا أن أكون الوحيدة التي تُرسل للفراش بلا حلوى.
ولمدة أسبوع! الأسبوع مدة طويلة للغاية.
لا سيما أن الفكرة كانت في معظمها فكرة دافني.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى والدتها،
تركتها على طاولة ليل فيولت بريدجرتون
أثناء عام إلويز العاشر

كان أمرًا غريبًا، كما فكرت إلويز، كيف تتغير الأمور في يوم واحد.

لأنه الآن، وبينما يصحبها السير فيليب في جولة بمنزله، متظاهرًا باستعراض معرض الصور بينما يطيل في الحقيقة أمدهما معًا، كانت تفكر:

قد يكون زوجًا مناسبًا تمامًا في النهاية.

ليست الطريقة الأكثر شاعرية لصياغة مفهوم كان ينبغي أن يفيض بالرومانسية والشغف، لكن توددهما لم يكن نمطيًا، ومع بقاء عامين فقط حتى عيد ميلادها الثلاثين، لم تملك إلويز رفاهية الجنوح للخيال.

لكن مع ذلك، كان هناك شيء ما...

في ضوء الشموع، بدا السير فيليب أكثر وسامة بطريقة ما، وربما حتى ذا مظهر يوحي بالخطورة قليلًا. بدت تقاسيم وجهه القاسية تبرز وتتظلل في الضوء الراقص، مانحة إياه مظهرًا منحوتًا، يكاد يشبه التماثيل التي زارتها في المتحف البريطاني. وبينما كان يقف بجوارها، ويده الكبيرة ممسكة بمرفقها بتملك، بدا حضوره كله يلفها.

كان الأمر غريبًا، ومثيرًا، ومخيفًا قليلًا.

لكنه كان مرضيًا أيضًا. لقد فعلت شيئًا مجنونًا، بهروبها في منتصف الليل، آملة في العثور على السعادة مع رجل لم تقابله قط. كان من المريح التفكير في أن الأمر ربما لم يكن خطأً كاملًا، وأنها ربما غامرت بمستقبلها وفازت.

لم يكن شيء ليكون أسوأ من العودة لـ لندن منكسرة، معترفة بالفشل ومضطرة لشرح ما فعلته لعائلتها بأسرها.

لم ترغب في الاضطرار للاعتراف بأنها كانت مخطئة، لنفسها أو لأي شخص آخر.

ولكن لنفسها في المقام الأول.

أثبت السير فيليب كونه رفيق عشاء ممتعًا، حتى وإن لم يكن فصيحًا أو متحدثًا لبقًا كما اعتادت.

لكنه بوضوح يملك حسًا بالعدالة، وهو ما عدته إلويز جوهريًا في أي زوج. لقد تقبل – بل وأعجب – بتقنيتها في وضع السمكة في السرير مع أماندا. الكثير من الرجال الذين التقتهم إلويز في لندن كانوا ليصابوا بالرعب من أن تفكر سيدة حسنة التربية في اللجوء لمثل هذه التكتيكات الملتوية.

وربما، فقط ربما، قد ينجح هذا. الزواج من السير فيليب بدا كمخطط طائش حين سمحت لنفسها بالتفكير فيه بطريقة منطقية، لكنه لم يكن غريبًا تمامًا – فقد كانا يتراسلان لأكثر من عام في النهاية.

قال فيليب بهدوء، مشيرًا للوحة كبيرة:

– "جدي."

قالت إلويز، رغم أنها بالكاد تراه في الضوء الخافت:

– "كان وسيمًا جدًا."

وأشارت للصورة على اليمين.

– "هل هذا والدك؟"

أومأ فيليب مرة واحدة، باقتضاب، واشتدت زوايا شفتيه.

سألته، مستشعرة عدم رغبته في الحديث عن والده:

– "وأين أنت؟"

– "هنا، للأسف."

تبعت إلويز إشارته للوحة لـ فيليب كصبي صغير في الثانية عشرة ربما، يقف مع شخص لا يمكن أن يكون سوى أخيه.

أخيه الأكبر.

سألته، بما أنه لا بد أن يكون ميتًا وإلا ما ورث فيليب منزله أو لقبه:

– "ماذا حدث له؟"

أجاب باقتضاب:

– "ووترلو."

باندفاع، وضعت يدها فوق يده.

– "أنا آسفة."

للحظة ظنت أنه لن يقول شيئًا، لكنه أطلق أخيرًا همسة خافتة:

– "لا أحد كان أكثر أسفًا مني."

– "ما كان اسمه؟"

– "جورج."

قالت وهي تعود بذاكرتها لعام 1815 وتحسب في رأسها:

– "لا بد أنك كنت صغيرًا جدًا."

– "واحد وعشرون. توفي والدي بعدها بأسبوعين."

فكرت في ذلك. في الحادية والعشرين، كان يفترض بها أن تكون متزوجة. كل السيدات الشابات من طبقتها كان متوقعًا منهن الزواج بحلول ذلك السن. قد يظن المرء أن ذلك يضفي قدرًا من النضج، لكن الآن بدت الحادية والعشرون سنًا صغيرة وغرة بشكل مستحيل، وبريئة جدًا لترث عبئًا لم تفكر يومًا في تلقيه.

قال:

– "مارينا كانت خطيبته."

انفلتت أنفاسها من شفتيها، والتفتت إليه، ويدها تسقط عن يده.

– "لم أكن أعلم."

هز كتفيه.

– "لا يهم. هنا، أتريدين رؤية لوحتها؟"

أجابت إلويز:

– "نعم."

اكتشفت أنها ترغب بالفعل في رؤية مارينا. كانتا ابنتي عم، لكن من بعيد، ومرت سنوات منذ تزاورهما. تذكرت إلويز شعرًا داكنًا وعينين فاتحتين – زرقاوين ربما – لكن هذا كان كل شيء.

كانت هي ومارينا في العمر نفسه، لذا دُفعتا معًا في التجمعات العائلية، لكن إلويز لم تذكر وجود الكثير من القواسم المشتركة بينهما. حتى حين كانتا بالكاد أكبر من أماندا وأوليفر، كانت اختلافاتهما واضحة. كانت إلويز طفلة صاخبة، تتسلق الأشجار وتتزحلق على الدرابزين، تتبع إخوتها الأكبر دائمًا، وتتوسل إليهم للسماح لها بالمشاركة فيما يفعلون.

كانت مارينا أهدأ، تأملية تقريبًا. تذكرت إلويز شدها ليدها، محاولة إخراجها للعب. لكن مارينا أرادت فقط الجلوس مع كتاب.

لاحظت إلويز الصفحات، مع ذلك، وكانت مقتنعة تمامًا بأن مارينا لم تتجاوز الصفحة الثانية والثلاثين قط.

كان شيئًا غريبًا لتتذكره، كما افترضت، لولا أن ذاتها ابنة التسع سنوات وجدته مذهلًا – لمَ قد يختار شخص البقاء بالداخل مع كتاب والشمس مشرقة، ثم لا يقرؤه حتى؟ أمضت بقية الزيارة تهمس مع أختها فرانشيسكا، محاولتين معرفة ما تفعله مارينا بذلك الكتاب بالضبط.

سأل فيليب:

– "هل تذكرينها؟"

أجابت إلويز، غير واثقة لمَ لم ترغب في مشاركة ذكراها معه:

– "قليلًا فقط."

وعلى أية حال، كانت تلك الحقيقة. ذلك كان مجموع ذكرياتها عن مارينا – ذلك الأسبوع الواحد في نيسان قبل أكثر من عشرين عامًا، تهمس مع فرانشيسكا بينما تحدق مارينا في كتاب.

سمحت إلويز لـ فيليب بقيادتها للوحة مارينا. رُسمت جالسة، على نوع من العثمانية، وتنوراتها الحمراء الداكنة مرتبة بفن حولها. نسخة أصغر من أماندا كانت في حجرها، وأوليفر يقف بجانبها، في إحدى تلك الوضعيات التي يُجبر الصبية الصغار دائمًا على اتخاذها – جادًا وصارمًا، وكأنه بالغ مصغر.

قالت إلويز:

– "كانت جميلة."

حدق فيليب فقط في صورة زوجته الراحلة، ثم، وكأن الأمر تطلب قوة إرادة، أدار رأسه ومشى مبتعدًا.

هل أحبها؟ هل لا يزال يحبها؟

كان ينبغي لـ مارينا أن تكون عروس أخيه؛ كل شيء يشير إلى أن فيليب حصل عليها كتحصيل حاصل.

لكن ذلك لا يعني أنه لم يحبها. ربما كان مغرمًا بها سرًا بينما كانت مخطوبة لأخيه. أو ربما وقع في حبها بعد الزفاف.

اختلست إلويز نظرة لجانب وجهه وهو يحدق بلا رؤية في لوحة على الجدار. كان هناك انفعال على وجهه حين نظر للوحة مارينا. لم تكن واثقة مما

شعر به تجاهها، لكنه بالتأكيد لا يزال شيئًا ما. مر عام واحد فقط، ذكرت نفسها. العام قد يشكل فترة الحداد الرسمية، لكنه ليس وقتًا طويلًا لتجاوز موت شخص عزيز.

ثم التفت. التقت عيناه بعينيها، وأدركت أنها كانت تحدق فيه، مأخوذة بتقاسيم وجهه. انفرجت شفتاها دهشة، وأرادت النظر بعيدًا، شعرت بأنه يجب عليها الاحمرار والتلعثم لضبطها متلبسة، لكن بطريقة ما لم تستطع. وقفت هناك فقط، مسمرة، لاهثة، بينما انتشرت حرارة غريبة عبر بشرتها.

كان على بعد عشرة أقدام، على الأقل، وبدا وكأنهما يتلامسان.

همس – أو على الأقل ظنت أنه فعل:

– "إلويز؟"

رأت شفتيه تشكلان الكلمة أكثر مما سمعت صوته بالفعل.

ثم انكسرت اللحظة بطريقة ما. ربما كانت همسته، وربما صرير شجرة عصفت بها الرياح في الخارج. لكن إلويز استطاعت أخيرًا التحرك – والتفكير – والتفتت بسرعة عائدة للوحة مارينا، مثبتة نظرها بحزم على وجه ابنة عمها الراحلة الساكن.

قالت إلويز، محتاجة لقول شيء، أي شيء يعيد بدء المحادثة – ويعيد لها رباطة جأشها:

– "لا بد أن الطفلين يفتقدانها."

للحظة لم يقل فيليب شيئًا. ثم قال أخيرًا:

– "نعم، لقد افتقداها لوقت طويل."

بدا لـ إلويز أنها طريقة غريبة نوعًا ما للصياغة.

قالت:

– "أعرف كيف يشعران. كنت صغيرة جدًا حين توفي والدي."

نظر إليها.

– "لم أدرك ذلك."

هزت كتفيها.

- "ليس أمرًا أتحدث عنه كثيرًا. كان ذلك منذ زمن بعيد."

عاد لجانبها، بخطوات بطيئة ومنهجية.

- "هل استغرقك الأمر طويلًا لتجاوزه؟"

- "لست واثقة أنه شيء يتجاوزه المرء أبدًا. تمامًا، أعني. ولكن لا، لا أفكر فيه كل يوم، إن كان هذا ما تريد معرفته."

التفتت بعيدًا عن لوحة مارينا؛ كانت تركز عليها لفترة أطول مما ينبغي وبدأت تشعر بتطفل غريب.

قالت:

- "أظن الأمر كان أصعب على إخوتي الأكبر. أنطوني – هو الأكبر وكان شابًا بالفعل حين حدث ذلك – واجه وقتًا عصيبًا بشكل خاص. كانا مقربين جدًا. وأمي، بالطبع."

نظرت إليه.

- "والداي أحبا بعضهما كثيرًا."

- "كيف كان رد فعلها لرحيله؟"

- "حسنًا، بكت كثيرًا في البداية. أنا واثقة أنه لم يكن مقدرًا لنا أن نعرف. كانت تفعل ذلك دائمًا في غرفتها ليلًا، بعد أن تظن أننا نمنا جميعًا. لكنها افتقدته بشكل مريع، ولم يكن الأمر سهلًا بوجود سبعة أطفال."

- "ظننت أنكم ثمانية."

- "هياسينث لم تكن قد ولدت بعد. أعتقد أن أمي كانت في شهرها الثامن."

ظنت أنها سمعته يهمس:

- "يا إلهي."

كان محقًا. لم تكن لدى إلويز أدنى فكرة كيف تدبرت أمها الأمر.

أخبرته:

– "كان غير متوقع. لسعته نحلة. نحلة. أتتخيل ذلك؟ لسعته نحلة، ثم... حسناً، لا داعي لإضجارك بالتفاصيل. هنا، لنغادر. المكان مظلم جداً لرؤية اللوحات بشكل صحيح، على أية حال."

كانت كذبة، بالطبع. كان المكان مظلمًا، لكن إلويز لم تكترث لذلك. الحديث عن وفاة والدها جعلها تشعر بغرابة، ولم ترغب في الوقوف هناك محاطة بلوحات لأناس موتى.

قالت:

– "أود رؤية دفيئتك."

– "الآن؟"

بهذا الشكل، بدا طلبًا غريبًا.

قالت:

– "غدًا إذًا، حين يسطع الضوء."

تقوست شفتاه في لمحة ابتسامة.

– "يمكننا الذهاب الآن."

– "لكننا لن نتمكن من رؤية أي شيء."

صحح لها:

– "لن نتمكن من رؤية كل شيء. لكن القمر ساطع، وسنأخذ فانوسًا."

نظرت بشك عبر النافذة.

– "الجو بارد."

انحنى بلمعة في عينيه:

– "يمكنك أخذ معطف. لستِ خائفة، أليس كذلك؟"

ردت، عالمة أنه يستفزها لتوافق لكنها وقعت في الفخ على أية حال:

– "بالطبع لا!"

رفع حاجبه بطريقة مستفزة للغاية.

– "ليكن في علمك أني أقل امرأة جبنًا قد تقابلها في حياتك."

همس:

– "أنا واثق أنكِ كذلك."

– "الآن أنت تعاملني بتعالٍ."

لم يفعل شيئًا سوى القهقهة.

قالت بحماس:

– "حسنًا جدًا. دلني على الطريق."

هتفت إلويز بينما يغلق فيليب باب الدفيئة خلفها:

– "الجو دافئ جدًا!"

أخبرها:

– "في الواقع يكون أدفأ من هذا عادة. الزجاج يسمح للشمس بتدفئة الهواء، ولكن باستثناء هذا الصباح، كان الجو غائمًا جدًا في الأيام القليلة الماضية."

كان فيليب يزور دفيئته ليلًا كثيرًا، يكدح على ضوء فانوس حين يجافي النوم جفونه. أو، قبل أن يترمل، ليبقي نفسه مشغولًا كي لا يفكر في دخول مخدع مارينا.

لكنه لم يطلب من أحد قط مرافقته في الظلام؛ حتى أثناء النهار، كان يعمل وحيدًا دائمًا تقريبًا. الآن يرى كل شيء بعيني إلويز – السحر في الطريقة التي يلقي بها ضوء القمر اللؤلؤي ظلالًا عبر الأوراق والسعف. أثناء النهار، المشي عبر الدفيئة لم يكن مختلفًا كثيرًا عن المشي عبر أي منطقة مشجرة في إنجلترا، باستثناء السرخس النادر أو البروميلياد المستورد.

لكن الآن، مع عباءة الليل التي تخدع العيون، بدا الأمر وكأنهما في غابة سرية خفية، مع السحر والمفاجأة يتربصان حول كل زاوية.

سألت إلويز وهي تحدق في ثمانية أوعية فخارية صغيرة، مصفوفة في خط عبر منضدة عمله:

– "ما هذا؟"

مشى فيليب لجانبها، مسرورًا بشكل سخيف لأنها بدت فضولية حقًا. معظم الناس يتظاهرون بالاهتمام فقط، أو لا يتكبدون عناء التظاهر حتى ويهربون بسرعة.

قال:

– "إنها تجربة أعمل عليها، مع البازلاء."

– "النوع الذي نأكله؟"

– "نعم. أحاول تطوير سلالة تنمو بامتلاء أكبر في القرن."

حدقت في الأوعية. لم يكن شيء قد نبت بعد؛ لقد زرع البذور قبل أسبوع فقط.

همست:

– "كم هو مثير للفضول. لم تكن لدي فكرة أن المرء يستطيع فعل ذلك."

اعترف:

– "ليس لدي فكرة إن كان المرء يستطيع. أحاول منذ عام."

– "بلا نجاح؟ كم هو محبط."

اعترف:

– "حققت بعض النجاح، ليس بالقدر الذي أريده فقط."

أخبرته:

– "حاولت زراعة الورود ذات عام. ماتت كلها."

قال:

– "الورود أصعب مما يظن معظم الناس."

التوت شفتاها قليلًا.

– "لاحظت أن لديك وفرة منها."

– "لدي بستاني."

– "عالم نبات ولديه بستاني؟"

سمع هذا السؤال من قبل، مرات عديدة.

– "لا يختلف الأمر عن خياطة ملابس لديها خياطة."

فكرت في ذلك للحظة، ثم توغلت أكثر في الدفيئة، تتوقف لتحدق في نباتات مختلفة وتوبخه لعدم مجاراتها بالفانوس.

قال:

– "أنتِ متسلطة قليلًا هذا المساء."

التفتت، وضبطته يبتسم – نصف ابتسامة على الأقل – ومنحته ابتسامة عريضة ماكرة.

– "أفضل أن أُدعى 'إدارية'."

– "أنثى من النوع الإداري، هاه؟"

– "أنا مندهشة أنك لم تستنتج ذلك من رسائلي."

رد عليها:

– "لمَ تظنين أني دعوتكِ؟"

سألته، رامية الكلمات فوق كتفها وهي تبتعد عنه بدلال:

– "أتريد شخصًا ليدير حياتك؟"

كان يريد شخصًا ليدير أطفاله، لكن الآن لم يبدُ الوقت الأنسب لذكرهم. ليس وهي تنظر إليه وكأنها...

وكأنها تريد أن تُقبل.

اتخذ فيليب خطوتين بطيئتين مفترستين في اتجاهها قبل حتى أن يدرك ما يفعله.

سألت وهي تشير لشيء ما:

– "ما هذا؟"

– "نبتة."

قالت بضحكة:

– "أعرف أنها نبتة. لو أني – – "

لكنها نظرت لأعلى حينها، ولمحت البريق في عينيه، وصمتت.

سأل:

– "هل يمكنني تقبيلكِ؟"

كان ليتوقف لو قالت لا، كما افترض، لكنه لم يمنحها فرصة كبيرة، مغلقًا المسافة بينهما قبل أن تتمكن من الرد.

كرر، قريبًا جدًا لدرجة أن كلماته هُمست عبر شفتيها:

– "هل يمكنني؟"

أومأت، حركة صغيرة لكنها واثقة، فلامس فمها بفمه، برفق، بنعومة، كما يُفترض بالمرء تقبيل امرأة يظن أنه قد يتزوجها.

لكن يديها تسللتا ولمست عنقه، وليساعده الرب، لكنه أراد المزيد.

أكثر بكثير.

عمق القبلة، متجاهلًا شهقة مفاجأتها وهو يباعد بين شفتيها بلسانه. لكن حتى ذلك لم يكن ما أراده. أراد أن يشعر بها، بدفئها، بحيويتها، صعودًا وهبوطًا بطول جسده، حوله، خلاله، تتخلله.

انزلقت يداه حولها، استقرت إحداهما على أعلى ظهرها، بينما وجدت الأخرى بجرأة المنحنى المترف لمؤخرتها. ضغطها نحوه، بقوة، غير عابئ بأنها ستشعر بدليل رغبته. لقد مضى وقت طويل. طويل جدًا، وهي ناعمة وحلوة جدًا بين ذراعيه.

أرادها.

أرادها كلها، لكن حتى عقله المغشى بالشغف علم أن ذلك مستحيل هذا المساء، لذا صمم على الحصول على ثاني أفضل شيء، وهو مجرد الإحساس بها، شعور وجودها بين ذراعيه، حرارتها تسري بطول جسده بالكامل.

وكانت تستجيب. بتردد في البداية، وكأنها غير واثقة تمامًا مما تفعله، لكن بعد ذلك بحماس أكبر، مصدرة أصواتًا صغيرة مغرية ببراءة من حلقها.

قاده ذلك للجنون. هي قادته للجنون.

همس، وصوته أجش وخشن بالحاجة:

– "إلويز، إلويز."

غرز يدًا في شعرها، شاده إياه حتى ارتخت تسريحتها وانزلقت خصلة كستنائية كثيفة لتشكل تجعيدًا مغريًا على عظمة صدرها. تحركت شفتاه

لعنقها، يتذوق بشرتها، مبتهجًا حين تقوست للخلف ومنحته وصولًا أكبر. ثم، حين بدأ في الانخفاض، وركبتاه تنثنيان وشفتاه تتبعان عظمة الترقوة، نترت نفسها بعيدًا.

اندفعت قائلة، ويداها تطيران لفتحة رقبة فستانها رغم أنها لم تكن في غير موضعها قيد أنملة:

- "أنا آسفة."

قال بوضوح فج:

- "أنا لست كذلك."

اتسعت عيناها لصراحته. لم يكترث. لم يكن يومًا منمق الكلام، ومن الأفضل على الأرجح أن تعلم ذلك الآن، قبل أن يفعلا شيئًا دائمًا.

ثم فاجأته.

قالت:

- "كان تعبيرًا مجازيًا."

- "عفوًا؟"

- "قلت إني آسفة. لم أكن كذلك، حقًا. كان تعبيرًا مجازيًا."

بدت متماسكة بشكل ملحوظ وأقرب معلمة مدرسة، منها لامرأة قُبِّلت لتوها بحرارة.

تابعت:

- "الناس يقولون أشياء كهذه طوال الوقت، فقط لملء الصمت."

بدأ فيليب يدرك أنها ليست من النوع الذي يحب الصمت.

- "إنه يشبه إلى حد ما حين يقوم المرء بـ-- "

قبلها مرة أخرى.

- "سير فيليب!"

قال بابتسامة راضية:

- "أحيانًا، يكون الصمت شيئًا جيدًا."

انفرج فمها.

– "أتقول إني أتحدث أكثر مما ينبغي؟"

هز كتفيه، مستمتعًا جدًا بمشاكستها ليفعل أي شيء آخر.

– "ليكن في علمك أني كنت أهدأ هنا بكثير مما أكون في المنزل."

– "يصعب تخيل ذلك."

– "سير فيليب!"

قال وهو يمد يده ويمسك يدها، ثم يمسكها مرة أخرى، بحزم أكبر هذه المرة، حين سحبتها بعيدًا:

– "هش. نحن بحاجة لقليل من الضجيج هنا."

استيقظت إلويز في صباح اليوم التالي وكأنها لا تزال ملفوفة في حلم. لم تتوقع منه تقبيلها.

ولم تتوقع أن يعجبها الأمر إلى هذا الحد.

أطلقت معدتها قرقرة غاضبة، فقررت النزول لغرفة الإفطار. لم يكن لديها أدنى فكرة إن كان السير فيليب سيكون هناك. هل هو ممن يستيقظون باكرًا؟ أم يحب البقاء في الفراش حتى الظهيرة؟ بدا سخيفًا أنها لا تعرف هذه الأشياء عنه وهي تفكر جديًا في الزواج.

وإن كان هناك، ينتظرها فوق طبق من البيض المسلوق، ماذا ستقول له؟ ماذا تقول المرأة لرجل بعد أن وضع لسانه في أذنها؟

ناهيك عن أنه كان لسانًا لطيفًا جدًا، في الواقع. لا يزال الأمر يتجاوز الفضيحة بمراحل.

ماذا لو وصلت هناك وبالكاد استطاعت قول "صباح الخير"؟ بالتأكيد سيجد ذلك مسليًا، بعد ممازحتها بشأن ثرثرتها الليلة الماضية.

كاد الأمر يضحكها. هي، التي تستطيع إدارة محادثة حول لا شيء وتفعل ذلك كثيرًا، لم تكن واثقة مما ستقوله حين ترى السير فيليب كرين المرة القادمة.

بالطبع، لقد قبلها. ذلك غير كل شيء.

عبرت الغرفة، وتفقدت بابها لتتأكد من إغلاقه بإحكام قبل فتحه. لم تظن أن أوليفر وأماندا سيجربان الحيلة نفسها مرتين، لكن المرء لا يدري أبدًا. لم تستسغ فكرة حمام طحين آخر. أو أسوأ. بعد حادثة السمكة، ربما يفكران في شيء سائل. شيء سائل وكريه الرائحة.

مترنمة بصوت خافت، خرجت للردهة وانعطفت يمينًا لتشق طريقها للسلم. بدا اليوم واعدًا؛ الشمس كانت تختلس النظر بالفعل عبر الغيوم هذا الصباح حين نظرت من النافذة، و– –

– "أوه!"

مُزقت الصرخة من حلقها وهي تهوي للأمام، وقدمها عالقة خلف شيء مُد عبر الردهة. لم تملك حتى فرصة لمحاولة استعادة توازنها؛ كانت تمشي بسرعة، كعادتها، وحين سقطت، سقطت بقوة.

ودون حتى وقت لاستخدام يديها لتخفيف سقوطها.

حرقت الدموع عينيها. ذقنها – يا إلهي، ذقنها وكأن النار اشتعلت فيه. جانبه على الأقل. تمكنت بالكاد من ليّ رأسها قليلًا للجانب قبل السقوط.

أنت بشيء غير مفهوم، ذلك النوع من الضجيج الذي يصدره المرء حين يتألم بشدة لدرجة العجز عن كتمان الأمر. وظلت تنتظر انحسار الألم، ظانة أن هذا سيكون مثل ارتطام إصبع القدم، ينبض بلا رحمة لثوانٍ ثم، بمجرد انتهاء المفاجأة، يتلاشى لألم خفيف.

لكن الألم استمر في الحرق. في ذقنها، وجانب رأسها، وركبتها، ووركها. شعرت بأنها ضُربت.

ببطء، وبجهد جهيد، أجبرت نفسها على النهوض على يديها وركبتيها، ثم لوضعية الجلوس. سمحت لنفسها بالاستناد على الجدار ورفعت يدها لتحتضن خدها، آخذة أنفاسًا سريعة من أنفها لمحاولة السيطرة على الألم.

– "إلويز!"

فيليب. لم تكلف نفسها عناء النظر لأعلى، لم ترغب في التحرك من وضعيتها المتكورة.

قال وهو يقفز الدرجات الأخيرة مسرعًا لجانبها:

– "إلويز، يا إلهي. ماذا حدث؟"

– "سقطت."

لم تقصد التوجع، لكن الصوت خرج هكذا على أية حال.

برقة بدت غريبة على رجل بحجمه، أخذ يدها وسحبها عن خدها.

الكلمات التالية التي قالها لم تكن مما يتردد كثيرًا في حضرة إلويز:

– "تحتاجين لقطعة لحم على هذه الكدمة."

نظرت إليه بعيون دامعة.

– "هل أنا مصابة بكدمة؟"

أومأ بوجوم.

– "قد يكون لديكِ عين سوداء. لا يزال الوقت مبكرًا للجزم."

حاولت الابتسام، حاولت التظاهر بالجلد، لكنها لم تستطع.

سأل برفق:

– "هل يؤلم بشدة؟"

أومأت، متسائلة لمَ جعلها وقع صوته ترغب في البكاء أكثر. ذكرها بحين كانت صغيرة وسقطت من شجرة. التوى كاحلها، بشدة، لكن بطريقة ما تمالكت نفسها حتى عادت للمنزل.

نظرة واحدة من أمها وبدأت في النحيب.

لمس فيليب خدها بحذر، وتقلصت ملامحه في عبوس حين جفلت.

طمأنته:

– "سأكون بخير."

وستكون.. في غضون أيام قليلة.

– "ماذا حدث؟"

وبالطبع عرفت تمامًا ما حدث. شدُ شيء عبر الردهة، وُضع لتعثرها وسقوطها. لم يتطلب الأمر ذكاءً كبيرًا لتخمين الفاعل.

لكن إلويز لم ترغب في توريط التوأم. ليس في نوع الورطة التي سيجدان نفسيهما فيها بمجرد أن يمسك بهما السير فيليب. لم تظن أنهما قصدا إحداث كل هذا الضرر.

لكن فيليب لمح بالفعل خيط القنب الرفيع، المشدود بإحكام عبر الردهة والمربوط حول أرجل طاولتين، سُحبتا كلاهما نحو وسط الردهة حين تعثرت إلويز.

راقبت إلويز وهو يجثو، يلمس الخيط ويلفه حول أصابعه. نظر إليها، ليس بتساؤل في عينيه، بل بتقرير قاتم لواقع الحال.

قالت، رغم وضوح الأمر:

- "لم أره."

لم يرفع فيليب عينيه عن عينيها، لكن أصابعه استمرت في لف الخيط حتى توتر وانقطع.

شهقت إلويز. كان هناك شيء مرعب تقريبًا في اللحظة. لم يبدُ فيليب مدركًا لكسره الخيط، بالكاد واعيًا بقوته.

أو بقوة غضبه.

همست:

- "سير فيليب."

لكنه لم يسمعها قط.

زمجر:

- "أوليفر! أماندا!"

بدأت إلويز، غير واثقة لمَ تدافع عنهما:

- "أنا واثقة أنهما لم يقصدا إيذائي..."

لقد آذياها، ذلك صحيح، لكن كان لديها شعور بأن عقابها سيكون أقل إيلامًا بكثير من أي شيء قادم من أبيهما.

قال فيليب بحدة:

– "لا يهمني ما قصداه. انظري كم هبطتِ قريبة من الدرج. ماذا لو سقطتِ؟"

نظرت إلويز للدرج. كان قريبًا، لكن ليس قريبًا لدرجة تدحرجها.

– "لا أظن..."

قال وصوته منخفض بشكل مميت ويرتجف غضبًا:

– "يجب أن يحاسبا على هذا."

قالت إلويز:

– "سأكون بخير."

بدأ الألم اللاذع يفسح المجال لألم أخف. لكنه لا يزال يؤلم، لدرجة أنها حين رفعها السير فيليب بين ذراعيه، أطلقت صرخة صغيرة.

وتعاظم غضبه.

قال وصوته خشن ومقتضب:

– "سأضعك في الفراش."

لم تبدِ إلويز اعتراضًا.

ظهرت خادمة على بسطة الدرج، وشهقت حين رأت الكدمة الداكنة على وجه إلويز.

أمر السير فيليب:

– "أحضري لي شيئًا لهذا. قطعة لحم. أي شيء."

أومأت الخادمة وركضت بينما حمل فيليب إلويز لغرفتها.

– "هل تأذيتِ في أي مكان آخر؟"

اعترفت إلويز وهو يضعها فوق أغطيتها:

– "وركي. ومرفقي."

أومأ بوجوم.

– "أتظنين أنكِ كسرتِ شيئًا؟"

قالت بسرعة:

– "لا! لا، أنا – – "

قال وهو يتجاهل احتجاجاتها بينما يفحص ذراعها بخفة:

– "سأحتاج للتحقق، على أية حال."

– "سير فيليب، أنا – – "

قال، دون أثر للمزاح في عينيه:

– "أطفالي كادوا يقتلونكِ لتوهم. أظن أنه يمكنكِ الاستغناء عن لقب 'سير'."

ابتلعت إلويز ريقها وهي تراقبه يعبر الغرفة للباب، خطواته طويلة وقوية.

قال، مفترضًا وجود خادم يحوم بالخارج في الردهة:

– "أحضري لي التوأم فورًا."

لم تستطع إلويز تخيل أن الطفلين لم يسمعا صيحته السابقة، لكنها لم تستطع لومهما أيضًا على محاولة تأخير يوم الحساب على يدي والدهما.

قالت إلويز، محاولة استدراجه للعودة للغرفة بصوتها:

– "فيليب، اتركهما لي. أنا الطرف المصاب، و– – "

قال وصوته قاسٍ:

– "إنهما طفلاي، وسأعاقبهما. الله يعلم أن ذلك تأخر طويلًا."

حدقت فيه إلويز برعب متزايد. كان يكاد يرتجف من الغضب، ورغم أنها كانت لتسعد بصفع الطفلين على مؤخرتيهما بنفسها، لم تظن أنه ينبغي له توزيع العقاب في حالته هذه.

قال فيليب بصوت منخفض:

– "لقد آذياكِ. هذا غير مقبول."

طمأنته مجددًا:

– "سأكون بخير. في بضعة أيام لن أكون حتى – – "

قال بحدة:

– "ليس هذا بيت القصيد. لو أني..."

توقف، وحاول مرة أخرى:

– "لو أني لم..."

توقف، عاجزًا عن الكلام، واستند على الجدار، ورأسه يتدلى للخلف وعيناه تمسحان السقف – بحثًا عن ماذا، لم تدرِ. إجابات، كما افترضت. وكأن المرء يجد إجابات بمجرد مسحة للأعلى بالعينين.

التفت، ونظر إليها، وعيناه قاتمتان، ورأت إلويز شيئًا على وجهه لم تتوقع رؤيته هناك.

وحينها أدركت الأمر – كل هذا الغضب في صوته، في ارتعاش جسده – لم يكن موجهًا للأطفال. ليس حقًا، وبالتأكيد ليس كليًا.

النظرة على وجهه، الكآبة في عينيه – كان مقتًا للذات.

لم يكن يلوم أطفاله.

كان يلوم نفسه.

الفصل السادس

... ما كان عليك السماح له بتقبيلك.

من يدري أي جرأة سيحاول الإقدام عليها في المرة القادمة التي تلتقيان فيها؟

ولكن ما حدث قد حدث، كما أفترض، ولم يبقَ سوى السؤال: هل كان الأمر جميلًا؟

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أختها فرانشيسكا،
دُست تحت باب غرفة نوم فرانشيسكا
في الليلة التي التقت فيها بإيرل كيلمارتن،
الذي تزوجته بعد شهرين

حين دلف الطفلان إلى الغرفة، وقد سحبتهما المربية جرًا ودفعًا، أجبر فيليب نفسه على التسمر في وقفته المتيبسة مستندًا إلى الجدار، خشية أنه لو اقترب منهما، لأوسعهما ضربًا حتى يشارفا على الهلاك.

وما يخشاه أكثر، أنه بعد أن يفرغ من ذلك، قد لا يندم على فعلته.

لذا اكتفى بعقد ذراعيه والتحديق فيهما، تاركًا إياهما يتململان تحت وطأة غضبه المستعر، بينما يقلّب في رأسه ما عساه أن يقول بحق الجحيم.

أخيرًا، نطق أوليفر، وصوته يرتجف:

– "أبي؟"

قال فيليب الشيء الوحيد الذي تبادر لذهنه، الشيء الوحيد الذي بدا ذا أهمية:

– "أترون الآنسة بريدجرتون؟"

أومأ التوأم برأسيهما، لكنهما تحاشيا النظر إليها. على الأقل ليس إلى وجهها، الذي بدأ يكتسي باللون الأرجواني حول العين.

– "أتلاحظون شيئًا غير طبيعي فيها؟"

لاذا بالصمت، فارضين سكونًا لم يقطعه إلا ظهور خادمة عند الباب قائلة: "سيدي؟".

أشار فيليب برأسه معلنًا وصولها، ثم خطى ليأخذ قطعة اللحم التي أحضرتها لعين إلويز.

سأل أطفاله بحدة:

– "جائعون؟"

وحين لم يجيبا، قال:

– "حسن. لأنه للأسف، لن يأكل أحد منا هذا، أليس كذلك؟"

عبر الغرفة نحو السرير، وجلس برفق بجوار إلويز. قال، وصوته لا يزال خشنًا من فرط الغضب:

– "هاكِ."

متجاهلًا محاولاتها للمساعدة، وضع اللحم على عينها، ثم رتب قطعة قماش فوقه كي لا تتسخ أصابعها أثناء تثبيته في مكانه.

وحين فرغ من ذلك، مشى إلى حيث ينكمش التوأم، ووقف أمامهما عاقدًا ذراعيه. وانتظر.

أمر حين لم يرفع أي منهما بصره عن الأرض:

– "انظرا إليّ."

وحين فعلا، رأى الرعب في أعينهما، فأصابه ذلك بالغثيان، لكنه لم يدرِ كيف كان من المفترض أن يتصرف غير ذلك.

همست أماندا:

– "لم نقصد إيذاءها."

رد بحدة، ملتفتاً نحوهما بغضب ملموس:

– "حقًا؟ لم تقصدا؟"

كان صوته جليديًا، لكن وجهه أظهر غضبه بوضوح، حتى إن إلويز انكمشت في فراشها.

تابع فيليب، وسخريته تضفي عليه هالة من التحكم جعلته أكثر إخافة:

– "ألم يخطر ببالكم أنها قد تتأذى حين تتعثر في الخيط؟ أو ربما أدركتم بحق أن الخيط نفسه لن يسبب أذى، لكن لم يخطر ببالكم أنها قد تتأذى حين تسقط بالفعل."

لم ينبسا ببنت شفة.

نظر إلى إلويز، التي رفعت اللحم عن وجهها وكانت تتحسس عظم وجنتها بحذر. الكدمة تحت عينها بدت تزداد سوءًا دقيقة تلو الأخرى.

كان على التوأم أن يتعلما أنه لا يمكنهما الاستمرار هكذا. كان عليهما أن يتعلما معاملة الناس بمزيد من الاحترام. كان عليهما أن يتعلما...

لعن فيليب تحت أنفاسه. كان عليهما أن يتعلما شيئًا ما.

أشار برأسه نحو الباب.

– "ستأتيان معي."

سار نحو الردهة، ثم التفت إليهما وصاح:

– "الآن."

وبينما يقتادهما من الغرفة، ابتهل في سره أن يتمكن من السيطرة على نفسه.

حاولت إلويز ألا تسترق السمع، لكنها لم تستطع منع نفسها من إرهاف السمع. لم تكن تعلم إلى أين يأخذ فيليب الأطفال – قد تكون الغرفة المجاورة، أو الحضانة، أو الخارج. لكن شيئًا واحدًا كان مؤكدًا. سيعاقبان.

ورغم أنها رأت أنهما يستحقان العقاب – فما فعلاه لا يغتفر وهما بالتأكيد في سن تسمح لهما بإدراك ذلك – وجدت نفسها قلقة عليهما بشكل غريب. لقد بدا عليهما الرعب حين اقتادهما فيليب بعيدًا، وكانت تلك الذكرى المقلقة من اليوم السابق تلح عليها، حين سأل أوليفر بلهفة: "هل ستضربيننا؟".

لقد انكمش حين قالها، وكأنه يتوقع الضرب.

بالتأكيد السير فيليب لا... لا، ذلك مستحيل، فكرت إلويز. ضرب الأطفال للتأديب في وقت كهذا شيء، لكن ضربهم بشكل اعتيادي شيء آخر تمامًا.

لا يمكن أن تكون قد أخطأت الحكم على شخص لهذه الدرجة. لقد سمحت للرجل بتقبيلها الليلة الماضية، بل وبادلته القبلة. بالتأكيد كانت لتشعر بأن شيئًا ما خطأ، لتستشعر قسوة داخلية لو كان فيليب من النوع الذي يضرب أطفاله.

أخيرًا، وبعد ما بدا كأنه دهر، دلف أوليفر وأماندا، ووجوههما واجمة وعيونهما محمرة، يتبعهما السير فيليب بوجه متجهم، وكانت مهمته في الخلف بوضوح إبقاء الأطفال يسيرون بسرعة تفوق سرعة الحلزون.

جرجر الطفلان أقدامهما نحو سريرها، وأدارت إلويز رأسها لتتمكن من رؤيتهما. لم تستطع الرؤية بعينها اليسرى المغطاة باللحم، وبالطبع كان ذلك هو الجانب الذي اختاره الطفلان للوقوف فيه.

تمتما:

– "نحن آسفان يا آنسة بريدجرتون."

جاء توجيه والدهما بحدة:

– "بصوت أعلى."

– "نحن آسفان."

أومأت إلويز لهما.

أضافت أماندا:

– "لن يتكرر ذلك مرة أخرى."

قالت إلويز:

– "من المريح سماع ذلك بالتأكيد."

تنحنح فيليب.

قال أوليفر:

– "يقول أبي إنه يجب علينا تعويضك."

– "آه..."

لم تكن إلويز متأكدة تمامًا كيف ينويان فعل ذلك.

اندفعت أماندا قائلة:

– "أتحبين الحلوى؟"

نظرت إليها إلويز، تطرف بعينها السليمة في حيرة.

– "الحلوى؟"

هزت أماندا ذقنها إيجابًا.

– "حسنًا، نعم، أفترض أني أحبها. ألا يحبها الجميع؟"

– "لدي علبة من قطرات الليمون. ادخرتها لشهور. يمكنكِ أخذها."

ابتلعت إلويز الغصة في حلقها وهي تشاهد تعبير أماندا المعذب. كان هناك خطب ما بهذين الطفلين. أو إن لم يكن بهما، فمن أجلهما. شيء ما لم يكن صحيحًا في حياتهما. مع كل أبناء إخوتها وأخواتها، رأت إلويز ما يكفي من الأطفال السعداء لتعرف ذلك.

قالت إلويز وقلبها يعتصر ألمًا:

– "لا بأس يا أماندا. يمكنكِ الاحتفاظ بقطرات الليمون."

قالت أماندا وهي تلقي نظرة خائفة على أبيها:

– "ولكن علينا أن نعطيكِ شيئًا."

همت إلويز بإخبارها أن ذلك غير ضروري، ولكن حين راقبت وجه أماندا، أدركت أنه ضروري. جزئيًا، بالطبع، لأن السير فيليب أصر على ذلك بوضوح، ولم تكن إلويز لتقوض سلطته بقول العكس. ولكن أيضًا لأن التوأم بحاجة لفهم مفهوم إصلاح الخطأ.

قالت إلويز:

– "حسنًا جدًا. يمكنكما منحي فترة ما بعد ظهيرة."

– "فترة ما بعد ظهيرة؟"

– "نعم. بمجرد أن أشعر بتحسن، يمكنكما أنتِ وأخوكِ منحي فترة ما بعد ظهيرة. هناك الكثير هنا في رومني هول مما لا أعرفه، وأتصور أنكما تعرفان كل زاوية وركن في المنزل والأراضي. يمكنكما أخذي في جولة. شريطة، بالطبع،" أضافت لأنها تقدر صحتها وسلامتها، "أن تعدا بعدم وجود مقالب."

قالت أماندا بسرعة، وذقنها يهتز بإيماءة جادة:

– "لا مقالب. أعدك."

زمجر فيليب حين لم يتحدث ابنه بالسرعة الكافية:

– "أوليفر."

تمتم أوليفر:

– "لن تكون هناك مقالب في تلك الظهيرة."

عبر فيليب الغرفة وأمسك ابنه من ياقته.

قال أوليفر بصوت مخنوق:

– "أبدًا! أعدك! سنترك الآنسة بريدجرتون وشأنها تمامًا."

قالت إلويز ناظرة لأعلى نحو فيليب وآملة أن يفسر ذلك بشكل صحيح على أنه "يمكنك الآن إنزال الطفل":

– "ليس تمامًا، آمل. ففي النهاية، أنتما مدينان لي بفترة ما بعد ظهيرة."

منحتها أماندا ابتسامة مترددة، لكن عبوس أوليفر بقي في مكانه.

قال فيليب:

– "يمكنكما المغادرة الآن."

وفر الطفلان عبر الباب المفتوح.

بقي البالغان في صمت لدقيقة كاملة بعد مغادرتهما، يحدقان في الباب بتعبيرات جوفاء ومرهقة.

شعرت إلويز بالاستنزاف، والحذر، وكأنها ألقيت في موقف لا تفهمه تمامًا.

كادت ضحكة عصبية تفلت من شفتيها. فيم كانت تفكر؟ بالطبع ألقيت في موقف لا تفهمه، وهي تكذب على نفسها إن ظنت أنها تعرف ما يجب فعله.

مشى فيليب نحو السرير، ولكن حين وصل، وقف بتيبس نوعًا ما. سأل إلويز:

– "كيف حالك؟"

قالت بوضوح تام:

– "إن لم أزل هذا اللحم قريبًا، أظن أني سأتقيأ."

التقط الطبق الذي جاء عليه اللحم ومده لها. وضعت إلويز شريحة اللحم، متجهمة من الصوت الرطب المقزز الذي أحدثته.

قالت:

– "أظن أني أود غسل وجهي. الرائحة قوية نوعًا ما."

أومأ.

– "دعيني أنظر لعينك أولًا."

سألته وهي تنظر للسقف حين طلب منها النظر لأعلى:

– "هل لديك خبرة كبيرة بهذا النوع من الأشياء؟"

– "قليلًا."

ضغط برفق بإبهامه على حافة عظم وجنتها.

– "انظري لليمين."

فعلت.

– "قليلًا؟"

– "مارست الملاكمة في الجامعة."

– "أكنت جيدًا؟"

أدار رأسها للجانب.

– "انظري لليسار. جيدًا بما يكفي."

– "ماذا يعني ذلك؟"

– "أغمضي عينك."

أصرت:

– "ماذا يعني ذلك؟"

– "أنتِ لا تغمضين عينك."

فعلت، مغلقة كلتيهما، لأنها كلما غمزت بعين واحدة انتهى بها الأمر بعصرها بشدة.

– "ماذا يعني ذلك؟"

لم تستطع رؤيته، لكنها شعرت بتوقفه.

– "هل أخبرك أحد من قبل أنكِ قد تكونين عنيدة قليلًا؟"

– "طوال الوقت. إنه عيبي الوحيد."

سمعت ابتسامته في نبرة أنفاسه.

– "الوحيد، هاه؟"

– "الوحيد الذي يستحق الذكر."

فتحت عينيها.

– "لم تجب على سؤالي."

– "لقد نسيت ما كان."

فتحت فمها لتكراره، ثم أدركت أنه يمازحها، فتجهمت بدلًا من ذلك.

قال:

– "أغمضي عينك مرة أخرى. لم أنتهِ بعد."

وحين أطاعت أمره، أضاف:

– "جيد بما يكفي تعني أني لم أضطر للقتال قط إن لم أرغب في ذلك."

استنتجت:

– "لكنك لم تكن البطل."

– "يمكنك فتح عينك الآن."

فعلت، ثم طرفت حين أدركت قربه الشديد.

تراجع للخلف.

– "لم أكن البطل."

– "لما لا؟"

هز كتفيه.

– "لم أكترث للأمر بما يكفي."

سألته:

– "كيف تبدو؟"

– "عينك؟"

أومأت.

– "لا أظن أن هناك ما يمكن فعله لإيقاف التكدم."

قالت مطلقة تنهيدة محبطة:

– "لم أظن أني ضربت عيني. حين سقطت، ظننت أني ضربت خدي."

لمس عظم وجنتها، حيث ضربت بالضبط، لكنه كان رقيقًا جدًا لدرجة أنها لم تشعر بألم:

– "لا يجب أن تضربي عينك لتتكدم هناك. أرى من وجهك أنك هبطتِ هنا تمامًا، وذلك قريب بما يكفي لانتشار النزيف لمنطقة العين."

أنت.

– "سأبدو كفزاعة لأسابيع."

– "قد لا يستغرق الأمر أسابيع."

قالت مانحة إياه نظرة تخبره أنها تعرف عما تتحدث:

– "لدي إخوة. لقد رأيت عيونًا سوداء. بينديكت أصيب بواحدة لم تتلاشَ تمامًا لشهرين."

سأل فيليب:

– "ماذا حدث له؟"

قالت بتهكم:

– "أخي الآخر."

– "لا داعي للمزيد. كان لدي أخ أنا الآخر."

تمتمت، ولكن كان هناك حب في صوتها وهي تقولها:

– "مخلوقات وحشية، كلهم."

قال وهو يساعدها على الوقوف لتذهب لحوض الغسيل:

– "أخوك على الأرجح لن يستغرق كل هذا الوقت. لكنه قد يفعل."

أومأ فيليب، ثم بمجرد أن بدأت في غسل رائحة اللحم عن بشرتها، قال:

– "نحن بحاجة لإيجاد مُحرم لكِ."

تجمدت.

– "لقد نسيت تمامًا."

ترك عدة ثوانٍ تمر قبل الرد:

– "أنا لم أنسَ."

التقطت منشفة وجففت وجهها برفق.

– "أنا آسفة. إنه خطئي بالطبع. لقد كتبت أنك سترتب لوجود محرم. في عجلتي لمغادرة لندن، نسيت تمامًا أنك ستحتاج وقتًا للترتيبات."

راقبها فيليب عن كثب، متسائلًا إن كانت تدرك أنها زلت وقالت أكثر مما قصدت على الأرجح. كان من الصعب تخيل امرأة مثل إلويز– منفتحة، ومشرقة، وثرثارة للغاية – تملك أسرارًا، لكنها كانت كتومة للغاية بشأن أسباب مجيئها لغلوسترشاير.

قالت إنها تبحث عن زوج، لكنه شك في أن أسبابها تتعلق بما تركته خلفها في لندن بقدر ما تتعلق بما تأمل أن تجده هنا في الريف.

ثم قالت: "في عجلتي".

لمَ غادرت في عجلة؟ ماذا حدث هناك؟

قال وهو يساعدها للعودة لسريرها رغم أنها رغبت بوضوح في فعل ذلك بنفسها:

– "لقد تواصلت بالفعل مع عمتي الكبرى. أرسلت لها رسالة صباح وصولك. لكني أشك أن بإمكانها الوصول هنا قبل الخميس. هي تعيش في

دورست فقط، لكنها ليست من النوع الذي يترك منزله في لمح البصر. سترغب في وقت للحزم، أنا واثق، وفعل كل تلك الأشياء التي تحتاج النساء لفعلها."

ولوح بيده بطريقة مستخفة قليلًا.

أومأت إلويز، وتعابير وجهها جادة.

– "إنها أربعة أيام فقط. ولديك الكثير من الخدم. لسنا وحدنا في كوخ صيد ناءٍ."

– "رغم ذلك، سمعتك قد تتضرر بشدة إن علم الناس بزيارتك."

أطلقت زفرة طويلة، ثم رفعت كتفيها في حركة استسلامية للقدر.

– "حسنًا، ليس هناك الكثير مما يمكنني فعله حيال ذلك الآن."

وأشارت لعينها.

– "لو عدت، مظهري الحالي سيثير تعليقات أكثر من حقيقة مغادرتي في المقام الأول."

أومأ ببطء، مشيرًا لموافقته حتى وعقله يطير في اتجاهات أخرى. هل هناك سبب لعدم اكتراثها بسمعتها؟ لم يمضِ الكثير من الوقت في المجتمع، لكن خبرته تقول إن السيدات غير المتزوجات، بغض النظر عن أعمارهن، دائمًا ما يقلقن بشأن سمعتهن.

هل من الممكن أن سمعة إلويز قد دُمرت قبل وصولها لعتبة بابه؟

والأهم من ذلك، هل يكترث هو؟

قطب جبينه، عاجزًا عن إجابة السؤال الأخير بعد. كان يعرف ما يريده – لا، بل ما يحتاجه – في زوجة، وكان لذلك علاقة قليلة بالطهارة والعفة وكل تلك المثل التي يُفترض بالسيدات الشابات تجسيدها.

كان يحتاج لشخص يتدخل ويجعل حياته سهلة وغير معقدة. شخص يدير منزله ويرعى أطفاله. كان مسرورًا بصراحة لعثوره في إلويز على امرأة يشعر تجاهها برغبة كبيرة أيضًا، لكن حتى لو كانت قبيحة كعجوز شمطاء... حسنًا، كان ليكون سعيدًا بالزواج من عجوز شمطاء ما دامت عملية، وفعالة، وجيدة مع أطفاله.

لكن إن كان كل ذلك صحيحًا، فلماذا يشعر بالانزعاج نوعًا ما من احتمالية أن إلويز كان لها عشيق؟

لا، ليس انزعاجًا بالضبط. لم يستطع تحديد الكلمة الصحيحة لمشاعره. تهيج، كما افترض، بالطريقة التي يتهيج بها المرء من حصاة في حذائه أو حروق شمس خفيفة.

كان ذلك الشعور بأن شيئًا ما ليس صحيحًا تمامًا. ليس خطأً كارثيًا مريعًا، بل مجرد ليس... صحيحًا.

راقبها تسند نفسها على الوسائد.

– "أتريدين مني تركك لراحتك؟"

تنهدت.

– "أفترض ذلك، رغم أني لست متعبة. مكدومة، ربما، لكن لست متعبة. إنها بالكاد الثامنة صباحًا."

نظر لساعة على الرف.

– "التاسعة."

– "ثمانية، تسعة. أيًا كان، لا يزال الصباح."

نظرت بشوق عبر النافذة.

– "وأخيرًا توقف المطر."

سأل:

– "أتفضلين الجلوس في الحديقة؟"

أجابت بوقاحة محببة:

– "أفضل المشي في الحديقة، لكن وركي يؤلمني قليلًا. أفترض أنه يجب علي محاولة الراحة ليوم."

قال بوجوم:

– "أكثر من يوم."

– "على الأرجح أنت محق، لكني أؤكد لك أني لن أستطيع تدبر ذلك."

ابتسم. لم تكن من النوع الذي يختار أبدًا قضاء أيامه جالسًا بهدوء في غرفة رسم، يعمل على التطريز أو الخياطة، أو أيًا كان ما يفترض بالنساء فعله بالإبر والخيط.

نظر إليها وهي تتململ. لم تكن من النوع الذي يختار الجلوس ساكنًا أبدًا، ونقطة على السطر.

سأل:

– "أتريدين أخذ كتاب معك؟"

تغيمت عيناها بخيبة الأمل. كان يعلم أنها توقعت منه مرافقتها للحديقة، والله يعلم أن جزءًا منه أراد ذلك، لكن بطريقة ما شعر أنه مضطر للابتعاد، كإجراء للحفاظ على الذات تقريبًا. كان لا يزال يشعر باختلال التوازن، وعدم ارتياح شديد لاضطراره لضرب الأطفال.

بدا أنهما يفعلان شيئًا يستوجب العقاب كل أسبوعين، ولم يعرف ماذا يفعل غير ذلك. لكنه لم يجد أي متعة في الفعل. كرهه، كرهه تمامًا، شعر وكأنه قد يتقيأ في كل مرة، ومع ذلك ما الذي يفترض به فعله حين يسيئان التصرف لتلك الدرجة؟ الأشياء الصغيرة يحاول تجاهلها، لكن حين ألصقا شعر مربيتهما بملاءات سريرها وهي نائمة، كيف يفترض به تجاهل ذلك؟ أو ماذا عن المرة التي كسرا فيها رفًا كاملًا من الأواني الفخارية في دفيئته؟ ادعيا أنه حادث، لكن فيليب كان يعرف أفضل. والنظرة في عيونهما وهما يحتجان ببراءتهما أخبرته بلمحة أن حتى هما لم يظنا أنه سيصدقهما فعلًا.

وهكذا أدبهما بالطريقة الوحيدة التي يعرفها، رغم أنه تمكن حتى الآن من تجنب استخدام أي شيء غير يده. هذا حين يفعل شيئًا على الإطلاق. نصف الوقت – أكثر من النصف، في الحقيقة – كان يطغى عليه ذكريات تأديب والده له لدرجة أنه يتعثر مبتعدًا، يرتجف ويتصبب عرقًا، مرتعبًا من الطريقة التي تحكه يده لضربهما على مؤخرتيهما.

كان يخشى أنه متساهل للغاية. وربما كان كذلك، بما أن الأطفال لا يبدو عليهم التحسن. أخبر نفسه أنه بحاجة لأن يكون أكثر حزمًا، ومرة واحدة خرج للاسطبلات وأمسك السوط...

ارتعد عند الذكرى. كان ذلك بعد حادثة الغراء، واضطروا لقص شعر الآنسة لوكهارت لتحريرها، وكان غاضبًا جدًا – غاضبًا بشكل لا يصدق وقاهر. صار بصره أحمر، وكل ما أراده هو معاقبتهما، وجعلهما يحسنان التصرف، وتعليمهما كيف يكونان شخصين جيدين، وخطف السوط...

لكنه حرق يديه، وأسقطه رعبًا، خائفًا مما سيصبح عليه لو استخدمه فعلًا.

مرت فعلة الطفلين دون عقاب ليوم كامل. هرب فيليب لدفيئته، يرتجف قرفًا، كارهًا نفسه لما كاد يفعله.

ولما كان عاجزًا عن فعله.

جعل طفليه شخصين أفضل.

لم يعرف كيف يكون أبًا لهما. هذا القدر كان واضحًا. لم يعرف كيف، وربما ببساطة لم يكن مناسبًا للمهمة. ربما يولد بعض الرجال وهم يعرفون ما يقولون وكيف يتصرفون، وبعضهم ببساطة لا يستطيعون القيام بعمل جيد مهما حاولوا جاهدين.

ربما يحتاج المرء لأب جيد ليعرف كيف يكون كذلك.

وهو ما تركه محكومًا عليه بالفشل منذ الولادة.

والآن ها هو ذا، يحاول تعويض نواقصه بـ إلويز بريدجرتون. ربما يستطيع أخيرًا التوقف عن الشعور بالذنب لكونه أبًا سيئًا إن استطاع فقط توفير أم جيدة لهما.

لكن لا شيء يكون أبدًا بالبساطة التي يريدها المرء، وإلويز، في اليوم الوحيد الذي قضته في منزله، تمكنت من قلب حياته رأسًا على عقب. لم يتوقع أبدًا أن يريدها، على الأقل ليس بتلك الكثافة التي يشعر بها كلما اختلس النظر إليها. وحين رآها على الأرض – لمَ كان فكره الأول هو الرعب؟

رعب على سلامتها، وإن كان صادقًا، رعب من أن يكون التوأم قد أقنعاها بالرحيل.

حين ألصقت الآنسة لوكهارت المسكينة بالسرير، كان شعور فيليب الأول هو الغضب من أطفاله. مع إلويز، لم يعرهم سوى التفكير العابر حتى تأكد من أنها لم تصب بأذى خطير.

لم يرد أن يهتم بها، لم يرد أي شيء سوى أم جيدة لأطفاله. والآن لا يعرف ما يفعله حيال ذلك.

وهكذا، ورغم أن صباحًا في الحديقة مع الآنسة بريدجرتون بدا كالجنة، بطريقة ما لم يستطع السماح لنفسه بتلك المتعة تمامًا.

كان بحاجة لبعض الوقت وحده. بحاجة للتفكير. أو بالأحرى، لعدم التفكير، لأن التفكير يتركه غاضبًا ومرتبكًا فقط.

كان بحاجة لدفن يديه في بعض التربة وتقليم بعض النباتات، وعزل نفسه حتى يكف عقله عن الصراخ بكل مشاكله.

كان بحاجة للهرب.

وإن كان جبانًا، فليكن.

الفصل السابع

... لم أشعر قط بملل كالذي أشعره الآن في حياتي كلها. كولن، يجب أن تعود للمنزل.

المكان ممل بشكل لا يطاق بدونك، ولا أظن أني أحتمل مزيدًا من هذا الضجر ولو للحظة واحدة.

أرجوك عد، فقد بدأت بوضوح في تكرار نفسي، ولا شيء يبعث على الضجر أكثر من ذلك.

- من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أخيها كولن،
أثناء موسم ظهورها الخامس،
أُرسلت (لكنها لم تصل قط) بينما كان كولن مسافرًا في الدنمارك

قضت إلويز اليوم بأكمله في الحديقة، مسترخية على أريكة طويلة مريحة للغاية، كانت مقتنعة تمامًا بأنها مستوردة من إيطاليا، إذ علمتها تجربتها أن لا الإنجليز ولا الفرنسيين لديهم أدنى فكرة عن كيفية صنع أثاث مريح.

ليس وكأنها تقضي عادة وقتًا طويلًا تتأمل في صناعة الكراسي والأرائك، ولكن بما أنها عالقة في الخارج وحدها في حديقة رومني هول، لم يكن لديها شيء آخر لتفكر فيه.

لا، ولا شيء. لا شيء البتة للتفكير فيه سوى الأريكة المريحة تحتها، وربما حقيقة أن السير فيليب وحش سيء الخلق لتركها وحدها طوال اليوم بعد أن تسبب وحشاه الصغيران – اللذان لم يرَ مناسبًا، كما أضافت في أفكارها بلمسة درامية، الإفصاح عن وجودهما في مراسلاته – في إسوداد عينها.

كان يومًا مثاليًا، بسماء زرقاء ونسيم عليل، ولم يكن لدى إلويز شيء واحد في العالم لتفكر فيه.

لم تشعر بملل كهذا في حياتها قط.

لم يكن في طبيعتها الجلوس ساكنة ومراقبة السحب تطفو. كانت تفضل كثيرًا الخروج وفعل شيء ما – المشي، تفحص سياج شجيري، أي شيء غير الجلوس كالكتلة الصماء على الأريكة، محدقة بلا هدف في الأفق.

أو إن كان لا بد من الجلوس هنا، فعلى الأقل كان يمكنها فعل ذلك بصحبة شخص آخر. افترضت أن السحب كانت لتكون أكثر إثارة للاهتمام لو لم تكن وحيدة تمامًا، لو كان هناك شخص يمكنها أن تقول له: "يا للسماء، لكن تلك السحابة تشبه الأرنب، ألا تظن ذلك؟".

لكن لا، لقد تُركت وحدها تمامًا. السير فيليب في دفيئته – يمكنها رؤيته من هنا، بل ورؤيته يتحرك من حين لآخر – ورغم أنها أرادت حقًا النهوض والانضمام إليه، ولو لسبب واحد هو أن نباتاته لا بد أن تكون أكثر إثارة للاهتمام من السحب اللعينة، لم تكن لتمنحه رضا السعي خلفه.

ليس بعد أن رفضها بتلك الفظاظة بعد ظهر اليوم. يا للسماء، الرجل فر عمليًا من صحبتها. كان أمرًا غريبًا للغاية. ظنت أنهما يتعاملان معًا بشكل جيد، ثم فجأة أصبح حادًا جدًا، مختلقًا عذرًا ما عن حاجته للعمل وفر من الغرفة وكأنها موبوءة.

رجل بغيض.

التقطت الكتاب الذي اختارته من المكتبة ورفعته بحزم أمام وجهها. ستقرأ هذا الشيء اللعين هذه المرة حتى لو قتلها.

بالطبع، هذا ما قالته لنفسها ﭬ المرات الأربع الأخيرة التي التقطته فيها. لم تنجح قط ﭬ تجاوز جملة واحدة – فقرة إن كانت منضبطة حقًا – قبل أن يشرد ذهنها ويصبح النص على الصفحة غير واضح، وغني عن القول، غير مقروء.

تستحق ذلك، كما افترضت، لكونها منزعجة جدًا من السير فيليب لدرجة عدم الانتباه ﭬ المكتبة والتقاط أول كتاب رأته.

كتاب عن علم نبات السراخس؟ فيم كانت تفكر؟

والأسوأ، لو رآها به، فبالتأكيد سيظن أنها اختارته لرغبتها ﭬ معرفة المزيد عن اهتماماته.

طرفت إلويز بدهشة حين أدركت أنها وصلت لنهاية الصفحة. لم تذكر جملة واحدة، بل وتساءلت إن كانت عيناها انزلقتا فقط على الكلمات دون قراءة الحروف فعليًا.

هذا سخيف. ألقت الكتاب جانبًا ووقفت، آخذة بضع خطوات لاختبار ألم وركها. سامحة لنفسها بابتسامة راضية حين أدركت أن الألم ليس سيئًا على الإطلاق، وفي الحقيقة لا يمكن تسميته سوى انزعاج طفيف، ومشت كل الطريق إلى كتلة شجيرات الورد المتشابكة ﭬ الشمال، منحنية لاستنشاق البراعم.

كانت لا تزال مغلقة بإحكام – لا يزال الوقت مبكرًا ﭬ الموسم، على أية حال – ولكن ربما لها رائحة، و– –

– "ما الذي تفعلينه بحق الشيطان؟"

تمكنت إلويز بالكاد من تجنب السقوط ﭬ شجيرة الورد وهي تستدير.

– "سير فيليب."

قالتها وكأن هويته ليست واضحة تمامًا.

بدا غاضبًا.

– "يُفترض بكِ الجلوس."

– "كنت جالسة."

– "كان يُفترض بكِ البقاء جالسة."

قررت أن الحقيقة ستكون تفسيرًا ممتازًا.

– "شعرت بالملل."

نظر للأريكة في البعيد.

– "ألم تأخذي كتابًا من المكتبة؟"

هزت كتفيها.

– "أنهيته."

رفع حاجبًا في عدم تصديق واضح.

بادلته بنظرة مقوسة الحاجب من جانبها.

قال بفظاظة:

– "حسنًا، تحتاجين للجلوس."

– "أنا بخير تمامًا."

ربتت على وركها برفق.

– "بالكاد يؤلمني الآن."

حدق فيها لبعض الوقت، وتعبير وجهه متهيج، وكأنه يريد قول شيء لكنه لا يعرف ماذا. لا بد أنه غادر الدفيئة في عجلة، لأنه كان متسخًا تمامًا، بالتراب على ذراعيه، وتحت كل ظفر، وملطخًا بسخاء على قميصه. بدا مخيفًا، على الأقل وفق المعايير التي اعتادتها إلويز في لندن، لكن كان هناك شيء جذاب فيه تقريبًا، شيء بدائي وأولي وهو يقف هناك عابسًا في وجهها.

تذمر:

– "لا أستطيع العمل إن كان عليّ القلق بشأنك."

أجابت، ظانة أن الحل واضح جدًا:

– "إذًا لا تعمل."

تمتم، وبدا في رأي إلويز على الأقل كطفل نكد:

– "أنا في منتصف شيء ما."

قالت وهي تتجاوزه في طريقها للدفيئة:

– "إذًا سأرافقك."

حقًا، كيف يتوقع أن يقررا توافقهما إن لم يقضيا أي وقت معًا؟

مد يده ليمسكها، ثم تذكر أن يده مغطاة بالتراب. قال بحدة:

– "آنسة بريدجرتون، لا يمكنكِ..."

قاطعته:

– "ألا تستفيد من المساعدة؟"

قال:

– "لا."

وبنبرة جعلتها عاجزة حقًا عن الاستمرار في الجدال في هذا السياق.

قالت إلويز بصرامة، فاقدة صبرها معه تمامًا:

– "سير فيليب، هل لي أن أسألك سؤالًا؟"

متفاجئًا بوضوح من تحول حديثها المفاجئ، أومأ فقط – مرة واحدة، باقتضاب، بالطريقة التي يحب الرجال فعلها حين ينزعجون ويريدون التظاهر بأنهم مسيطرون.

– "هل أنت الرجل نفسه الذي كنت عليه الليلة الماضية؟"

نظر إليها وكأنها مجنونة.

– "عفوًا؟"

قالت، وهي تقاوم بالكاد الرغبة في عقد ذراعيها أثناء الحديث:

– "الرجل الذي قضيت معه الأمسية الليلة الماضية، الذي شاركته وجبة ثم تجول بي في المنزل والدفيئة، وتحدث معي بالفعل، وفي الواقع، بدا مستمتعًا بصحبتي، مهما بدا ذلك مذهلًا."

لم يفعل شيئًا سوى التحديق فيها لعدة ثوانٍ، ثم تمتم:

– "أنا أستمتع بصحبتك."

سألت:

– "إذًا لماذا كنت أجلس وحدي في الحديقة لثلاث ساعات؟"

– "لم تمر ثلاث ساعات."

– "لا يهم كم المدة..."

قال:

- "خمس وأربعون دقيقة."

- "ليكن ما يكون..."

- "ليكن كما هو."

أعلنت:

- "حسنًا."

قالتها في الغالب لأنها شكت في أنه قد يكون محقًا، مما وضعها في موقف محرج نوعًا ما، و"حسنًا" بدت كل ما يمكن قوله دون إحراج نفسها أكثر.

قال وصوته المقتضب تذكير بأنه في الليلة الماضية فقط كان يناديها إلوين:

- "آنسة بريدجرتون."

وقبلها.

تابع بحدة:

- "كما قد تكونين خمنتِ، حادثة هذا الصباح مع أطفالي تركتني في مزاج عكر. ظننت فقط أن أعفيكِ من صحبتي، بحالتها هذه."

قالت، معجبة نوعًا ما بالنبرة المتعالية في صوتها:

- "أرى ذلك."

- "جيد."

إلا أنها كانت واثقة تمامًا أنها ترى. ترى أنه يكذب، لنكون دقيقين. أوه، أطفاله وضعوه في مزاج عكر، هذا صحيح، لكن كان هناك شيء آخر يعمل أيضًا.

قالت مشيرة للدفيئة بحركة قصدت أن تبدو وكأنها تصرفه:

- "سأتركك لعملك، إذًا."

رمقها بريبة.

- "وماذا تنوين فعله؟"

أجابت:

– "أفترض أني سأكتب بعض الرسائل ثم أذهب للمشي."

زمجر:

– "لن تذهبي للمشي."

فكرت إلويز، تقريبًا وكأنه يهتم لأمري بالفعل.

أجابت:

– "سير فيليب، أؤكد لك أني بخير تمامًا. أنا واثقة أن مظهري أسوأ بكثير من شعوري."

تمتم:

– "من الأفضل أن يكون مظهرك أسوأ من شعورك."

تجهمت إلويز في وجهه. إنها عين سوداء، في النهاية، وبالتالي عيب مؤقت فقط في مظهرها، لكن حقًا، لم يكن بحاجة لتذكيرها بأنها تبدو مفزعة.

أخبرته:

– "سأبقى بعيدة عن طريقك، وهو كل ما يهم حقًا، صحيح؟"

بدأ عرق ينبض في صدغه. وجدت إلويز متعة كبيرة في ذلك.

قالت:

– "اذهب."

وحين لم يفعل، استدارت وبدأت المشي عبر بوابة لجزء آخر من الحديقة.

أمر السير فيليب، مغلقًا المسافة بينهما بخطوة واحدة:

– "توقفي في الحال. لا يمكنكِ الذهاب للمشي."

أرادت إلويز سؤاله إن كان ينوي تقييدها، لكنها لجمت لسانها، خشية أن يوافق فعليًا على الاقتراح.

قالت:

– "سير فيليب، أعجز عن رؤية كيف... أوه!"

متمتمًا بشيء عن النساء الحمقاوات (ومستخدمًا صفة أخرى اعتبرتها إلويز أقل إطراءً بكثير)، حملها السير فيليب بين ذراعيه ومشى بها للأريكة، حيث ألقاها بطريقة غير رسمية بالمرة على الوسادة.

أمر:

- "ابقِ هناك."

تمتمت، محاولة العثور على صوتها بعد عرضه المتعجرف غير المصدق:

- "لا يمكنك..."

- "يا إلهي، أيتها المرأة، يمكنكِ استنفاد صبر قديس."

حدقت فيه بغضب.

سأل بنفاد صبر مرهق:

- "ماذا يتطلب الأمر لإبقائكِ من التحرك من هذه البقعة؟"

أجابت بصدق تام:

- "لا أستطيع التفكير في شيء."

قال، وذقنه يبرز بطريقة عنيدة غاضبة:

- "حسن. تجولي في الريف كله. اسبحي إلى فرنسا."

سألت وشفتاها تختلجان:

- "من غلوسترشاير؟"

قال:

- "إن كان لأحد أن يجد طريقة لفعل ذلك، فسيكون أنتِ. نهارك سعيد، يا آنسة بريدجرتون."

ثم انصرف بخطوات واسعة، تاركًا إلويز حيث كانت تمامًا قبل عشر دقائق.

جالسة على الأريكة، متفاجئة جدًا بمغادرته المفاجئة لدرجة أنها نسيت تمامًا أنها كانت تنوي النهوض والمغادرة.

إن لم يكن فيليب مقتنعًا بالفعل بأنه جعل من نفسه أحمق في وقت سابق من ذلك اليوم، فإن رسالة إلويز القصيرة التي تبلغه بنيتها تناول العشاء في غرفتها ذلك المساء أوضحت الأمر تمامًا.

بالنظر لأنها قضت الظهيرة تشتكي من عدم وجود رفقة، فإن قرارها بقضاء المساء وحدها كان إهانة موجهة، بالفعل.

أكل وحده، في صمت، كما فعل لشهور عديدة. سنوات، في الواقع، بما أن مارينا نادرًا ما غادرت غرفتها لتناول الطعام حين كانت حية. قد يظن المرء أنه اعتاد الأمر، لكنه الآن كان متململًا وغير مرتاح، واعيًا دائمًا بالخدم، الذين علموا جميعًا أن الآنسة بريدجرتون رفضت صحبته.

تذمر لنفسه وهو يمضغ شريحة اللحم. كان يعلم أنه يُفترض تجاهل الخدم وممارسة الحياة اليومية وكأنهم غير موجودين، أو إن وجدوا، فكأنهم فصيلة مختلفة تمامًا. ورغم اضطراره للاعتراف بعدم اهتمامه الكبير بحياتهم خارج رومني هول، بقيت حقيقة أنهم مهتمون بحياته، وكان يمقت كونه موضوعًا للنميمة.

وهو ما سيكون عليه بالتأكيد الليلة، حين يجتمعون للعشاء في الكوة الجانبية للمطبخ.

أخذ قضمة شرسة من لفافته. تمنى لو كان عليهم أكل تلك السمكة اللعينة من سرير أماندا.

شق طريقه عبر السلطة والدواجن والحلوى، رغم أن الحساء واللحم أثبتا كفايتهما تمامًا. لكن كانت هناك دائمًا فرصة أن تغير إلويز رأيها وتنضم إليه للعشاء. لم يبدُ ذلك مرجحًا، نظرًا لعنادها، لكن إن قررت ثني إرادتها، أراد أن يكون حاضرًا حين يحدث ذلك.

وحين اتضح أن هذا ليس سوى تفكير بالتمني من جانبه، فكر في الصعود إليها، لكن حتى هنا في الريف، كان ذلك غير لائق تمامًا، وفضلًا عن ذلك، شك في رغبتها برؤيته.

حسنًا، لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا. ظن أنها تريد رؤيته، لكنها تريده ذليلًا ومعتذرًا. وحتى إن لم ينطق بكلمة واحدة تشبه "أنا" أو "آسف"، فإن مجرد ظهوره سيكون بمثابة إقرار بالخطأ.

وهو ما لن يكون أسوأ شيء في العالم، باعتبار أنه قرر بالفعل استعداده للالتفاف حول قدميها وتوسلها بشفقة لتتزوجه إن وافقت فقط على البقاء وتكون أمًا لأطفاله. هذا، رغم أنه أفسد الأمر تمامًا هذا المساء – والصباح، حقًا، إن أراد المرء الصدق.

لكن الرغبة في التودد لامرأة لا تعني معرفة كيفية القيام بذلك فعليًا.

كان أخوه هو المولود بكل السحر والتألق، يعرف دائمًا ما يقول وكيف يتصرف. لم يكن جورج ليلاحظ حتى أن الخدم يرمقونه وكأنهم سيغتابونه بعد عشر دقائق، والحق يقال، النقطة غير ذات صلة، لأن كل ما كان للخدم قوله كان من قبيل: "السيد جورج شقي حقًا". يقال كل ذلك بابتسامة واحمرار خجل، بالطبع.

فيليب، من ناحية أخرى، كان أهدأ، وأكثر تفكيرًا، وبالتأكيد أقل ملاءمة لدور الأب وسيد القصر. خطط دائمًا لمغادرة رومني هول وعدم النظر للخلف أبدًا، على الأقل ما دام والده حيًا. كان جورج سيتزوج مارينا وينجب نصف دزينة من الأطفال المثاليين، وكان فيليب ليكون العم الفظ وغريب الأطوار قليلًا الذي يعيش في كامبريدج، يقضي كل وقته في دفيئته، يجري تجارب لا يفهمها أحد غيره ولا يهتم بها أحد في الحقيقة.

هكذا كان من المفترض أن تكون الأمور، لكن كل شيء تغير في ساحة معركة في بلجيكا.

فازت إنجلترا بالحرب، لكن ذلك لم يكن عزاءً يذكر لـ فيليب حين جره والده عائدًا لـ غلوسترشاير، مصممًا على قولبته لوريث مناسب. مصممًا على تغييره ليصبح جورج، الذي كان دائمًا المفضل لديه.

ثم مات والده. هناك تمامًا، أمام فيليب مباشرة، توقف قلبه في نوبة غضب صارخة، تفاقمت بالتأكيد بحقيقة أن ابنه صار أضخم من أن يطرحه على ركبته ويضربه بالمجداف.

وأصبح فيليب السير فيليب، بكل حقوق ومسؤوليات البارون.

حقوق ومسؤوليات لم يردها، أبدًا، قط.

أحب أطفاله، أحبهم أكثر من الحياة نفسها، لذا افترض أنه سعيد بالطريقة التي آلت إليها الأمور، لكنه لا يزال يشعر وكأنه يفشل. رومني هول تبلي حسنًا – أدخل فيليب عدة تقنيات زراعية جديدة تعلمها في الجامعة، وبدأت الحقول تدر ربحًا لأول مرة منذ... حسنًا، لم يعرف فيليب منذ متى. بالتأكيد لم تكسب أي مال حين كان والده حيًا.

لكن الحقول مجرد حقول. أطفاله بشر، لحم ودم، وكل يوم يزداد قناعة بأنه يخذلهم. كل يوم يبدو أنه يجلب مشكلة أسوأ (مما أرعبه؛ لم يستطع تخيل ما قد يكون أسوأ من شعر الآنسة لوكهارت الملاصق بالغراء أو عين إلويز السوداء) ولم تكن لديه فكرة عما يفعله.

كلما حاول التحدث معهم، بدا أنه يقول الشيء الخطأ. أو يفعل الشيء الخطأ. أو لا يفعل شيئًا، كل ذلك لأنه خائف جدًا من فقدان أعصابه.

باستثناء تلك المرة الواحدة. العشاء الليلة الماضية مع إلويز وأماندا. لأول مرة في الذاكرة الحديثة، تعامل مع ابنته بشكل صحيح تمامًا. شيء ما في وجود إلويز هدّأه، منحه وضوحًا في التفكير يفتقده عادة حين يتعلق الأمر بأطفاله. كان قادرًا على رؤية الفكاهة في الموقف، حيث لا يرى عادة سوى إحباطه الخاص.

وهو سبب إضافي لضرورة التأكد من بقاء إلويز وزواجها منه. وسبب إضافي لعدم ذهابه إليها الليلة ومحاولة إصلاح الأمور.

لم يمانع الاعتراف بالخطأ. تباً، كان ليأكل سربًا كاملًا من الغربان إن تطلب الأمر ذلك.

فقط لم يرد إفساد الموقف أكثر مما هو عليه بالفعل.

استيقظت إلويز مبكرًا جدًا في صباح اليوم التالي، وهو ليس مفاجئًا، بما أنها زحفت للفراش في الثامنة والنصف فقط الليلة الماضية. ندمت على منفاها الذاتي فور إرسال الملاحظة للسير فيليب لإبلاغه بقرارها تناول العشاء في غرفتها.

كانت منزعجة منه تمامًا في وقت سابق من اليوم، وسمحت لتهيجها بالتحكم في تفكيرها. الحقيقة هي أنها كرهت الأكل وحدها، كرهت الجلوس وحيدة على طاولة ليس لديها ما تفعله سوى التحديق في طعامها وتخمين عدد القضمات اللازمة لإنهاء البطاطس. حتى السير فيليب في أكثر حالاته عنادًا وصمتًا كان ليكون أفضل من لا شيء.

فضلًا عن ذلك، لم تكن مقتنعة بعد بعدم توافقهما، وتناول الطعام منفصلين لن يمنحها أي بصيرة إضافية في شخصيته وطباعه.

قد يكون دبًا – ودبًا نكدًا، في ذلك – لكن حين يبتسم... فهمت إلويز فجأة ما كانت تتحدث عنه كل أولئك الفتيات حين تغنين بابتسامة أخيها كولن (التي وجدتها إلويز عادية جدًا؛ إنه كولن، في النهاية).

لكن حين يبتسم السير فيليب، يتحول. تكتسب عيناه الداكنتان وميضًا شيطانيًا، مليئًا بالفكاهة والمكر، وكأنه يعرف شيئًا لا تعرفه. لكن ليس ذلك ما جعل قلبها يرفرف. إلويز من آل بريدجرتون، في النهاية. رأت الكثير من الومضات الشيطانية وتفخر بكونها محصنة تمامًا ضدها.

حين ينظر إليها السير فيليب ويبتسم، يكون هناك جو من الخجل، وكأنه غير معتاد تمامًا على الابتسام للنساء. وتُترك بشعور أنه رجل، لو تجمعت كل قطع أحجيتهما بالطريقة الصحيحة، قد يعتز بها يومًا ما. حتى لو لم يحبها أبدًا، فسيقدرها ولن يأخذ وجودها كأمر مسلم به.

ولهذا السبب لم تكن إلويز مستعدة بعد لحزم حقائبها والرحيل، رغم سلوكه الخشن نوعًا ما في اليوم السابق.

بمعدة تقرقر، شقت طريقها لغرفة الإفطار، لتُبلغ فقط بأن السير فيليب قد جاء وذهب بالفعل. حاولت إلويز ألا تشعر بالإحباط. لم يعنِ ذلك أنه يحاول تجنبها؛ فمن الممكن تمامًا، في النهاية، أنه افترض أنها لا تستيقظ باكرًا وقرر عدم انتظارها.

لكن حين اختلست النظر لدفيئته ووجدتها فارغة، أعلنت حيرتها وذهبت للبحث عن رفقة أخرى.

أوليفر وأماندا مدينان لها بفترة بعد ظهيرة، أليس كذلك؟ سارت إلويز بحزم صاعدة الدرج. لا يوجد سبب يمنع جعله صباحًا، بدلًا من ذلك.

– "تريدان الذهاب للسباحة؟"

كان أوليفر ينظر إليها وكأنها مجنونة.

– "أريد،" أجابت إلويز بإيماءة. "ألست كذلك؟"

– "لا."

صاحت أماندا، مخرجة لسانها لأخيها حين رمقها بنظرة شرسة:

– "أنا أريد. أنا أحب السباحة، وأوليفر كذلك. إنه فقط غاضب منكِ لدرجة تمنعه من الاعتراف."

قالت مربيتهما، امرأة صارمة المظهر غير محددة العمر:

– "لا أظن أنه يجب عليهما الذهاب."

قالت إلويز بمرح، كارهة المرأة فورًا:

– "هراء."

بدت من النوع الذي يشد الآذان ويضرب الأيدي.

– "الجو دافئ بشكل غير موسمي وقليل من التمرين سيكون صحيًا للغاية."

قالت المربية، وصوتها النزق يظهر انزعاجها من تحدي سلطتها:

– "مع ذلك..."

تابعت إلويز، مستخدمة نبرة الصوت التي تستخدمها والدتها حين يكون واضحًا أنها لن تقبل جدالًا:

– "سأعطيهما دروسًا بينما نقوم بذلك. هما حاليًا بلا مربية تعليمية، أليس كذلك؟"

قالت الممرضة:

– "بالفعل، الوحشان الصغيران ألصقا..."

قاطعتها إلويز، واثقة تمامًا من عدم رغبتها بمعرفة ما فعلاه بمربيتهما الأخيرة:

– "أيًا كان سبب رحيلها، أنا واثقة أنه كان عبئًا وحشيًا عليكِ تولي الدورين في هذه الأسابيع القليلة الماضية."

صححت المربية بحدة:

– "أشهر."

وافقت إلويز:

– "أسوأ. قد يظن المرء أنكِ تستحقين صباحًا حرًا، أليس كذلك؟"

– "حسنًا، لن أمانع رحلة قصيرة للبلدة..."

– "إذًا اتفقنا."

نظرت إلويز للطفلين وسمحت لنفسها بلحظة صغيرة من تهنئة الذات. كانا يحدقان فيها بذهول.

قالت للمربية وهي تدفعها خارج الباب:

– "انطلقي. استمتعي بصباحك."

أغلقت الباب خلف المربية التي لا تزال مذهولة والتفتت لتواجه الطفلين.

قالت أماندا لاهثة:

– "أنتِ ذكية جدًا."

حتى أوليفر لم يستطع إلا الإيماء موافقًا.

قالت أماندا:

– "أنا أكره المربية إدواردز."

قالت إلويز، لكن قلبها لم يكن في العبارة؛ فهي لم تحب المربية إدواردز كثيرًا أيضًا:

– "بالطبع لا."

قال أوليفر:

– "بلى، نفعل. إنها فظيعة."

أومأت أماندا.

– "أتمنى لو نستعيد المربية ميلسبي، لكن كان عليها المغادرة لرعاية أمها. إنها مريضة."

أوضح أوليفر:

– "أمها، وليست المربية ميلسبي."

سألت إلويز:

– "منذ متى والمربية إدواردز هنا؟"

قالت أماندا بكآبة:

– "خمسة أشهر. خمسة أشهر طويلة جدًا."

همت إلويز بقول: "حسنًا، أنا واثقة أنها ليست بهذا السوء"، لكنها أغلقت فمها حين قاطعها أوليفر:

– "أوه، بلى هي كذلك."

لم تكن إلويز لتنتقص من قدر بالغ آخر، خاصة من يفترض به امتلاك سلطة عليهما، لذا قررت تجنب القضية بقولها:

– "لا يهم هذا الصباح، أليس كذلك، لأن لديكما أنا بدلًا منها."

مدت أماندا يدها بخجل وأمسكت يدها.

– "أنا أحبك."

ردت إلويز، متفاجئة بالدموع المتشكلة في زوايا عينيها:

– "وأنا أحبك أيضًا."

لم يقل أوليفر شيئًا. لم تشعر إلويز بالإهانة. يحتاج بعض الناس وقتًا أطول للاعتياد على شخص ما. فضلًا عن ذلك، لهذين الطفلين الحق في الحذر. أمهما تركتهما، في النهاية. صحيح أنه بالموت، لكنهما صغيران؛ كل ما يعرفانه هو أنهما أحباها ورحلت.

تذكرت إلويز جيدًا الأشهر التي تلت وفاة والدها. تشبثت بأمها في كل فرصة، مخبرة نفسها أنه إن أبقتها قريبة فقط (أو الأفضل، ممسكة يدها)، فلن تستطيع أمها الرحيل أيضًا.

هل من العجب أن هذين الطفلين يمقتان مربيتهما الجديدة؟ ربما رعتهم المربية ميلسبي منذ الولادة. فقدانها بعد وقت قصير جدًا من وفاة مارينا لا بد أنه كان صعبًا بشكل مضاعف.

قالت أماندا:

– "آسفة لأننا سودنا عينك."

عصرت إلويز يدها.

– "إنها تبدو أسوأ بكثير مما هي عليه في الواقع."

اعترف أوليفر، ووجهه الصغير يبدأ في إظهار علامات الندم:

– "تبدو مروعة."

وافقت إلويز:

– "نعم، هي كذلك. لكنها بدأت تروق لي. أظن أني أبدو كجندي خاض معركة – وانتصر!"

قال أوليفر، وزاوية فمه تلتوي في تعبير مشكك:

– "لا تبدين وكأنكِ انتصرتِ."

– "هراء. بالطبع أبدو كذلك. أي شخص يعود للمنزل من المعركة يعتبر منتصرًا."

سألت أماندا:

– "هل يعني ذلك أن العم جورج خسر؟"

– "شقيق والدكما؟"

أومأت أماندا.

– "مات قبل أن نولد."

تساءلت إلويز إن كانا يعلمان أن أمهما كانت ستتزوج منه في الأصل. على الأرجح لا.

قالت باحترام هادئ:

– "عمكما كان بطلًا."

قال أوليفر:

– "لكن ليس أبي."

شرحت إلويز:

- "والدكما لم يستطع الذهاب للحرب لأن لديه مسؤوليات كثيرة هنا. لكن هذه محادثة جادة جدًا لصباح جميل كهذا، ألا تظنان ذلك؟ يجب أن نكون في الخارج نسبح ونقضي وقتًا رائعًا."

التقط التوأم حماسها بسرعة، وفي لمح البصر غيرا ملابسهما لملابس السباحة وتوجها عبر الحقول للبحيرة.

صاحت إلويز وهما يقفزان أمامها:

- "يجب أن نتدرب على الحساب!"

ولدهشتها الكبيرة، فعلا ذلك حقًا. من كان يظن أن الستات والثمانيات قد تكون ممتعة لهذه الدرجة؟

الفصل الثامن

... كم أنت محظوظ لكونك في المدرسة. لقد ابتلينا نحن الفتيات بمربية جديدة، وهي البؤس متجسدًا.

تطن فوق رؤوسنا بمسائل الحساب من الفجر حتى الغسق.

هياسينث المسكينة تنفجر باكية كلما سمعت كلمة "سبعة".

(وإن كان علي الاعتراف بأني لا أفهم لَمَ لا تثير الأرقام من واحد لستة ردود فعل مماثلة).

لا أدري ما عسانا أن نفعل. نغمس شعرها في الحبر، كما أفترض.

(شعر الآنسة هافرشام، أعني، وليس هياسينث، وإن كنت لا أستبعد الأخيرة أبدًا).

- من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أخيها غريغوري،
أثناء فصله الدراسي الأول كطالب في إيتون

حين عاد فيليب من حديقة الورود، فوجئ بكون منزله هادئًا وخاويًا. نادرًا ما يمر يوم دون أن ينفجر الجو بصوت طاولة مقلوبة أو صرخة سخط.

الأطفال، فكر وهو يتوقف لتذوق الصمت. بوضوح، تم إخلاؤهم من المبنى. لا بد أن المربية إدواردز أخذتهم في نزهة.

وافترض أن إلويز لا تزال في فراشها، رغم أن الساعة قاربت العاشرة في الحقيقة، ولم تبدُ من النوع الذي يهدر يومه تحت الأغطية.

حدق فيليب في الورود التي بيده. قضى ساعة في اختيار الزهور المناسبة تمامًا؛ تفتخر رومني هول بثلاث حدائق للورود، واضطر للذهاب لأبعدها للعثور على الأصناف المبكرة الإزهار. ثم قطفها بعناء، حريصًا على القص في الموضع الصحيح تمامًا لتشجيع المزيد من الإزهار، ثم أزال كل شوكة بدقة متناهية.

الزهور يمكنه التعامل معها. النباتات الخضراء يمكنه التعامل معها بشكل أفضل، لكن بطريقة ما لم يظن أن إلويز ستجد الكثير من الرومانسية في قبضة من اللبلاب.

تجول نحو غرفة الإفطار، متوقعًا رؤية الطعام مصفوفًا بانتظار وصول إلويز، لكن الخزانة الجانبية كانت مرتبة ونظيفة، معلنة انتهاء وجبة الصباح. قطب فيليب جبينه ووقف في وسط الغرفة للحظة، محاولًا معرفة ما عليه فعله تالياً. بوضوح نهضت إلويز وأكلت إفطارها، لكن ليعلم الشيطان أين هي.

في تلك اللحظة مرت خادمة، تحمل منفضة ريش وخرقة. وانحنت في تحية سريعة حين رأته.

قال رافعًا الزهور:

– "سأحتاج لمزهرية لهذه."

كان يأمل في تسليمها لـ إلويز مباشرة، لكنه لم يرغب في حملها طوال الصباح بينما يطاردها.

أومأت الخادمة وهمت بالمغادرة، لكنه استوقفها قائلًا:

– "أوه، وهل تعلمين بالمصادفة أين ذهبت الآنسة بريدجرتون؟ لاحظت أن الإفطار قد رُفع."

أجابت الخادمة:

– "في الخارج يا سير فيليب. مع الأطفال."

طرف فيليب بعينيه دهشة.

– "خرجت مع أوليفر وأماندا؟ طواعية؟"

أومأت الخادمة.

تنهد محاولًا عدم تخيل المشهد.

– "هذا مثير للاهتمام. آمل ألا يقتلاها."

بدت الخادمة مذعورة.

– "سير فيليب؟"

– "كانت مزحة... آه... ماري؟"

لم يقصد إنهاء جملته بنبرة تساؤل، لكن الحقيقة أنه لم يكن متأكدًا تمامًا من اسمها.

أومأت بطريقة لم يستطع معها التأكد إن كان قد أصاب الاسم أم أنها كانت مهذبة فحسب.

سأل:

– "هل تعلمين بالمصادفة أين ذهبوا؟"

– "للبحيرة، على ما أعتقد. للسباحة."

بردت بشرة فيليب. سأل وصوته يبدو غريبًا ومجوفًا في أذنيه:

– "السباحة؟"

– "نعم. الأطفال كانوا يرتدون ملابس السباحة."

السباحة. يا إلهي.

لعام كامل الآن، تجنب البحيرة، متخذًا دائمًا الطريق الطويل حولها، فقط ليعفي نفسه من رؤيتها. وقد منع الأطفال من زيارة الموقع أبدًا.

أم هل فعل؟

أخبر المربية ميلسبي ألا تسمح لهم بالاقتراب من الماء، لكن هل تذكر فعل المثل مع المربية إدواردز؟

انطلق راكضًا، تاركًا الأرض منثورة بالورود.

صرخ أوليفر، مندفعًا للماء بأقصى سرعة، ليضحك فقط حين وصل لخصره واضطر للإبطاء:

– "آخر واحد يدخل هو سلطعون ناسك!"

صاحت أماندا ردًا عليه وهي ترش الماء في الأعماق الضحلة:

– "لست سلطعونًا ناسكًا. أنت السلطعون الناسك!"

– "أنتِ سلطعون ناسك عفن!"

– "حسنًا، أنت سلطعون ناسك ميت!"

ضحكت إلويز وهي تخوض في الماء على بعد بضعة ياردات من أماندا. لم تحضر ملابس سباحة – حقًا، من كان ليظن أنها قد تحتاج لواحدة؟ – لذا ربطت تنورتها وتنورتها الداخلية لأعلى، كاشفة عن ساقيها حتى ما فوق ركبتيها بقليل. كان قدرًا مريعًا من الساق لتكشفه، لكن ذلك لم يهم كثيرًا في صحبة طفلين في الثامنة.

فضلًا عن ذلك، كانا يستمتعان بتعذيب بعضهما البعض أكثر من اللازم لإلقاء نظرة عابرة حتى على ساقيها.

اعتاد التوأم عليها أثناء مشيهم للبحيرة، يضحكون ويثرثرون طوال الطريق، وتساءلت إلويز إن كان كل ما يحتاجانه حقًا هو قليل من الاهتمام. فقدا أمهما، وعلاقتهما بوالدهما فاترة في أحسن الأحوال، ثم رحلت مربيتهما الحبيبة. الحمد لله أن لديهم بعضهما البعض.

وربما، قد يكون، لديهم هي.

عضت إلويز شفتها، غير واثقة مما إذا كان ينبغي لها السماح لأفكارها بالجنوح في هذا الاتجاه.

لم تقرر بعد ما إذا كانت تريد الزواج من السير فيليب، ومهما بدا هذان الطفلان بحاجة إليها – وهما بحاجة إليها، هي تعلم ذلك فقط – لا يمكنها اتخاذ قرارها بناءً على أوليفر وأماندا.

لن تتزوجهما هما.

نادت، منتبهة لابتعاد أوليفر تدريجيًا:

– "لا تذهب لأعمق من ذلك!"

مطّ وجهه بتعبير الصبيان حين يظنون أنهم يعاملون بتدليل زائد، لكنها لاحظت أنه أخذ خطوتين كبيرتين عائدًا نحو الشاطئ.

قالت أماندا، وهي تجلس في قاع البحيرة ثم تصرخ:

– "عليكِ الدخول أكثر يا آنسة بريدجرتون. أوه! الماء بارد!"

قال أوليفر:

– "لمَ جلستِ إذًا؟ كنتِ تعلمين ببرودته."

أجابت وهي تضم ذراعيها لجسدها:

– "نعم، لكن قدمي اعتادت عليه. لم يعد يبدو باردًا جدًا."

أخبرها بابتسامة متعالية:

– "لا تقلقي، مؤخرتك ستعتاد عليه قريبًا أيضًا."

قالت إلويز بصرامة، لكنها كانت شبه متأكدة من إفساد التأثير بابتسامتها:

– "أوليفر."

هتفت أماندا ملتفتة لـ إلويز بتعبير دهشة:

– "إنه محق! لا أستطيع الشعور بمؤخرتي على الإطلاق بعد الآن."

قالت إلويز:

– "لست واثقة أن هذا شيء جيد."

حثها أوليفر:

– "يجب أن تسبحي. أو على الأقل تذهبي لعمق أماندا. بالكاد بللتِ قدميكِ."

قالت إلويز، رغم أنها شرحت هذا لهما ست مرات على الأقل بالفعل:

– "ليس لدي ملابس سباحة."

قال:

– "أظن أنكِ لا تعرفين السباحة."

ردت عليه:

– "أؤكد لك أني أعرف السباحة جيدًا، وأنك لن تستفزني لاستعراض ذلك وأنا أرتدي ثالث أفضل فساتيني الصباحية."

نظرت إليها أماندا وطرفت بضع مرات.

– "أود رؤية الأول والثاني. هذا فستان جميل جدًا."

قالت إلويز، متسائلة من يختار ملابس الفتاة الصغيرة:

– "أوه، شكرًا لك يا أماندا."

المربية إدواردز النكدة، على الأرجح. لم يكن هناك خطأ فيما ترتديه أماندا، لكن إلويز تراهن أن أحدًا لم يفكر قط في منحها متعة اختيار ملابسها بنفسها. ابتسمت لـ أماندا وقالت:

– "إن رغبتِ في الذهاب للتسوق في وقت ما، سيسعدني أخذكِ."

قالت أماندا لاهثة:

– "أوه، سأعشق ذلك. فوق كل شيء آخر. شكرًا لكِ!"

قال أوليفر باحتقار:

– "فتيات."

علقت إلويز:

– "ستكون ممتنًا لوجودنا يومًا ما."

– "هاه؟"

هزت رأسها بابتسامة فقط. سيمضي بعض الوقت قبل أن يظن أن الفتيات جيدات لأي شيء غير ربط ضفائرهن ببعضها.

هز أوليفر كتفيه وعاد لضرب سطح الماء بكعب يده بالزاوية الصحيحة تمامًا لرش أكبر كمية من الماء على أخته.

صرخت أماندا:

– "توقف!"

قهقه ورش المزيد.

– "أوليفر!"

وقفت أماندا وتقدمت بتهديد نحوه. ثم، حين ثبت أن المشي بطيء جداً، غاصت وبدأت في السباحة. صرخ ضاحكًا وسبح مبتعدًا، طافيًا للهواء فقط بما يكفي لاستفزازها.

زمجرت أماندا، متوقفة للحظة لتطفو في الماء:

– "سأمسك بك!"

نادت إلويز:

– "لا تذهبا بعيدًا جدًا!"

لكن ذلك لم يكن مهمًا حقًا. كان واضحًا أن كلا الطفلين سباح ماهر. إن كانا مثل إلويز وإخوتها، فربما يسبحان منذ سن الرابعة. قضى أطفال بريدجرتون ساعات صيفية لا تحصى يرشون الماء في البركة قرب منزلهم في كنت، وإن كانت السباحة قد تقلصت في الحقيقة بعد وفاة أبيهم. حين كان إدموند بريدجرتون حيًا، قضت العائلة معظم وقتها في الريف، لكن بمجرد رحيله، وجدوا أنفسهم في المدينة أغلب الوقت. لم تعلم إلويز أبدًا إن كان ذلك لأن أمها فضلت المدينة أم ببساطة لأن منزلهم الريفي يحمل ذكريات أكثر مما يحتمل.

عشقت إلويز لندن واستمتعت بالتأكيد بوقتها هناك، لكن الآن وهي هنا في غلوسترشاير، ترش الماء في بركة مع طفلين صاخبين، أدركت كم افتقدت نمط الحياة الريفي.

ليس وكأنها مستعدة للتخلي عن لندن وكل الأصدقاء والتسليات التي تقدمها، لكن مع ذلك، بدأت تفكر أنها ليست بحاجة لقضاء كل هذا الوقت في العاصمة.

لحقت أماندا بأخيها أخيرًا وقذفت نفسها فوقه، متسببة في غوصهما معًا. راقبت إلويز بحذر؛ استطاعت رؤية يد أو قدم تخترق السطح كل بضع ثوانٍ حتى طفوا للهواء، يضحكون ويلهثون ويقسمون على هزيمة بعضهما في ما كان بوضوح حربًا بالغة الأهمية.

نادت إلويز، في الغالب لأنها شعرت بوجوب ذلك:

- "كونا حذرين!"

كان غريبًا أن تجد نفسها في موضع البالغ ذي السلطة؛ مع أبناء إخوتها وأخواتها كانت العمة الممتعة والمتساهلة.

- "أوليفر! لا تشد شعر أختك!"

توقف لكنه انتقل فورًا لياقة ملابس سباحتها، وهو ما لم يكن مريحًا لـ أماندا، وبالفعل، بدأت في السعال والتمتمة.

صرخت إلويز:

- "أوليفر! توقف عن ذلك فورًا!"

فعل، مما فاجأها وسرها، لكن أماندا استغلت الهدنة المؤقتة لتقفز فوقه، دافعة إياه للأسفل بينما تجلس على ظهره.

صرخت إلويز:

- "أماندا!"

تظاهرت أماندا بعدم السمع. أوه، تباً، الآن ستضطر للخوض هناك لوضع حد للأمر بنفسها، وستتبلل تمامًا في العملية.

نادت، محاولة أخيرة لإنقاذ فستانها وكرامتها:

- "أماندا، توقفي عن ذلك في الحال!"

فعلت أماندا، وطفى أوليفر لاهثًا:

- "أماندا كرين، سأقوم بـ..."

قالت إلويز بصرامة:

- "لا، لن تفعل. لن يقوم أي منكما بقتل، أو تشويه، أو مهاجمة، أو حتى عناق الآخر لثلاثين دقيقة على الأقل."

كانا مصدومين بوضوح من أن إلويز ذكرت حتى احتمالية العناق.

طالبت إلويز:

- "حسنًا؟"

صمتا تمامًا، ثم سألت أماندا:

- "إذًا ماذا سنفعل؟"

سؤال جيد. معظم ذكريات إلويز عن السباحة تضمنت النوع نفسه من ألعاب الحرب.

قالت:

– "ربما نجفف أنفسنا ونرتاح قليلًا."

بدا كلاهما مرعوبًا من الاقتراح.

أضافت إلويز:

– "بالتأكيد يجب أن نعمل على الدروس. ربما المزيد من الحساب. لقد وعدت المربية إدواردز بأننا سنفعل شيئًا بناءً بوقتنا."

لقي هذا الاقتراح قبولًا يماثل الأول.

قالت إلويز:

– "حسنًا جدًا. ماذا تقترحان أن نفعل؟"

جاء رد أوليفر المتمتم:

– "لا أعرف."

متبوعًا بهز كتف أماندا.

قالت إلويز، واضعة يديها على وركيها:

– "حسنًا، بالتأكيد لا طائل من الوقوف هنا وفعل لا شيء. بصرف النظر عن حقيقة أن الأمر ممل للغاية، من المرجح أن نتجمـ – – "

– "اخرجوا من البحيرة!"

استدارت إلويز، متفاجئة جدًا بالزئير الغاضب لدرجة أنها انزلقت وسقطت في الماء. تباً وسحقاً، ذهبت نواياها الجافة وفستانها.

شهقت:

– "سير فيليب."

ممتنة لكسرها السقوط بيديها وعدم الهبوط على مؤخرتها. ومع ذلك، مقدمة فستانها تبللت تمامًا.

زمجر فيليب، خائضًا في البحيرة بقوة وسرعة مذهلتين:

– "اخرجوا من الماء."

قالت إلويز، وصوتها ينكسر دهشة وهي تترنح للوقوف:

– "سير فيليب، ماذا..."

لكنه كان قد أمسك بكلا طفليه، ذراعاه ملتفتان حول قفصيهما الصدريين، ويجرهما للشاطئ. راقبت إلويز برعب مفتون وهو يضعهما بعنف على العشب.

صرخ هازًا كل واحد من كتفه:

– "أخبرتكم ألا تقتربوا أبدًا، أبدًا من البحيرة. أنتم تعلمون أنه يفترض بكم الابتعاد. أنتم..."

توقف، مهزوزًا بوضوح من شيء ما، ومن الحاجة لالتقاط أنفاسه.

انتحب أوليفر:

– "لكن ذلك كان العام الماضي.

– "هل سمعتني ألغي الأمر؟"

– "لا، لكني ظننت..."

قاطعه فيليب بحدة:

– "ظننت خطأً. الآن عودا للمنزل. كلكما."

أدرك الطفلان النية الجادة المميتة في عيني والدهما وفرا بسرعة أعلى التل. لم يفعل فيليب شيئًا وهما يغادران، اكتفى بمراقبتهما يركضان، ثم، بمجرد خروجهما من مدى السمع، التفت لـ إلويز بتعبير جعلها تتراجع خطوة للخلف وقال:

– "ماذا بحق الجحيم ظننتِ أنكِ تفعلين؟"

للحظة لم تستطع قول شيء؛ سؤاله بدا سخيفًا لدرجة لا تستوجب ردًا.

قالت أخيرًا، وربما بوقاحة أكثر مما ينبغي:

– "نحظى بقليل من المرح."

قال بحدة:

– "لا أريد أطفالي قرب البحيرة. لقد أوضحت تلك الرغبات..."

– "ليس لي."

- "حسنًا، كان عليكِ..."

سألته مقاطعة قبل أن يتمكن من اتهامها بعدم المسؤولية أو أيًا كان ما سيقوله:

- "كيف كان لي أن أعرف أنك تريدهم بعيدًا عن الماء؟ أخبرت مربيتهم أين ننوي الذهاب، وما ننوي فعله، ولم تبدِ أي إشارة لكون الأمر ممنوعًا."

رأت في وجهه أنه يعلم عدم امتلاكه حجة صحيحة، وذلك يجعله أكثر غضبًا. الرجال.

اليوم الذي يتعلمون فيه الاعتراف بخطأ هو اليوم الذي يصبحون فيه نساءً.

تابعت، وصوتها يكتسب تلك النبرة التي تظهر دائمًا حين تصمم على عدم خسارة جدال – وهو ما يعني لـ إلويز أي جدال عمومًا:

- "إنه يوم حار."

أضافت:

- "كنت أحاول رأب الصدع، بما أني لا أستسيغ فكرة عين سوداء أخرى."

قالتها لجعله يشعر بالذنب، ولا بد أن ذلك نجح، إذ توردت وجنتاه وتمتم بشيء ربما كان تطمينًا تحت أنفاسه.

توقفت إلويز لبضع ثوانٍ لترَ إن كان سيقول المزيد، أو الأفضل، يقول شيئًا بنبرة تقارب الكلام المفهوم، لكن حين اكتفى بالتحديق فيها بغضب، تابعت:

- "ظننت أن فعل شيء ممتع قد يقطع شوطًا طويلًا. والله يعلم،" تمتمت، "أن الأطفال بحاجة لبعض المرح."

سأل وصوته غاضب ومنخفض:

- "ماذا تقولين؟"

قالت بسرعة:

- "لا شيء. فقط أني لم أرَ ضررًا في الذهاب للسباحة."

– "لقد عرضتِهم للخطر."

تلعثمت:

– "خطر؟ من السباحة؟"

لم يقل فيليب شيئًا، اكتفى بالتحديق فيها.

قالت باستخفاف:

– "أوه، بالله عليك. كان ليكون خطرًا فقط لو لم أكن أجيد السباحة."

قال بحدة:

– "لا يهمني إن كنتِ تجيدين السباحة. يهمني فقط أن أطفالي لا يجيدونها."

طرفت بعينيها. عدة مرات.

– "بلى، يجيدونها. في الواقع، كلاهما ماهر جدًا. افترضت أنك علمتهم."

– "عما تتحدثين؟"

مال رأسها قليلًا، ربما قلقًا، وربما فضولًا.

– "ألم تكن تعلم أنهما يجيدان السباحة؟"

للحظة، شعر فيليب وكأنه لا يستطيع التنفس. ضاقت رئتاه ووخز جلده، وبدا جسده يتجمد لتمثال صلب بارد.

كان أمرًا مريعًا.

هو مريع.

بطريقة ما بدت هذه اللحظة تبلور كل إخفاقاته. ليس أن أطفاله يستطيعون السباحة، بل أنه لم يكن يعلم أنهم يستطيعون. كيف لأب ألا يعرف شيئًا كهذا عن أطفاله؟

الأب يجب أن يعرف إن كان أطفاله يستطيعون ركوب الخيل. يجب أن يعرف إن كانوا يستطيعون القراءة والعد للمئة.

وبحق حب الرب، يجب أن يعرف إن كانوا يستطيعون السباحة.

قال، وصوته يخذله بعد كلمة واحدة:

– "أنا..."

تقدمت خطوة وهمست:

– "هل أنت بخير؟"

أومأ، أو على الأقل ظن أنه أومأ. صوتها كان يرن في رأسه – بلى، يجيدونها، بلى، يجيدونها، يجيدونها، يجيدونها – ولم يهم حتى ما كانت تقوله. كانت النبرة. مفاجأة، وربما حتى لمحة احتقار.

وهو لم يكن يعلم.

أطفاله يكبرون ويتغيرون وهو لا يعرفهم. يراهم، يميزهم، لكنه لا يعرف من هم.

شعر بنفسه يشهق للهواء. لا يعرف ألوانهم المفضلة.

وردي؟ أزرق؟ أخضر؟

هل يهم، أم يهم فقط أنه لا يعرف؟

كان، بطريقته الخاصة، أبًا فظيعًا تمامًا كما كان والده. قد يكون توماس كرين قد ضرب أطفاله حتى شارفوا على الموت، لكنه على الأقل عرف ما يفعلونه. فيليب تجاهل وتجنب وتظاهر – أي شيء ليبقي مسافته ويتجنب فقدان أعصابه. أي شيء ليمنع نفسه من التحول لوالده مجددًا.

إلا أن المسافة ربما ليست دائمًا شيئًا جيدًا.

همست إلويز واضعة يدًا على ذراعه:

– "فيليب؟ هل هناك خطب ما؟"

حدق فيها، لكنه لا يزال يشعر بالعمى، وعيناه تعجزان عن التركيز.

قالت ببطء وحذر:

– "أظن أنه يجب عليك العودة للمنزل. لا تبدو بخير."

– "أنا..."

أراد قول "أنا بخير"، لكن الكلمات لم تخرج تمامًا. لأنه لم يكن بخير، ولم يكن جيدًا، وفي هذه الأيام لم يعد متأكدًا حتى مما هو عليه.

عضت إلويز شفتها السفلى، ثم ضمت ذراعيها لصدرها ونظرت للسماء بينما مر ظل فوقها.

تبع فيليب نظرها، وراقب سحابة تنزلق فوق الشمس، مخفضة حرارة الجو عشر درجات على الأقل. نظر لـ إلويز، واحتبس نفسه في حلقه وهي ترتعد.

شعر فيليب ببرد لم يشعره في حياته قط.

قال ممسكًا بذراعها ومحاولًا سحبها أعلى التل:

- "تحتاجين للدخول."

صاحت إلويز، متعثرة خلفه:

- "فيليب! أنا بخير. مجرد قشعريرة خفيفة."

لمس بشرتها.

- "لستِ تشعرين بمجرد قشعريرة، أنتِ تتجمدين بحق الجحيم."

نزع معطفه.

- "ارتدي هذا."

لم تجادل إلويز، لكنها قالت:

- "حقًا، أنا بخير. لا داعي للركض."

خرجت الكلمة الأخيرة مخنوقة جزئيًا وهو يسحبها للأمام، يكاد يقتلعها من مكانها. صاحت:

- "فيليب، توقف. أرجوك، دعني أمشِ فقط."

توقف بسرعة كبيرة لدرجة أنها تعثرت، واستدارت مهسهسة:

- "لن أتحمل مسؤولية تجميدك لنفسك حتى تصابي بالتهاب رئوي."

- "لكننا في مايو."

- "لا يهمني إن كنا في تموز اللعين. لن تبقي في تلك الملابس المبتلة."

ردت إلويز محاولة أن تبدو عقلانية، بما أنه اتضح أن الجدال سيجعله يتشبث برأيه أكثر:

- "بالطبع لا. لكن لا يوجد سبب يمنعني من المشي. عشر دقائق فقط للمنزل. لن أموت."

لم تظن أن الدم يمكن أن يغادر وجه شخص حرفيًا، لكن لم يكن لديها فكرة كيف تصف الشحوب المفاجئ لبشرته غير ذلك.

سألت بقلق متزايد:

– "فيليب؟ ما الخطب؟"

للحظة لم تظن أنه سيجيب، ثم، وكأنه غير واعي لإصداره صوتًا، همس:

– "لا أعرف."

لمست ذراعه ونظرت لوجهه. بدا مشوشًا، مذهولًا تقريبًا، وكأنه أُسقط في مسرحية ولا يعرف سطوره. عيناه مفتوحتان، ومثبتتان عليها، لكنها لم تظن أنه يرى شيئًا، مجرد ذكرى لشيء لا بد أنه كان مريعًا جدًا.

انفطر قلبها لأجله. كانت تعرف الذكريات السيئة، تعرف كيف يمكنها عصر القلب ومطاردة الأحلام حتى يخشى المرء إطفاء الشمعة.

شاهدت إلويز، في السابعة من عمرها، والدها يموت، صرخت وانتحبت وهو يشهق للهواء وينهار أرضًا، ثم ضربت صدره حين عجز عن الكلام، متوسلة إليه أن يستيقظ ويقول شيئًا.

من الواضح الآن أنه كان ميتًا بالفعل في تلك اللحظة، لكن بطريقة ما جعل ذلك الذكرى أسوأ.

لكن إلويز تمكنت من وضع ذلك خلفها. لم تعرف كيف – ربما يرجع الفضل كله لأمها، التي كانت تأتي لجانبها كل ليلة وتمسك يدها وتخبرها أنه لا بأس بالحديث عن أبيها. وأنه لا بأس بافتقاده.

لا تزال إلويز تتذكر، لكن الذكرى لم تعد تطاردها، ولم يراودها كابوس منذ أكثر من عقد.

لكن فيليب... قصته مختلفة. أيًا كان ما حدث له في الماضي، لا يزال معه بقوة.

وعلى عكس إلويز، هو يواجهه وحده.

قالت وهي تلمس خده:

– "فيليب."

لم يتحرك، ولولا أنها شعرت بأنفاسه على أصابعها، لأقسمت أنه تمثال. نادت اسمه مرة أخرى، مقتربة أكثر.

أرادت محو تلك النظرة المحطمة من عينيه؛ أرادت شفاؤه.

أرادت جعله الشخص الذي تعرف أنه هو، في أعماق قلبه.

همست باسمه مرة أخيرة، عارضة عليه التعاطف والتفهم ووعد المساعدة، كل ذلك في كلمة واحدة. أملت أن يسمع؛ أملت أن يصغي.

ثم، ببطء، غطت يده يدها. كانت بشرته دافئة وخشنة، وضغط يدها على خده، وكأنه يحاول كي لمستها في ذاكرته. ثم نقل يدها لفمه وقبل راحتها، بكثافة، بتبجيل تقريبًا، قبل تمريرها لأسفل لصدره.

عبر قلبه النابض.

همست، والسؤال في صوتها رغم معرفتها بنيته:

– "فيليب؟"

وجدت يده الحرة أسفل ظهرها، وجذبها إليه، ببطء ولكن بثبات، بحزم لم تستطع إنكاره.

ثم لمس ذقنها وأمال وجهها لوجهه، متوقفًا فقط ليهمس باسمها قبل أن يأسر فمها في قبلة أعمتها بكثافتها. كان جائعًا، محتاجًا، وقبلها وكأنه سيموت بدونها، وكأنها طعامه، وهواؤه، وجسده وروحه.

كانت نوع القبلات التي لا تنساها امرأة أبدًا، النوع الذي لم تحلم إلويز بإمكانيته.

جذبها أقرب، حتى التصق طول جسدها بجسده. سافرت إحدى يديه أسفل ظهرها لمؤخرتها، محتضنًا إياها، ساحبًا إياها نحوه حتى شهقت من شدة الحميمية.

أنّ، والكلمات تبدو ممزقة من حنجرته:

– "أنا أحتاجكِ."

انزلقت شفتاه عن فمها لخدها، ثم لأسفل عنقها، تداعب وتدغدغ في طريقها.

كانت تذوب. كان يذيبها، حتى لم تعد تعرف من هي أو ماذا تفعل.

كل ما أرادته هو هو. المزيد منه. كله.

إلا أن...

إلا أن ليس هكذا. ليس وهو يستخدمها كنوع من الترياق لشفاء جروحه.

قالت، واجدة القوة بطريقة ما للانسحاب:

– "فيليب. لا يمكننا. ليس هكذا."

للحظة لم تظن أنه سيتركها، لكن فجأة، فعل.

قال وهو يتنفس بصعوبة:

– "أنا آسف."

بدا مذهولًا، ولم تدرِ إن كان ذلك من القبلة أم ببساطة من أحداث الصباح العاصفة.

قالت، مملسة تنوراتها بشكل غريزي، لتجدها مبتلة وغير قابلة للتمليس:

– "لا تعتذر."

لكنها مررت يديها عليها على أية حال، تشعر بالتوتر وعدم الراحة في جسدها. إن لم تتحرك، إن لم تجبر نفسها على نوع من الحركة التي لا معنى لها، خشيت أن تقذف نفسها عائدة لذراعيه.

قال، وصوته لا يزال منخفضًا وأجش:

– "عليكِ العودة للمنزل."

شعرت بعينيها تتسعان دهشة.

– "ألست قادمًا أيضًا؟"

هز رأسه وقال بصوت جامد غريب:

– "لن تتجمدي. نحن في مايو، على أية حال."

– "حسنًا، نعم، ولكن..."

تركت كلماتها تتلاشى، بما أنها لم تعرف حقًا ما تقول. افترضت أنها كانت تأمل أن يقاطعها.

استدارت لتمشي أعلى التل، ثم توقفت حين سمعت صوته، هادئًا وعازمًا خلفها.

- "أحتاج للتفكير."

سألت:

- "في ماذا؟"

ما كان يجب أن تسأل، ما كان يجب أن تتطفل، لكنها لم تكن قادرة يومًا على الاهتمام بشؤونها الخاصة.

هز كتفيه بقلة حيلة.

- "لا أعرف. كل شيء، أفترض."

أومأت إلويز وأكملت طريقها للمنزل.

لكن النظرة الكئيبة في عينيه طاردتها طوال اليوم.

الفصل التاسع

... كلنا نفتقد أبي، لا سيما في هذا الوقت من العام.
لكن فكر كم كنت محظوظًا لتنال ثمانية عشر عامًا معه.
أنا أذكر القليل جدًا، وأتمنى حقًا لو استطاع معرفتي، ورؤية كل ما كبرت لأكون عليه.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أخيها الفيكونت بريدجرتون، بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة والدهما

تعمدت إلويز التأخر عن العشاء ذلك المساء. ليس كثيرًا – فليس من شيمها التلكؤ، خاصة أنها صفة لا تطيقها في الآخرين. لكن بعد أحداث الظهيرة، لم يكن لديها أدنى فكرة عما إذا كان السير فيليب سيحضر للعشاء أصلًا، ولم تحتمل فكرة الانتظار في غرفة الرسم، تحاول عدم فرك أصابعها بينما تتساءل إن كان عليها تناول الطعام وحدها. في السابعة وعشر دقائق بالضبط، قدرت أنه يمكنها الافتراض أنه إن لم يكن بانتظارها، فهو لن ينضم إليها، وعندها يمكنها المضي لغرفة الطعام بمفردها والتصرف وكأنها خططت للأكل وحدها طوال الوقت.

لكن لدهشتها الكبيرة، ولراحتها العظيمة أيضًا إن أرادت الصدق، كان فيليب واقفًا بجوار النافذة حين دخلت غرفة الرسم، مرتديًا ملابس سهرة أنيقة، وإن لم تكن أحدث صيحات الموضة، فهي بوضوح متقنة الصنع ومفصلة بكمال. لاحظت إلويز أن هندامه كان أسود وأبيض بصرامة، وتساءلت إن كان لا يزال في حداد جزئي على مارينا، أو ربما كان ذلك تفضيله الشخصي ببساطة. إخوتها نادرًا ما ارتدوا ألوان الطاووس التي كانت شائعة جدًا بين فئة معينة من المجتمع الراقي، والسير فيليب لم يبدُ من ذلك النوع أيضًا.

وقفت إلويز في المدخل للحظة، تحدق في جانبه، متسائلة إن كان قد رآها حتى. ثم التفت، وهمس باسمها، وعبر الغرفة.

قال، ورغم أن صوته كان متحفظًا، استطاعت رؤية التوسل في عينيه، واستشعار أن غفرانها مطلوب بشدة:

– "آمل أن تقبلي اعتذاري عن ظهيرة اليوم."

قالت بسرعة، وكان ذلك الحقيقة كما افترضت:

– "لا داعي للاعتذار."

كيف لها أن تعرف إن كان عليه الاعتذار وهي لا تفهم حتى ما حدث؟

قال بتردد:

– "بلى، هناك داعٍ. لقد بالغت في رد فعلي. أنا..."

لم تقل شيئًا، اكتفت بمراقبة وجهه وهو ينحنح.

فتح فمه، لكن مرت عدة ثوانٍ قبل أن يقول:

– "مارينا كادت تغرق في تلك البحيرة."

شهقت إلويز، غير مدركة أن يدها طارت لتغطي فمها حتى شعرت بأصابعها على شفتيها.

شرح:

– "لم تكن سباحة ماهرة."

همست:

– "أنا آسفة للغاية."

كيف تسأل دون أن تبدو فضولية بشكل مرضي؟ لم تكن هناك طريقة لتجنب الأمر، ولم تستطع منع نفسها؛ كان عليها أن تعرف.

– "هل كنت... هل كنت هناك؟"

أومأ بوجوم.

– "سحبتها للخارج."

همست إلويز:

– "كم هي محظوظة. لا بد أنها كانت مرعوبة."

لم يقل فيليب شيئًا. لم يومئ حتى.

فكرت في والدها، فكرت في مدى العجز الذي شعرت به حين انهار أرضًا أمامها. حتى كطفلة، كانت من النوع الذي يحتاج لفعل الأشياء. لم تكن يومًا من مراقبي الحياة؛ أرادت دائمًا اتخاذ إجراء، إصلاح الأشياء، إصلاح الناس حتى. وفي المرة الوحيدة التي كان الأمر يهم فيها حقًا، كانت عاجزة.

همست:

– "أنا سعيدة لأنك استطعت إنقاذها. كان ليكون الأمر مريعًا لك لو لم تفعل."

نظر إليها بغرابة، وأدركت مدى غرابة كلماتها، فأضافت:

– "إنه... صعب جدًا... حين يموت شخص، ولا تملك سوى المشاهدة، ولا تستطيع فعل شيء لإيقاف الأمر."

ثم، ولأن اللحظة بدت تستدعي ذلك، وشعرت برابط غريب مع هذا الرجل الواقف بصمت وتيبس أمامها، قالت بنعومة، وربما بقليل من الحزن أيضًا:

– "أنا أعرف."

نظر إليها، والسؤال واضح في عينيه.

قالت ببساطة:

– "أبي."

لم يكن شيئًا شاركته مع الكثيرين؛ في الحقيقة، صديقتها الطيبة بينيلوبي ربما كانت الشخص الوحيد خارج عائلتها المباشرة الذي علم أن إلويز كانت الشاهد الوحيد على وفاة والدها الغريبة والمبكرة.

همس:

– "أنا آسف."

قالت بشجن:

– "نعم. وأنا كذلك."

ثم قال أغرب شيء.

– "لم أكن أعلم أن طفليّ يستطيعان السباحة."

كان الأمر غير متوقع، وغير مترابط تمامًا مع السياق، لدرجة أن كل ما استطاعت فعله هو أن تطرف بعينيها وتقول:

– "عفوًا؟"

مد ذراعه ليقودها لغرفة الطعام. كرر وصوته كئيب:

– "لم أكن أعلم أنهما يستطيعان السباحة. لا أعرف حتى من علمهما."

سألت إلويز برفق:

– "هل يهم؟"

قال بمرارة:

– "بلى، يهم. لأني كان يجب أن أفعل ذلك."

كان من الصعب النظر في وجهه. لم تستطع تذكر رؤية رجل متألم هكذا من قبل، ومع ذلك بطريقة غريبة أدفأ ذلك قلبها. أي شخص يهتم لأطفاله لهذه الدرجة – حتى لو لم يعرف تمامًا كيف يتصرف حولهم – حسنًا، لا بد أنه رجل صالح. علمت إلويز أنها تميل لرؤية العالم بالأبيض والأسود، وأنها تقفز أحيانًا للأحكام لأنها لا تتوقف لتحليل تدرجات الرمادي، لكن من هذا كانت واثقة.

السير فيليب كرين رجل صالح. قد لا يكون مثاليًا، لكنه صالح، وقلبه صادق.

قالت بحيوية، لأن تلك كانت طريقتها، وفضلت التعامل مع المشاكل بالاندفاع للأمام وإصلاحها بدلًا من التوقف للندب:

– "حسنًا، لا يوجد ما يمكن فعله حيال ذلك الآن. لا يمكنهما نسيان ما تعلماه بالفعل."

توقف ونظر إليها.

– "أنتِ محقة بالطبع."

ثم أضاف بصوت أنعم:

– "ولكن بغض النظر عمن قام بالتعليم، كان يجب عليّ معرفة أنهما قادران."

وافقت إلويز معه، لكنه كان بوضوح متضايقًا جدًا، فبدا التوبيخ غير مناسب، ناهيك عن كونه قاسي القلب.

قالت برفق:

– "لا يزال لديك وقت، أتعلم."

قال، ونبرته الساخرة موجهة لنفسه:

– "ماذا؟ لأعلمهما السباحة على الظهر ليوسعا ذخيرتهما؟"

قالت ونبرتها حادة قليلًا، إذ لم تملك يومًا صبرًا كبيرًا للشفقة على الذات:

– "حسنًا، نعم. ولكن أيضًا لتعلم أشياء أخرى عنهما. إنهما طفلان ساحران."

نظر إليها بريبة.

تنحنحت.

– "هما يسيئان التصرف أحيانًا..."

ارتفع أحد حاجبيه.

– "حسنًا جدًا، يسيئان التصرف كثيرًا، ولكن حقًا، كل ما يريدانه هو القليل من الاهتمام منك."

– "أخبراكِ بهذا؟"

قالت مبتسمة لسذاجته:

– "بالطبع لا. إنهما في الثامنة فقط. لن يقولاها بكلمات صريحة هكذا. لكن الأمر واضح تمامًا لي."

وصلا لغرفة الطعام، فأخذت إلويز المقعد الذي سحبه لها خادم. جلس فيليب قبالتها، وضع يده على كأس نبيذه، ثم سحبها. تحركت شفتاه، ولكن قليلًا جدًا، وكأن لديه شيئًا ليقوله لكنه غير واثق من صياغته. أخيرًا، بعد أن أخذت إلويز رشفة من نبيذها، سأل:

– "هل استمتعا بالأمر؟ السباحة، أعني."

ابتسمت.

– "كثيرًا جدًا. يجب أن تأخذهما."

أغمض عينيه وأبقاهما مغلقتين، ليس طويلًا جدًا، لكن أكثر من مجرد طرفة.

– "لا أظن أني سأستطيع."

أومأت. كانت تعرف سطوة الذكريات. اقترحت:

– "ربما مكان آخر. بالتأكيد لا بد من وجود بحيرة أخرى قريبة. أو حتى مجرد بركة."

انتظر حتى التقطت ملعقتها، ثم غمس خاصته في حسائه.

– "تلك فكرة جيدة. أظن..."

توقف وتنحنح.

– "أظن أني أستطيع فعل ذلك. سأفكر أين يمكننا الذهاب."

كان هناك شيء يفطر القلب في تعبير وجهه – عدم اليقين، الضعف. الإدراك أنه حتى وإن لم يكن واثقًا من أنه يفعل الشيء الصحيح، فهو سيحاول فعله على أية حال. شعرت إلويز بقلبها يثب، يفوت دقة حتى، وأرادت مد يدها عبر الطاولة ولمس يده. لكن بالطبع لم تستطع. حتى لو لم تكن الطاولة أطول بقدم من طول ذراعها، لم تكن لتستطيع. لذا في النهاية، اكتفت بالابتسام وأملت أن سلوكها كان مطمئنًا.

أكل فيليب قليلًا من حسائه، ثم ربت على فمه بمنديله وقال:

– "آمل أن تنضمي إلينا."

قالت إلويز مسرورة:

– "بالطبع. كنت سأشعر بالبؤس لو لم أدعَ."

قال بابتسامة ساخرة:

– "أنا واثق تمامًا أنكِ تبالغين، لكن مع ذلك، سنتشرف، ولأكون صادقًا تمامًا، سأشعر بالارتياح لوجودك هناك."

عند تعبيرها الفضولي، أضاف:

– "النزهة ستكون ناجحة بالتأكيد بوجودك."

– "أنا واثقة أنك..."

أوقفها في منتصف الجملة.

– "سنستمتع جميعًا بأنفسنا بشكل أفضل بكثير بصحبتك."

قالها بتأكيد شديد، وقررت إلويز التوقف عن الجدال وقبول الإطراء بكياسة.

كان، في جميع الاحتمالات، محقًا. هو وأطفاله غير معتادين على قضاء الوقت معًا لدرجة أنهم قد يستفيدون من وجود إلويز لتسهيل الأمور.

وجدت إلويز أنها لا تمانع الفكرة قيد أنملة. اقترحت:

– "ربما غدًا، إن استمر الطقس الجيد."

قال فيليب:

– "أظنه سيفعل. الهواء لم يبدُ متقلبًا."

نظرت إلويز إليه وهي ترتشف حساءها، مرق دجاج بقطع خضار احتاج للمسة ملح إضافية.

سألت، وهي واثقة تمامًا من ظهور تشككها على وجهها:

– "هل تتنبأ بالطقس إذًا؟"

كان لديها قريب مقتنع بقدرته على التنبؤ بالطقس، وفي كل مرة استمعت إليه، انتهى بها الأمر مبتلة حتى العظم أو متجمدة الأطراف.

أجاب:

– "إطلاقاً، ولكن يمكن للمرء..."

توقف، ومد عنقه قليلًا.

– "ماذا كان ذلك؟"

أجابت إلويز:

– "ماذا كان ماذا؟"

ولكن بينما غادرت الكلمات شفتيها، سمعت ما سمعه فيليب بالتأكيد. أصوات مجادلة، تعلو ثانية بعد أخرى. وقع أقدام ثقيلة.

تيار قوي من السباب تبعه صرخة رعب لا يمكن أن تكون صدرت إلا من رئيس الخدم...

وحينها عرفت إلويز.

قالت، وقبضتها على ملعقتها ترتخي حتى سال الحساء عائدًا لطبقها:

– "أوه، يا إلهي."

سأل فيليب وهو يقف، مستعدًا بوضوح للدفاع عن منزله ضد الغزو:

– "ما هذا بحق الشيطان؟"

إلا أنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن نوع الغزاة الذين يوشك على مواجهتهم. أي نوع من الغزاة المزعجين، والمتطفلين، والشيطانيين سيضطر لمقابلتهم في، أوه، حوالي عشر ثوانٍ.

لكن إلويز عرفت. وعرفت أن "مزعجين" و"متطفلين" و"شيطانيين" لا تعني شيئًا مقارنة بـ "غاضبين"، و"غير عقلانيين"، و"ضخام الجثة تمامًا" حين يتعلق الأمر بسلامة فيليب الوشيكة.

سأل فيليب، وحاجباه يرتفعان حين سمعا كلاهما شخصًا يزمجر باسمها:

– "إلويز؟"

شعرت بالدم ينسحب من جسدها. شعرت به يقينًا، وعرفت أنه حدث، رغم أنها لم تستطع رؤيته يتجمع حول قدميها. لم تكن هناك طريقة لتنجو من

لحظة كهذه، لا طريقة لتجاوزها دون قتل شخص ما، ويفضل أن يكون شخصًا ترتبط به بقرابة وثيقة.

وقفت، وأصابعها تقبض على الطاولة. الخطوات (التي بدت بصراحة كحشد مسعور) اقتربت.

سأل فيليب، بهدوء شديد بالنسبة لشخص يوشك على مواجهة حتفه:

– "شخص تعرفينه؟"

أومأت، وبطريقة ما تمكنت من عصر الكلمات:

– "إخوتي."

خطر لـ فيليب (وهو مثبت على الحائط بزوجين من الأيدي حول عنقه) أن إلويز كان بإمكانها منحه تحذيرًا أكثر قليلًا.

لم يكن بحاجة لأيام، رغم أن ذلك كان ليكون لطيفًا، وإن كان غير كافٍ ضد القوة الجماعية لأربعة رجال ضخام جدًا، غاضبين جدًا، ومن مظهرهم، ذوي قرابة وثيقة ببعضهم البعض.

إخوة. كان عليه التفكير في ذلك. من الأفضل على الأرجح تجنب التودد لامرأة لديها إخوة.

أربعة منهم، لنكون دقيقين.

أربعة. كان من العجب أنه لم يمت بالفعل.

صرخت إلويز:

– "أنطوني! توقف!"

أنطوني، أو على الأقل افترض فيليب أنه أنطوني – لم يتكبدوا عناء المرور بالتعارفات الضرورية بالضبط – شدد قبضته على عنق فيليب.

توسلت إلويز، محولة انتباهها لأضخمهم:

– "بينديكت، كن عقلانيًا."

الآخر – حسنًا، الآخر الذي يعصر عنقه؛ كان هناك اثنان آخران، لكنهما كانا يقفان فقط يرمقانه بغضب – خفف قبضته قليلًا ليلتفت وينظر لـ إلويز.

وهو ما كان خطأً فادحًا، إذ في عجلتهم لتمزيق كل طرف من جسده، لم ينظر أي منهم إليها طويلًا بما يكفي ليرى أنها تحمل عينًا سوداء بشعة.

والتي سيظنون بالطبع أنه المسؤول عنها.

أطلق بينديكت زمجرة شيطانية وحشر فيليب ضد الجدار بقوة لدرجة أن قدميه ارتفعتا عن الأرض.

رائع، فكر فيليب. الآن سأموت حقًا. العصرة الأولى كانت مجرد غير مريحة، لكن هذه...

صرخت إلويز:

– "توقف!"

رامية نفسها على ظهر بينديكت وشادة شعره. عوى بينديكت ورأسه يرتد للخلف، لكن لسوء الحظ، ظلت قبضة أنطوني الخانقة ثابتة، حتى حين اضطر بينديكت للإفلات لصد إلويز.

التي كانت، كما لاحظ فيليب بأفضل ما يمكنه نظرًا لنقص الأكسجين، تقاتل كغضب ممزوج بجنية نائحة، ممزوجة بـ ميدوسا نفسها. كانت يدها اليمنى لا تزال تشد شعر بينديكت، بينما التفت ذراعها اليسرى حول عنقه، وساعدها مستقر ببراعة تحت ذقنه.

لعن بينديكت وهو يدور محاولًا إزاحة أخته:

– "يا إلهي، ليبعدها أحد عني!"

بشكل غير مفاجئ، لم يهرع أي من آل بريدجرتون الآخرين لنجدته. في الواقع، بدا الواقف عند الجدار في الخلف مستمتعًا بالأمر برمته نوعًا ما.

بدأت رؤية فيليب تلتوي وتسود عند الحواف، لكنه لم يستطع إلا الإعجاب بإصرار إلويز. نادرة هي المرأة التي تعرف كيف تقاتل لتفوز.

ظهر وجه أنطوني فجأة قريبًا جدًا من وجهه. زمجر:

– "هل... ضربتها؟"

وكأني أستطيع الكلام، فكر فيليب بدوار.

صاحت إلويز، صارفة انتباهها لحظيًا عن اقتلاع شعر بينديكت:

– "لا! بالطبع لم يضربني."

نظر أنطوني إليها بتعبير حاد وهي تستأنف لكم بينديكت.

– "ليس هناك 'بالطبع' في الأمر."

أصرت:

– "كان حادثًا. لا علاقة له بالأمر."

ثم، حين لم يبدِ أي من إخوتها إشارة لتصديقها، أضافت:

– "أوه، بالله عليكم. هل تظنون حقًا أني سأدافع عمن ضربني؟"

بدا أن ذلك أدى الغرض، وأفلت أنطوني فجأة فيليب، الذي تهاوى فورًا للأرض، يلهث بحثًا عن النفس.

أربعة منهم. هل أخبرته أن لديها أربعة إخوة؟ بالتأكيد لا. ما كان ليفكر أبدًا في الزواج من امرأة لديها أربعة إخوة. الأحمق فقط من يقيد نفسه بعائلة كهذه.

طالبت إلويز، قافزة عن بينديكت ومسرعة لجانب فيليب:

– "ماذا فعلت له؟"

طالب أحد الإخوة الآخرين:

– "ماذا فعل لكِ؟"

أدرك فيليب أنه هو من لكمه في ذقنه قبل أن يقرر الآخرون خنقه بدلًا من ذلك.

رمقته بنظرة لاذعة.

– "ماذا تفعل هنا؟"

رد عليها:

– "أحمي شرف أختي."

– "وكأني أحتاج لحماية منك. أنت لم تبلغ العشرين حتى!"

آه، فكر فيليب، لا بد أنه من يبدأ اسمه بحرف الغين. غريغ؟ لا، ليس صحيحًا. غافن؟ لا...

قال الصغير بحدة، بكل نزق الأخ الأصغر:

- "أنا في الثالثة والعشرين."

ردت عليه:

- "وأنا في الثامنة والعشرين. لم أحتج لمساعدتك حين كنت ترتدي الحفاضات، ولا أحتاجها الآن."

غريغوري. هذا صحيح. غريغوري. قالت ذلك في إحدى رسائلها. آه، تباً. إن كان يعرف ذلك، فلا بد أنه عرف بشأن سرب الإخوة. لا يلومن إلا نفسه حقًا.

قال الواقف في الزاوية، الوحيد الذي لم يحاول قتل فيليب بعد:

- "أراد المجيء."

قرر فيليب أنه يفضل هذا الأخ أكثر، خاصة حين لف يده حول ساعد غريغوري لمنع الشاب من الانقضاض على إلويز.

وهو ما فكر فيليب، شاعرًا بميل للسخرية هناك على الأرض، أنه لا يزيد عما تستحقه. حفاضات، ياللهول.

قالت إلويز، غير واعية بانشقاق فيليب الذهني:

- "حسنًا، كان عليك منعه. هل لديك أدنى فكرة كم هذا مهين؟"

حدق فيها إخوتها، وبحق في رأي فيليب، وكأنها جنّت.

قال أنطوني بحدة:

- "لقد فقدتِ الحق في الشعور بالإهانة، أو الحرج، أو الغيظ، أو في الحقيقة أي شعور آخر سوى الغباء المطبق حين هربتِ دون كلمة."

بدت إلويز مهدأة قليلًا لكنها تمتمت:

- "ليس وكأني كنت سأستمع لأي شيء لديه ليقوله."

تمتم الذي لا بد أنه كولن:

- "على عكسنا، حيث تكونين مثال الوداعة والطاعة معنا."

قالت إلويز تحت أنفاسها:

- "أوه، بحق حب الرب."

بدت غير أنثوية بشكل فاتن لأذني فيليب اللتين تطنان.

تطنان؟ هل صفع أحدهم أذنيه؟ كان من الصعب التذكر. نسبة أربعة لواحد تميل لتشويش الذاكرة.

زمجر الذي كان فيليب شبه متأكد أنه أنطوني، بإصبع موجه نحو فيليب:

– "أنت، لا تذهب لأي مكان."

وكأن ذلك يستحق التفكير فيه حتى.

وقال لـ إلويز، وصوته أكثر فتكًا، رغم أن فيليب لم يظن ذلك ممكنًا:

– "وأنتِ، ماذا بحق الجحيم ظننتِ أنكِ تفعلين؟"

حاولت إلويز تجنب السؤال بسؤال من عندها:

– "ماذا تفعلون أنتم هنا؟"

ونجحت، لأن أخاها أجابها بالفعل. صرخ:

– "ننقذك من الخراب. بحق حب الرب يا إلويز، هل لديكِ أدنى فكرة عن مدى قلقنا؟"

حاولت المزاح:

– "وأنا التي ظننت أنكم لم تلاحظوا رحيلي حتى."

قال:

– "إلويز. أمي فقدت صوابها."

أعادها ذلك لرشدها في لحظة. همست:

– "أوه، لا. لم أفكر."

أجاب أنطوني بنبرة صارمة، بالضبط كما يتوقع المرء من رجل كان رأس عائلته لعشرين عامًا:

– "لا، لم تفعلي. يجدر بي أن أستخدم السوط معك."

بدأ فيليب في التدخل، لأنه، حقًا، لا يمكنه تأييد الجلد، لكن أنطوني أضاف:

– "أو على الأقل، كمامة."

وقرر فيليب أن الأخ يعرف أخته جيدًا جدًا، بالفعل.

طالب بينديكت:

– "إلى أين تظن نفسك ذاهبًا؟"

وأدرك فيليب أنه لا بد قد بدأ في الوقوف قبل أن يسقط عائدًا لوضعه العاجز على الأرض.

نظر فيليب لـ إلويز.

– "ربما حان وقت التعارف؟"

قالت إلويز وهي تبتلع ريقها:

– "أوه. نعم، بالطبع. هؤلاء إخوتي."

قال وصوته جاف كالغبار:

– "استنتجت ذلك."

رمقته بنظرة اعتذار، وهو ما فكر فيليب أنه أقل ما يمكنها فعله بعد التسبب تقريبًا في تعذيبه وقتله، ثم التفتت لإخوتها وأشارت لكل منهم بالدور قائلة:

– "أنطوني، بينديكت، كولن، غريغوري. هؤلاء الثلاثة، هم الأكبر مني. وهذا،" لوحت باستخفاف لـ غريغوري، "طفل رضيع."

بدا غريغوري على وشك خنقها، وهو ما ناسب فيليب تمامًا، بما أنه حول النوايا القاتلة بعيدًا عنه.

ثم التفتت إلويز أخيرًا لـ فيليب وقالت لإخوتها:

– "السير فيليب كرين، لكنني أتوقع أنكم تعرفون ذلك بالفعل."

قال كولن:

– "تركتِ رسالة في مكتبك."

أغمضت إلويز عينيها بألم. ظن فيليب أنه رأى شفتيها تشكلان الكلمات: غباء، غباء، غباء.

ابتسم كولن بوجوم.

– "يجب أن تكوني أكثر حذرًا في المستقبل، إن قررتِ الهرب مرة أخرى."

ردت إلويز:

– "سأتذكر ذلك."

لكنها كانت تفقد حماسها.

سأل فيليب، موجهًا سؤاله للا أحد بخصوص:

– "هل الوقت مناسب الآن للوقوف؟"

– "لا."

كان من الصعب تمييز أي أخ من آل بريدجرتون تحدث بصوت أعلى.

بقي فيليب على الأرض. لم يمل لاعتبار نفسه جبانًا، وكان، إن جاز له القول، ماهرًا جدًا بقبضتيه، لكن تباً، هناك أربعة منهم.

قد يكون ملاكمًا. لكنه ليس أحمق أو انتحاري.

سأل كولن بهدوء:

– "كيف حصلتِ على تلك العين؟"

توقفت إلويز قبل الإجابة:

– "كان حادثًا."

فكر في كلماتها للحظة.

– "أترغبين في التوسع في ذلك؟"

ابتلعت إلويز ريقها بعدم ارتياح ونظرت للأسفل نحو فيليب، وهو ما تمنى حقًا ألا تفعله. لم يؤدِ ذلك إلا لجعلهم (كما بدأ يفكر في الرباعي) أكثر اقتناعًا بكونه المسؤول عن إصابتها.

سوء فهم لا يمكن أن يؤدي إلا لموته وتقطيع أوصاله. لم يبدوا من النوع الذي يسمح لأحد بمد يد على أخواتهم، ناهيك عن تسويد عين.

قال فيليب بتعب:

– "فقط أخبريهم الحقيقة يا إلويز."

قالت وهي تجفل عند الكلمات:

– "كان طفلاه."

لكن فيليب لم يقلق. رغم اقترابهم من خنقه، لم يبدوا من النوع الذي يؤذي أطفالًا أبرياء. وبالتأكيد لم تكن إلويز لتقول شيئًا لو ظنت أنه قد يضع أوليفر وأماندا في خطر.

سأل أنطوني، رامقًا إياه بتعبير أقل ازدراءً بقليل:

– "لديه أطفال؟"

أنطوني، قرر فيليب، لا بد أن يكون أبًا أيضًا.

أجابت إلويز:

– "اثنان. توأم، في الواقع. صبي وفتاة. في الثامنة."

تمتم أنطوني:

– "تهانيّ."

أجاب فيليب، شاعرًا بالشيخوخة والتعب في تلك اللحظة:

– "شكرًا لك. التعازي ربما تكون أدق."

نظر إليه أنطوني بفضول، يكاد – ولكن ليس تمامًا – يبتسم.

قالت إلويز:

– "لم يكونا متحمسين بشكل خاص لوجودي هنا."

قال أنطوني:

– "أطفال أذكياء."

رمقته بنظرة خالية تمامًا من التسلية.

– "نصبا سلك تعثر. يشبه إلى حد كبير ذلك الذي نصبه كولن،" التفتت لترشقه بنظرة عدائية، "لي في عام 1804."

التوت شفتا كولن في تعبير غير مصدق.

– "تتذكرين التاريخ؟"

علق بينديكت:

– "هي تتذكر كل شيء."

التفتت إلويز لتحدق فيه بغضب.

رغم ألم حلقه، بدأ فيليب يستمتع بالتفاعل حقًا.

عادت إلويز لـ أنطوني، كملكة. قالت ببساطة:

– "سقطت."

– "على عينك؟"

– "على وركي، في الواقع، لكني لم أملك الوقت لكسر حدة سقوطي، وضربت خدي. أتصور أن الكدمة انتشرت لمنطقة العين."

نظر أنطوني لأسفل نحو فيليب بتعبير شرس.

– "هل تقول الحقيقة؟"

أومأ فيليب.

– "بشرف قبر أخي. سيعترف الأطفال بالأمر أيضًا، إن شعرت بالحاجة لاستجوابهم."

قال أنطوني بفظاظة:

– "بالطبع لا. لن أقوم أبدًا بـ..."

تنحنح، ثم أمر:

– "قف."

لكنه خفف نبرته بمد يده لـ فيليب.

أخذها فيليب، وقد قرر بالفعل أن شقيق إلويز سيكون حليفًا أفضل بكثير من كونه عدوًا. رمق ذكور بريدجرتون الأربعة بحذر، مع ذلك، ووقفته دفاعية. ليس لديه فرصة إن قرر الأربعة الهجوم عليه دفعة واحدة، ولم يكن مقتنعًا بأن ذلك لم يعد احتمالًا واردًا.

في نهاية اليوم، سيجد نفسه إما ميتًا أو متزوجًا، ولم يكن مستعدًا تمامًا للسماح لإخوة بريدجرتون بطرح الأمر للتصويت.

ثم، بعد أن أسكت أنطوني إخوته الأربعة الأصغر بمجرد نظرة، التفت لـ فيليب وقال:

– "ربما ينبغي لك إخباري بما حدث."

من طرف عينه، رأى فيليب إلويز تفتح فمها للمقاطعة، ثم تغلقه مرة أخرى، وتجلس على كرسي بتعبير، إن لم يكن وديعًا، فهو على الأقل أكثر وداعة مما توقع رؤيته يعلو وجهها أبدًا.

قرر فيليب أنه بحاجة لتعلم كيفية التحديق مثل أنطوني بريدجرتون. سيجعل أطفاله ينضبطون في لمح البصر.

قال أنطوني بهدوء:

– "لا أظن أن إلويز ستقاطعنا الآن. من فضلك، تابع."

نظر فيليب نحو إلويز. بدت على وشك الانفجار. لكن مع ذلك، لجمت لسانها، وهو ما بدا إنجازًا مذهلًا حقًا، لواحدة مثلها.

سرد فيليب بإيجاز الأحداث التي قادت لوصول إلويز لـ رومني هول. أخبر أنطوني عن الرسائل، بدءًا برسالة عزاء إلويز، وكيف بدءا مراسلة ودية، متوقفًا في قصته فقط حين هز كولن رأسه وتمتم:

– "تساءلت دائمًا عما تكتبه في غرفتها."

وحين نظر إليه فيليب بتساؤل، رفع يديه وأضاف:

– "أصابعها. كانت دائمًا ملطخة بالحبر، ولم أعرف لمَ."

أنهى فيليب حكايته، مختتمًا بـ:

– "وهكذا، كما ترى، كنت أبحث عن زوجة. من نبرة رسائلها، بدت ذكية وعقلانية. أطفالي، كما ستدرك إن بقيت طويلًا بما يكفي لمقابلتهم، يمكن أن يكونوا، إم..." بحث عن أقل صفة مهينة، "مشاغبين."

قالها راضيًا عن اختياره للكلمة.

– "كنت آمل أن تكون تأثيرًا مهدئًا عليهم."

نخر بينديكت:

– "إلويز؟"

واستطاع فيليب الرؤية من تعبيراتهم أن الإخوة الثلاثة الآخرين وافقوا على تقييمه.

وبينما قد يبتسم فيليب لتعليق بينديكت عن تذكر إلويز لكل شيء، وحتى يتفق مع أنطوني بشأن الكمامة، بدأ يتضح أن ذكور بريدجرتون لا يقدرون أختهم التقدير الذي تستحقه.

قال، وصوته يخرج حادًا:

– "أختكم كان لها تأثير رائع على أطفالي. من الأفضل لكم عدم الانتقاص من قدرها في حضوري."

ربما وقع للتو وثيقة إعدامه. هناك أربعة منهم، في النهاية، وليس من مصلحته أن يكون مهيناً. لكن حتى لو اندفعوا عبر نصف البلاد لحماية عفة إلويز، فمستحيل أن يقف هنا ويستمع إليهم ينخرون ويسخرون منها.

ليس إلويز. ليس أمامه.

لكن لدهشته الكبيرة، لم يكن لدى أي منهم رد، وفي الواقع، أنطوني، الذي كان لا يزال بوضوح المسؤول، ثبته بنظرة مستوية، يقيمه وكأنه يقشر الطبقات حتى يرى ما يكمن في لبه.

قال أنطوني بهدوء:

– "لدينا الكثير لنتحدث عنه، أنا وأنت."

أومأ فيليب.

– "أتوقع أنك ستحتاج للتحدث مع أختك أيضًا."

رمقته إلويز بنظرة امتنان. لم يتفاجأ. لم يستطع تخيل تقبلها للاستبعاد من أي قرارات تخص حياتها. تباً، لم تكن من النوع الذي يتقبل الاستبعاد من أي شيء.

قال أنطوني:

– "نعم، سأفعل. في الواقع، أظن أننا سنجري مقابلتنا أولًا، إن لم تمانع."

وكأن فيليب غبي بما يكفي لمجادلة واحد من آل بريدجرتون بينما ثلاثة آخرون يحدقون فيه بغضب.

عرض قائلًا:

– "من فضلك استخدم مكتبي. يمكن لـ إلويز إرشادك للطريق."

كان الشيء الخطأ لقوله. لم يرغب أي من الإخوة في التذكير بأن إلويز كانت مقيمة لفترة كافية لتعرف طريقها.

غادر أنطوني وإلويز الغرفة دون كلمة أخرى، تاركين فيليب وحده مع إخوة بريدجرتون المتبقين.

سأل فيليب، بما أنه شك في أنه سيعلق هنا في غرفة الطعام لبعض الوقت:

- "أتمانعون إن جلست؟"

قال كولن بانشراح:

- "تفضل."

استمر بينديكت وغريغوري في التحديق بغضب فقط.

لاحظ فيليب أن كولن لم يبدُ متحمسًا بشكل خاص لبدء صداقة أيضًا. قد يكون أكثر ودًا بشكل هامشي من أخويه، لكن عينيه أظهرتا دهاءً حادًا ظن فيليب أنه لا ينبغي له الاستهانة به.

قال فيليب مشيرًا للطعام الذي لا يزال على الطاولة:

- "من فضلكم، كلوا."

تجهم بينديكت وغريغوري في وجهه، ورمقاه بنظرات شزر كأنما قدم لهما كأسًا من السم الزعاف، بيد أن كولن جلس قبالته، واكتطف رغيفًا مقرمشًا من الطبق بلامبالاة.

قال فيليب، رغم أن الفرصة لم تسنح له لتناول شيء في تلك الأمسية:

- "إنها شهية جدًا."

تمتم كولن وهو يقضم قضمة:

- "جيدة. أنا أتضور جوعًا."

صاح غريغوري بحدة:

- "كيف يمكنك التفكير في الطعام؟"

أجاب كولن وعيناه تمسحان الطاولة بحثًا عن الزبدة:

- "أنا أفكر في الطعام دومًا. وماذا تبقى غيره؟"

مط بينديكت حروفه بكسل مريب:

- "زوجتك."

قال كولن وهو يومئ برأسه:

- "آه، نعم، زوجتي."

ثم التفت صوب فيليب، وسدد إليه نظرة قاسية كالفولاذ، وقال:

– "فقط لتكون على بينة من الأمر، كنت أوثر قضاء هذه الليلة مع زوجتي."

لم يجد فيليب ردًا لا يشوبه طيف إهانة للسيدة بريدجرتون الغائبة، لذا اكتفى بالإيماء، وشرع يدهن رغيفه بالزبدة.

قضم كولن قضمة هائلة، ثم تحدث وفمه ممتلئ، ضاربًا بقواعد اللياقة وآداب المائدة عرض الحائط في إهانة صريحة لمضيفه:

– "لم يمضِ على زواجنا سوى بضعة أسابيع."

رفع فيليب أحد حاجبيه مستفهمًا.

– "ما زلنا عريسين."

أومأ فيليب، إذ بدا أن المقام يستدعي ردًا ما.

مال كولن بجذعه للأمام وقال:

– "لم أكن أرغب حقًا في مفارقة زوجتي."

همس فيليب، إذ لم يكن بوسعه قول غير ذلك:

– "أفهم ذلك."

تساءل غريغوري بحدة:

– "هل تفهم ما يقوله؟"

التفت كولن ورمق أخاه بنظرة تقشعر لها الأبدان، إذ كان الفتى بوضوح أحدث سنًا وأغر من أن يدرك فن التلميح ودقائق الكلام. انتظر فيليب حتى عاد كولن بوجهه إلى الطاولة، وعرض عليه طبقًا من الهليون – فأخذه – ثم قال:

– "أستنتج أنك تفتقد زوجتك."

ساد الصمت هنيهة، قبل أن يقول كولن بعد أن أرسل نظرة ازدراء أخيرة لأخيه:

– "بالفعل."

نقل فيليب بصره نحو بينديكت، كونه الوحيد الذي لم ينخرط في هذا التلاسن الأخير.

كان ذلك خطأً جسيمًا. كان بينديكت يثني أصابعه ويفرقع مفاصلها، ولا يزال يبدو كمن يندم على عدم خنقه حين سنحت له الفرصة.

ثم حول فيليب نظره إلى غريغوري، الذي كان يعقد ذراعيه بغضب فوق صدره. كان جسده كله يكاد يرتجف من الحنق، ربما الموجه لـ فيليب، أو ربما لعائلته التي عاملته كصبي غر طوال الأمسية. لم تلقَ نظرة فيليب قبولًا؛ إذ برز ذقن غريغوري بتحدٍ، واصطكت أسنانه، و...

طفح الكيل بـ فيليب. عاد بنظره إلى كولن.

كان كولن لا يزال منشغلًا بطعامه، وقد نجح بطريقة ما، وبسحره المعهود، في جعل الخدم يحضرون له وعاءً من الحساء. غير أنه وضع ملعقته جانبًا، وشرع يتفحص يده الأخرى، يثني كل إصبع على حدة ببطء، متمتمًا بكلمة مع كل إصبع يوجهه صوب فيليب:

- "أشتاق. إلى. زوجتي."

انفجر فيليب صائحًا أخيرًا:

- "تبًا لهذا الجحيم! إن كنتم تعتزمون كسر ساقي، فهلّا تفضلتم بفعلها الآن وننتهي؟"

الفصل العاشر

... لن تدركي أبدًا كم أنتِ سيئة الحظ يا عزيزتي بينيلوبي، لامتلاكك أخوات فقط. الإخوة أكثر متعة بكثير.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى بينيلوبي فيذرينغتون،
عقب جولة في منتصف الليل في هايد بارك
مع إخوتها الثلاثة الأكبر

قال أنطوني، جالسًا خلف مكتب فيليب وكأنه يملك المكان:

– "إليكِ خياراتكِ. يمكنكِ الزواج منه في غضون أسبوع، أو يمكنكِ الزواج منه في غضون أسبوعين."

انفرج فم إلويز في شكل بيضاوي مذعور.

– "أنطوني!"

سألها بهدوء:

– "هل توقعتِ مني اقتراح بديل؟ أفترض أنه يمكننا تمديد المهلة لثلاثة أسابيع، لو توفر سبب مقنع بما فيه الكفاية."

كرهت حين يتحدث هكذا، وكأنه العقل والحكمة متجسدين، وهي ليست سوى طفلة متمردة. كان الأمر أفضل بكثير حين يصرخ ويثور. حينها، على الأقل، يمكنها التظاهر بأنه مختل عقليًا وأنها بريئة مسكينة ومظلومة.

تابع:

– "لا أرى سببًا لاعتراضك. ألم تأتِ إلى هنا بنية الزواج منه؟"

– "لا! جئت إلى هنا بنية معرفة ما إذا كان مناسبًا للزواج."

– "وهل هو كذلك؟"

قالت:

– "لا أعرف. مر يومان فقط."

قال أنطوني، متفحصًا أظافره بكسل في ضوء الشموع الخافت:

– "ومع ذلك، هذا وقت أكثر من كافٍ لتدمير سمعتك."

سألته بسرعة:

– "هل يعلم أحد برحيلي؟ خارج العائلة، أعني."

اعترف:

– "ليس بعد، لكن سيعلم أحدهم. دائمًا ما يعلم أحدهم."

قالت إلويز بتجهم:

– "كان من المفترض وجود مُحرم."

سأل، وصوته عادي تمامًا، وكأنه يسأل إن كان من المفترض وجود لحم ضأن للعشاء، أو ربما رحلة صيد مرتبة لتسليته:

– "أكان كذلك؟"

– "إنها قادمة قريبًا."

– "همم. سيء الحظ لها أني وصلت أولًا."

تمتمت إلويز:

– "سيء الحظ للجميع."

سأل:

– "ماذا قلتِ؟"

لكنه استخدم ذلك الصوت المريع مرة أخرى، الصوت الذي يوضح أنه سمع كل كلمة.

قالت إلويز، وخرج اسمه كتوسل، رغم عدم معرفتها بما تتوسل لأجله:

- "أنطوني."

التفت إليها، وعيناه الداكنتان تشتعلان، وقوة نظراته عنيفة لدرجة أنها أدركت حينها فقط أنه كان عليها أن تكون ممتنة لتظاهره بفحص أظافره.

تراجعت خطوة للخلف. أي شخص كان ليفعل في مواجهة أنطوني بريدجرتون في مثل هذا الغضب.

لكن حين تحدث، كان صوته متزنًا ومتحكمًا فيه. قال، وإيقاعه بطيء ودقيق:

- "لقد صنعتِ لنفسكِ سريرًا فوضويًا صغيرًا هنا، وأخشى أن عليكِ النوم فيه."

همست:

- "أتريدني أن أتزوج رجلًا لا أعرفه؟"

رد أنطوني:

- "هل هذه حتى الحقيقة؟ لأنكِ بدوتِ تعرفينه جيدًا جدًا في غرفة الطعام. بالتأكيد قفزتِ للدفاع عنه في كل فرصة ممكنة."

كان أنطوني يحاصرها بالكلام، وكان ذلك يقودها للجنون. أصرت:

- "هذا لا يكفي للزواج. على الأقل ليس بعد."

لكن أنطوني ليس من النوع الذي يتراجع.

- "إن لم يكن الآن، فمتى؟ أسبوع؟ أسبوعان؟"

انفجرت قائلة، راغبة في وضع يديها على أذنيها:

- "توقف! لا أستطيع التفكير."

صحح لها:

- "أنتِ لا تفكرين. لو أخذتِ لحظة واحدة للتفكير، لاستخدام ذلك الجزء الضئيل من دماغك المخصص للمنطق السليم، ما كنتِ لتهربي أبدًا."

عقدت ذراعيها، ناظرة بعيدًا. ليس لديها حجة، وكان ذلك يقتلها.

سأل أنطوني:

– "ماذا ستفعلين يا إلويز؟"

تمتمت، كارهة كم تبدو غبية:

– "لا أعرف."

قال، مستمرًا بذلك الصوت العقلاني المريع:

– "حسنًا، هذا يضعنا في مأزق نوعًا ما، أليس كذلك؟"

سألت، وقبضتاها تنضغطان ضد قفصها الصدري:

– "ألا يمكنك قولها وحسب؟ هل يجب أن تنهي كل شيء بسؤال؟"

ابتسم بلا مرح.

– "وأنا الذي ظننت أنكِ ستقدرين التماسي لرأيك."

– "أنت تتعالى عليّ وتعلم ذلك."

مال للأمام، والرعد في عينيه.

– "هل لديكِ أدنى فكرة عن الجهد الذي يتطلبه كبح جماح غضبي؟"

رأت إلويز أنه من الأفضل عدم التخمين.

قال ناهضًا لقدميه:

– "هربتِ في منتصف الليل، دون كلمة، دون حتى رسالة..."

قاطعته:

– "تركت رسالة!"

نظر إليها بعدم تصديق واضح.

أصرت:

– "فعلت! تركتها على الطاولة الجانبية في الردهة الأمامية. بجوار المزهرية الصينية مباشرة."

– "وتلك الرسالة الغامضة قالت..."

– "قالت ألا تقلقوا، أني بخير وسأتصل بكم جميعًا خلال شهر."

قال أنطوني ساخرًا:

– "آه. كان ذلك ليريح بالي تمامًا."

تمتمت إلويز:

– "لا أعرف لمَ لم تحصلوا عليها. ربما اختلطت بكومة من الدعوات."

تابع أنطوني، متخذًا خطوة نحوها:

– "بقدر ما علمنا، فقد خُطفتِ."

شحبت إلويز. لم تفكر قط أن عائلتها قد تظن شيئًا كهذا. لم يخطر ببالها أن رسالتها قد تضل الطريق.

سأل أنطوني، وصوته جاد كالموت:

– "أتعلمين ما فعلته أمي؟ بعد أن كادت تنهار من القلق؟"

هزت إلويز رأسها، خائفة من الإجابة. تابع أنطوني:

– "ذهبت للبنك. أتعلمين لماذا؟"

سألت إلويز بوهن:

– "ألا يمكنك إخباري وحسب؟"

كرهت الأسئلة.

قال، سائرًا نحوها بطريقة مرعبة:

– "ذهبت هناك للتأكد من أن كل أموالها في الترتيب الصحيح لتتمكن من سحبها إن احتاجت لدفع فدية لكِ."

انكمشت إلويز أمام الغضب في صوت أخيها الأكبر. تركت رسالة، أرادت القول مرة أخرى، لكنها علمت أنها ستخرج بطريقة خاطئة. كانت مخطئة، وكانت حمقاء، ولم ترد مضاعفة غبائها بمحاولة تبريره.

قال أنطوني:

– "بينيلوبي كانت من اكتشف أخيرًا ما فعلتِه. طلبنا منها تفتيش غرفتك، بما أنها قضت وقتًا هناك أكثر من أي منا."

أومأت إلويز. بينيلوبي كانت صديقتها الأقرب – ولا تزال، في الواقع، حتى وإن تزوجت كولن. قضتا ساعات لا تحصى في غرفتها، تتحدثان عن أي شيء وكل شيء. رسائل فيليب كانت السر الوحيد الذي أخفته إلويز عنها يومًا.

سألت إلويز، ليس لأن الأمر يهم، لكنها لم تستطع كبح فضولها:

– "أين وجدت الرسالة؟"

عقد أنطوني ذراعيه.

– "كانت قد سقطت خلف مكتبك. مع زهرة مضغوطة."

بطريقة ما بدا ذلك مناسبًا. همست:

– "إنه عالم نبات."

– "عفوًا؟"

قالت بصوت أعلى هذه المرة:

– "عالم نبات. السير فيليب. نال المرتبة الأولى في كامبريدج. كان ليصبح أكاديميًا لولا وفاة أخيه في ووترلو."

أومأ أنطوني، مستوعبًا الحقيقة.

– "إن أخبرتِني أنه رجل قاسٍ، أنه سيضربك، أنه سيهينك ويحط من قدرك، فلن أجبرك. ولكن قبل أن تتحدثي، أريدك أن تفكري في كلماتي. أنتِ من آل بريدجرتون. لا يهمني من تتزوجين أو ماذا يصبح اسمك حين تقفين أمام كاهن وتتلوين نذورك. ستظلين دائمًا من آل بريدجرتون، ونحن نتصرف بشرف وصدق، ليس لأن ذلك متوقع منا، بل لأن هذا ما نحن عليه."

أومأت إلويز، تبتلع ريقها وهي تحارب الدموع التي تلسع عينيها.

قال:

– "لذا سأسألك الآن. هل هناك أي سبب يمنعك من الزواج بالسير فيليب كرين؟"

همست:

– "لا."

لم تتردد حتى. لم تكن مستعدة لهذا، لم تكن مستعدة للزواج بعد، لكنها لن تلوث الحقيقة بالتردد في إجابتها.

– "توقعت ذلك."

وقفت ساكنة، منكمشة تقريبًا، غير واثقة مما تفعله أو تقوله تالياً.

استدارت، مدركة أن أنطوني لا بد يعلم أنها تبكي، لكنها لم ترغب في أن يرى دموعها مع ذلك. قالت، مختنقة بالكلمات:

– "سأتزوجه. كل ما في الأمر أني... كنت أريد..."

لزم الصمت للحظة، محترمًا ضيقها، لكن حين لم تتابع، سأل:

– "ماذا أردتِ يا إلويز؟"

قالت بصوت خافت بالكاد سمعته هي نفسها:

– "أملت في زواج عن حب."

قال، وسمعه ممتاز كالعادة:

– "أفهم. كان يجب أن تفكري في ذلك قبل الهرب، أليس كذلك؟"

كرهته في تلك اللحظة.

– "أنت تزوجت عن حب. يجب أن تفهم."

قال، ونبرة صوته تشي بأنه لم يستسغ محاولتها تحويل دفة الحديث نحوه:

– "تزوجت زوجتي بعد أن ضُبطنا في موقف مريب من قبل أكبر ثرثارة في إنجلترا."

زفرت إلويز نفسًا طويلًا، وشعرت بالحمق. لقد مرت سنوات طوال منذ زواج أنطوني. لقد نسيت الظروف المحيطة بالأمر.

تابع قائلًا:

– "لم أكن أحب زوجتي يوم عقدت قراني عليها، أو..."

أضاف، وقد اكتسى صوته بنعومة أكبر، مشوبة بشيء من الخشونة والحنين:

– "... لعلي أحببتها، بيد أني لم أكن قد أدركت ذلك بعد."

أومأت إلويز.

– "كنت محظوظًا للغاية."

قالتها وهي تتمنى لو تدرك إن كان الحظ سيحالفها مع فيليب بالمثل.

وعندها فاجأها أنطوني؛ إذ لم يوبخ، ولم يؤنب. كل ما قاله هو:

– "أعرف."

همست:

– "شعرت بالضياع. حين تزوجت بينيلوبي وكولن..."

تهالكت على كرسي، تاركة رأسها يسقط بين يديها.

– "أنا إنسانة مريعة. لا بد أني إنسانة مريعة، بغيضة وسطحية، لأني حين تزوجا، لم أفكر في شيء سوى نفسي."

تنهد أنطوني، وجثا بجوارها.

– "لستِ إنسانة مريعة يا إلويز. أنتِ تعلمين ذلك."

رفعت نظرها إليه، متسائلة متى أصبح هذا الرجل، شقيقها، حكيمًا هكذا؟ لو أنه صرخ بكلمة أخرى، أو أمضى دقيقة أخرى يخاطبها بتلك النبرة الساخرة، لانهارت. كانت لتنهار، أو لتتحجر مشاعرها، وفي كلتا الحالتين، كان شيء ما بينهما لينكسر للأبد.

ولكن ها هو ذا، أنطوني بجمهوره، المتغطرس الفخور، النبيل الأرستقراطي في كل إنش منه، يجثو بجوارها، ويضع يده على يدها، ويتحدث برفق كاد يخلع قلبها من مكانه.

قالت:

– "كنت سعيدة لأجلهما. أنا سعيدة لأجلهما."

– "أعرف أنكِ كذلك."

– "كان يجدر بي ألا أشعر بشيء سوى الفرح."

– "لو فعلتِ، لما كنتِ بشرًا."

– "بينيلوبي أصبحت أختي. كان يجدر بي أن أكون سعيدة."

– "ألم تقولي إنكِ كذلك؟"

أومأت.

– "بلى، أنا كذلك. أنا كذلك. أعلم أني كذلك. لست أقولها مجرد قول."

ابتسم بود وانتظرها لتكمل.

– "كل ما في الأمر أني شعرت فجأة بوحدة قاتلة، وبأني قد هرمت."
نظرت إليه، متسائلة إن كان بإمكانه الفهم.
– "لم أظن يومًا أني سأُترك في الخلف."
قهقه.
– "إلويز بريدجرتون، لا أظن أن أحدًا قد يرتكب خطأ نسيانك في الخلف."
شعرت بشفتيها تتقوسان في ابتسامة مرتجفة، مذهولة من أن أخاها، من بين كل الناس، استطاع قول الشيء الصحيح تمامًا.
قالت:
– "أفترض أني لم أفكر حقًا بأني سأبقى عانسًا للأبد. أو، إن حدث ذلك، فعلى الأقل ستبقى بينيلوبي عانسًا معي أيضًا. لم يكن تفكيرًا طيبًا مني، ولا أظن أني فكرت في الأمر كثيرًا حتى، ولكن..."
قال، مسديًا إليها معروف إنهاء الفكرة:
– "ولكن هكذا جرت الأمور. لا أظن أن بينيلوبي نفسها ظنت أنها ستتزوج يومًا. ولأكون صادقًا، أشك أن كولن ظن ذلك أيضًا. الحب قد يتسلل إلى المرء خلسة، أتعلمين."
أومأت، متسائلة إن كان الحب سيتسلل إليها. على الأرجح لا. هي من النوع الذي يحتاج لأن يُضرب بالحب على رأسه ليدركه.
قالت إلويز:
– "أنا سعيدة لأنهما تزوجا."
– "أعرف. وأنا كذلك."
قالت وهي تشير صوب الباب، رغم أنه كان في الواقع أسفل الردهة وحول منعطفين في غرفة الطعام:
– "السير فيليب. كنا نتراسل لما يربو على العام. ثم ذكر الزواج. وفعل ذلك بطريقة عقلانية للغاية. لم يطلب يدي صراحة، بل استفسر إن كنت أرغب في الزيارة، لنرى إن كنا سنتوافق. قلت لنفسي إنه مجنون، وأني لا أستطيع حتى التفكير في عرض كهذا. من تتزوج رجلًا لا تعرفه؟"

أطلقت ضحكة صغيرة مهتزة.

– "ثم أعلن كولن وبينيلوبي خطبتهما. كان الأمر وكأن عالمي كله انقلب رأسًا على عقب. وحينها بدأت التفكير في الأمر. كلما نظرت إلى مكتبي، إلى الدرج حيث أحتفظ برسائله، كان الأمر وكأنها تحرق الخشب من تحتها."

لم يقل أنطوني شيئًا، اكتفى بالضغط على يدها، وكأنه يفهم.

– "كان عليّ فعل شيء ما. لم أستطع الجلوس وانتظار أن تحدث الحياة لي بعد الآن."

انفجرت ضحكة من حنجرة أخيها.

– "إلويز، هذا آخر شيء قد أقلق بشأنه نيابة عنك."

– "أنتو – – "

قال:

– "لا، دعيني أكمل. أنتِ واحدة من المميزين يا إلويز. الحياة لا تحدث لكِ. ثقي بي في هذا. لقد راقبتك تكبرين، واضطررت لأكون والدك في أوقات لم أرد فيها سوى أن أكون أخاك."

انفرجت شفتاها بينما اعتصر شيء قلبها. كان محقًا. لقد كان أبًا لها. دور لم يرغب فيه أي منهما له، لكنه قام به لسنوات، دون شكوى.

وهذه المرة ضغطت هي على يده، ليس لأنها تحبه، بل لأنها أدركت الآن فقط كم تحبه بعمق.

قال أنطوني:

– "أنتِ من تصنعين الحياة يا إلويز. لطالما اتخذت قراراتك بنفسك، ولطالما كنتِ ممسكة بالزمام. قد لا تشعرين بذلك دائمًا، لكنها الحقيقة."

أغمضت عينيها للحظة، هازة رأسها وهي تقول:

– "حسنًا، كنت أحاول اتخاذ قراراتي بنفسي حين جئت إلى هنا. بدت خطة جيدة."

قال أنطوني بهدوء:

– "وربما ستجدين أنها كانت خطة جيدة بالفعل. السير فيليب يبدو رجلًا شريفًا."

لم تستطع إلويز إخفاء تعبيرها النزق.

– "تمكنت من استنتاج ذلك ويداك ملتفتان حول عنقه؟"

رمقها بنظرة فوقية.

– "ستندهشين مما يمكن للرجال استنتاجه عن بعضهم البعض أثناء القتال."

– "تسمي ذلك قتالًا؟ كان أربعة ضد واحد!"

هز كتفيه.

– "لم أقل قط إنه قتال عادل."

– "أنت لا يُصلح حالك."

– "صفة مثيرة للاهتمام بالنظر إلى أنشطتك الأخيرة."

شعرت إلويز بوجنتيها تتوردان.

قال أنطوني، ونبرته الحازمة تعلن تغيير الموضوع:

– "حسنًا جدًا. إليكِ ما سنفعله."

وعرفت إلويز أن ما سيقوله هو ما ستفعله. كان صوته حازمًا لتلك الدرجة.

– "ستحزمين أمتعتك فورًا، وسنسافر جميعًا إلى «كوخي» ونبقى هناك لأسبوع."

أومأت إلويز. «كوخي» (My Cottage) كان الاسم الغريب نوعًا ما لمنزل بينديكت، الواقع على مسافة ليست ببعيدة من رومني هول في ويلتشير. يعيش هناك مع زوجته صوفي وأبنائهما الثلاثة. لم يكن منزلًا كبيرًا بشكل خاص، لكنه مريح، وبالتأكيد هناك متسع لبضعة أفراد إضافيين من آل بريدجرتون.

تابع أنطوني:

– "سيركِ فيليب هذا، يمكنه الزيارة كل يوم."

وفهمت إلويز كلماته تمامًا على أنها تعني: سيركِ فيليب هذا، سيزور كل يوم.

أومأت مرة أخرى.

– "إذا قررت، بنهاية الأسبوع، أنه جيد بما يكفي ليتزوج أختي، فستتزوجينه. فورًا."

– "أأنت واثق من قدرتك على الحكم على معدن رجل في أسبوع واحد؟"

صرح أنطوني:

– "نادرًا ما يستغرق الأمر أطول من ذلك. وإن لم أكن واثقًا، فسننتظر أسبوعًا آخر فحسب."

شعرت إلويز بأنها مضطرة للإشارة:

– "السير فيليب قد لا يرغب في الزواج مني."

سدد أنطوني نظرة صارمة لوجهها.

– "لا يملك ذلك الخيار."

ابتلعت إلويز ريقها.

ارتفع أحد حاجبي أنطوني في قوس متغطرس.

– "هل فهمنا بعضنا البعض؟"

أومأت. بدت خطته معقولة – أكثر معقولية، في الواقع، مما كان ليسمح به معظم الإخوة الأكبر – وإن ساءت الأمور بشكل مريع، وإن قررت أنها يستحيل أن تتزوج السير فيليب كرين، حسنًا إذًا، لديها أسبوع لتدبر طريقة للخلاص. الكثير يمكن أن يحدث في أسبوع.

انظروا فقط للأسبوع الماضي.

سأل أنطوني:

– "هل نعود لغرفة الطعام؟ أتصور أنكِ جائعة، وإن تلكأنا أكثر من ذلك، فمن المؤكد أن كولن سيأكل كل ما في بيت مضيفنا."

أومأت إلويز.

– "إما ذلك، أو أنهم قتلوه بحلول الآن."

توقف أنطوني ليفكر في ذلك.

– "سيوفر عليّ ذلك نفقات الزفاف."

– "أنطوني!"

قال هازًا رأسه بتعب:

– "إنها مزحة يا إلويز. هيا بنا الآن. لنتأكد من أن سيركِ فيليب لا يزال يقيم في عداد الأحياء."

كان بينديكت يقول بينما أنطوني وإلويز يدخلان غرفة الطعام مرة أخرى:

– "وبعد ذلك، وصلت نادلة الحانة وكانت تملك أضخم..."

صاحت إلويز:

– "بينديكت!"

نظر بينديكت لأخته بتعبير مذنب للغاية، وسحب يديه اللتين كانتا تستعرضان حجم ما كان بوضوح مفاتن أنثوية مستحيلة الضخامة، وتمتم:

– "آسف."

وبخته إلويز:

– "أنت متزوج."

قال كولن بابتسامة عريضة:

– "لكنه ليس أعمى."

اتهمته:

– "أنت متزوج أيضًا!"

قال مرة أخرى:

– "لكن لست أعمى."

قال غريغوري بما كان على الأرجح أكثر نبرة تعالٍ مثيرة للحنق سمعتها إلويز قط:

– "إلويز، هناك أشياء يستحيل عدم رؤيتها. خاصة حين تكون رجلًا."

اعترف أنطوني:

– "هذا صحيح. رأيتها بنفسي."

شهقت إلويز وهي تنظر من أخ لآخر، باحثة عن بقعة عاقلة في مستنقع الجنون هذا. وقعت عيناها على فيليب، الذي بدا من مظهره، ناهيك عن حالته المترنحة قليلًا بفعل الشراب، وكأنه شكل رابطة أخوة أبدية مع إخوتها خلال الوقت القصير الذي حُبست فيه مع أنطوني.

سألت، منتظرة منه قول شيء مقبول:

– "سير فيليب؟"

لكنه منحها مجرد ابتسامة بلهاء.

– "أعرف عمن يتحدثون. ذهبت لذلك النزل مرات عديدة. لوسي مشهورة جدًا في هذه النواحي."

قال بينديكت بإيماءة العارف:

– "حتى أنا سمعت بها. أنا أبعد بساعة واحدة فقط على ظهر الخيل. أقل، إن أسرعت."

مال غريغوري نحو فيليب، وعيناه الزرقاوان تلمعان اهتمامًا وهو يسأل:

– "إذًا، هل فعلت؟ أبدًا؟"

كادت إلويز تصرخ:

– "غريغوري!"

هذا كثير حقًا. ما كان ينبغي لإخوتها الحديث عن أمور كهذه أمامها أبدًا، والأكثر من ذلك، آخر ما أرادت معرفته هو ما إذا كان السير فيليب قد ضاجع نادلة حانة تملك صدرًا بحجم أواني الحساء.

لكن فيليب هز رأسه فقط.

– "إنها متزوجة. وكذلك كنت أنا."

التفت أنطوني لـ إلويز وهمس في أذنها:

– "إنه مناسب."

تمتمت:

– "أنا سعيدة لامتلاكك معايير عالية جدًا لأختك الحبيبة."

علق أنطوني:

– "أخبرتك، لقد رأيت لوسي. هذا رجل يملك ضبط النفس."

وضعت يديها على وركيها ونظرت لأخيها الأكبر مباشرة في عينيه.

– "هل أُغويت أنت؟"

– "بالطبع لا! كيت كانت لتنحر عنقي."

– "لست أتحدث عما كانت كيت لتفعله بك إن زغت، رغم أني أميل للاعتقاد بأنها لن تبدأ بعنقك..."

جفل أنطوني. كان يعلم أن ذلك صحيح.

– "... أريد أن أعرف إن كنت قد شعرت بالإغراء."

اعترف هازًا رأسه:

– "لا. لكن لا تخبري أحدًا. اعتدت أن أُعتبر فاسقًا نوعًا ما، في النهاية. لا أريد أن يظن الناس أني دُجنت تمامًا."

– "أنت مريع."

ابتسم ابتسامة عريضة.

– "ومع ذلك، زوجتي لا تزال تحبني بجنون، وهذا كل ما يهم حقًا، أليس كذلك؟"

افترضت إلويز أنه محق. تنهدت.

– "ماذا سنفعل بشأنهم؟"

أشارت للرباعي الجالس حول طاولة غرفة الطعام، المنثورة بالأطباق الفارغة. فيليب، وبينديكت، وغريغوري كانوا يرجعون بظهورهم مسترخين، وبدوا شبعى تمامًا. كولن كان لا يزال يأكل.

هز أنطوني كتفيه.

– "لا أعرف ما تريدين فعله، لكني سأنضم إليهم."

وقفت إلويز في المدخل فقط، تراقب جلوسه وسكبه لنفسه كأسًا من النبيذ. انتقل الحديث لحسن الحظ من لوسي ومفاتنها الهائلة، والآن يتحدثون

عن الملاكمة. أو على الأقل هذا ما افترضت أنهم يتحدثون عنه. كان فيليب يستعرض نوعًا من حركات اليد لـ غريغوري. ثم عاجله بلكمة في وجهه.

قال فيليب، مربتًا على ظهر غريغوري:

– "آسف للغاية. لن تؤلم طويلًا، أنا واثق. ذقني بدأ يشعر بتحسن بالفعل."

نخر غريغوري بشيء قصد به بوضوح أنها لا تؤلم، لكنه فرك ذقنه مع ذلك.

قالت إلويز بصوت عالٍ:

– "سير فيليب؟ هل لي بكلمة؟"

قال ناهضًا فورًا:

– "بالطبع."

رغم أنه في الحقيقة، كان يجب على كل الرجال الوقوف، بما أنها لم تغادر موقعها في المدخل قط.

مشى فيليب لجانبها.

– "هل هناك خطب ما؟"

هسهست:

– "كنت قلقة من أنهم سيقتلونك."

– "أوه."

ابتسم، تلك الابتسامة المائلة التي يسببها شرب ثلاثة كؤوس من النبيذ.

– "لم يفعلوا."

قالت بحدة:

– "أرى ذلك. ماذا حدث؟"

نظر عائدًا للطاولة. أنطوني كان يأكل البقايا الضئيلة التي تركها كولن (على الأرجح فقط لأنه لم يدرك وجودها)، وبينديكت يميل بكرسيه للخلف، محاولًا موازنته على رجلين. غريغوري يدندن لنفسه، وعيناه مغلقتان وهو

يبتسم بسعادة، مفكرًا على الأرجح في لوسي، أو، بالأحرى، في أجزاء معينة كبيرة وطرية من لوسي.

التفت فيليب إليها وهز كتفيه.

قالت إلويز بصبر مصطنع:

- "متى أصبحتم جميعًا أعز أصدقاء؟"

قال وهو يومئ:

- "أوه. شيء مضحك، في الواقع. طلبت منهم كسر ساقي."

حدقت إلويز فيه فقط. ما دامت حية، لن تفهم الرجال أبدًا. لديها أربعة إخوة، وبصراحة كان يجب أن تفهمهم أفضل من معظم النساء، وربما استغرق الأمر كل سنواتها الثماني والعشرين لتصل لهذا الإدراك، لكن الرجال، ببساطة، مسوخ.

هز فيليب كتفيه مرة أخرى.

- "بدا أن ذلك كسر الجليد."

- "بوضوح."

حدقت فيه، وحدق فيها، وطوال الوقت استطاعت رؤية أنطوني يحدق فيهما معًا، وفجأة بدا فيليب يستعيد رصانته.

قال:

- "سيتعين علينا الزواج."

- "أعرف."

- "سيكسرون ساقي حقًا إن لم أفعل."

تذمرت:

- "ليس هذا كل ما سيفعلونه، لكن حتى مع ذلك، قد تود سيدة أن تظن أنها اختيرت لسبب آخر غير السلامة العظمية."

طرف بعينيه دهشة.

تمتمت:

- "لست غبية. لقد درست اللاتينية."

قال ببطء، بتلك الطريقة التي يفعلها الرجال حين يحاولون تغطية حقيقة أنهم غير واثقين مما يجب قوله:

– "صحيح."

حاولت بيأس، باحثة عن شيء قد يفسر ولو من بعيد كإطراء:

– "أو على الأقل، إن لم يكن سببًا آخر، فربما سببًا إضافيًا."

قال وهو يومئ، لكنه لم يقل شيئًا آخر:

– "صحيح."

ضاقت عيناها.

– "كم شربت من النبيذ؟"

– "ثلاثة فقط."

توقف، وفكر في ذلك.

– "ربما أربعة."

– "كؤوس أم زجاجات؟"

لم يبدُ أنه يعرف الإجابة.

نظرت إلويز للطاولة. كانت هناك أربع زجاجات نبيذ ملقاة بين بقايا العشاء. ثلاث منها فارغة.

قالت:

– "لم أغب كل هذا الوقت."

هز كتفيه.

– "كان الخيار إما الشرب معهم أو تركهم يكسرون ساقي. بدا قرارًا مباشرًا إلى حد ما."

نادت:

– "أنطوني!"

اكتفت من فيليب. اكتفت منهم جميعًا، من كل شيء، من الرجال، من الزواج، من السيقان المكسورة وزجاجات النبيذ الفارغة. لكن قبل كل شيء، اكتفت من نفسها، من شعورها بفقدان السيطرة، وبالعجز أمام أمواج حياتها.

قالت:

– "أريد الذهاب."

أومأ أنطوني ونخر، لا يزال يمضغ قطعة الدجاج الوحيدة التي فاتتها عين كولن.

– "الآن، يا أنطوني."

ولا بد أنه سمع الشرخ في صوتها، النبرة الجوفاء التي خنقت المقاطع، لأنه وقف فورًا وقال:

– "بالطبع."

لم تكن إلويز سعيدة برؤية جوف عربة في حياتها كما كانت في تلك اللحظة.

الفصل الحادي عشر

... لا أستطيع احتمال رجل يفرط في الشرب.
ولهذا السبب، أنا واثقة أنك ستتفهم لِمَ لم أستطع قبول عرض اللورد ويسكوت.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أخيها بينيلوبي،
عقب رفضها لعرض الزواج الثاني

شهقت صوفي بريدجرتون، زوجة بينديكت الضئيلة ذات المظهر الأثيري:

– "لا! لم يفعلوا!"

قالت إلويز بوجوم وهي ترجع بظهرها في كرسي الحديقة وترتشف كوبًا من عصير الليمون:

– "بلى، فعلوا. ثم ثملوا جميعًا!"

تمتمت صوفي:

– "أوغاد."

مما جعل إلويز تدرك أن ما كانت قد سئمته حقًا في الليلة السابقة هو ذلك الأسلوب الرجولي الرفاقي المريع. بوضوح، كل ما كانت تحتاجه هو امرأة عاقلة واحدة يمكنها معها ازدراءهم جميعًا.

تجهمت صوفي.

– "لا تخبريني أنهم كانوا يتحدثون عن تلك المسكينة لوسي مرة أخرى."

شهقت إلويز.

– "أتعرفين بشأنها؟"

– "الجميع يعرف بشأنها. الله يعلم أنه لا يمكن للمرء أن يخطئها إن مررتِ بها في الشارع."

توقفت إلويز، وفكرت، وحاولت التخيل. لم تستطع.

همست صوفي تحت أنفاسها رغم عدم وجود روح قريبة قد تسمع:

– "الحق يقال، أشفق على المرأة. كل ذلك الاهتمام غير المرغوب فيه، و... حسناً، لا يمكن أن يكون جيدًا لظهرها."

حاولت إلويز كتم ضحكتها، لكن نخرة صغيرة أفلتت منها.

– "بوزي سألتها عن الأمر ذات مرة!"

انفرج فم إلويز. بوزي هي أخت صوفي غير الشقيقة، عاشت لعدة سنوات مع آل بريدجرتون قبل أن تتزوج القسيس المرح الذي يعيش على بعد خمسة أميال فقط من بينديكت وصوفي. كانت أيضًا، بصدق تام، أكثر الأشخاص ودًا ممن تعرفهم إلويز، وإن كان لأحد أن يصادق خادمة حانة متزوجة ذات صدر كبير، فستكون هي.

شرحت صوفي، مشيرة لزوج بوزي:

– "إنها في أبرشية هيو. لذا بالطبع التقيا."

سألت إلويز:

– "ماذا قالت؟"

– "بوزي؟"

– "لا. لوسي."

– "أوه. لا أعرف."

قطبت صوفي وجهها.

– "بوزي رفضت إخباري. أتصدقين ذلك؟ لا أظن أن بوزي أخفت عني سرًا طوال حياتها. قالت إنها لا تستطيع خيانة ثقة أحد أبناء الأبرشية."

فكرت إلويز أن ذلك نبل من بوزي.

قالت صوفي بكل ثقة امرأة تعرف أنها محبوبة:

– "الأمر لا يعنيني، بالطبع. بينديكت لن يزيغ أبدًا."

قالت إلويز بسرعة:

– "بالطبع لا."

قصة حب بينديكت وصوفي كانت أسطورية في عائلتهم. كانت أحد الأسباب التي دفعت إلويز لرفض العديد من عروض الزواج. أرادت ذلك النوع من الحب والشغف والدراما. أرادت أكثر من: "لدي ثلاثة منازل، وستة عشر حصانًا، واثنان وأربعون كلب صيد"، وهو ما أخبرها به أحد خاطبيها حين طلب يدها.

تابعت صوفي:

– "لكن لا أظن أنه طلب كبير أن يتمكن من إبقاء فمه مغلقًا حين تمر."

همت إلويز بتقديم موافقتها الحازمة والقوية حين رأت السير فيليب يمشي عبر العشب باتجاهها.

سألت صوفي مبتسمة:

– "هل هذا هو؟"

أومأت إلويز.

– "إنه وسيم جدًا."

قالت إلويز ببطء:

– "نعم، أفترض ذلك."

نخرت صوفي بنفاد صبر.

– "تفترضين؟ لا تتصنعي الخجل معي يا إلويز بريدجرتون. كنت خادمتك الخاصة يومًا ما، وأعرفك أفضل مما ينبغي لأي أحد."

امتنعت إلويز عن الإشارة إلى أن صوفي كانت خادمتها الخاصة لمدة أسبوعين فقط قبل أن تستعيد هي وبينديكت صوابهما ويقررا الزواج. سمحت قائلة:

– "حسنًا جدًا، إنه وسيم للغاية، إن كنتِ تحبين النوع الخشن الريفي."

قالت صوفي بوقاحة:

– "وهو ما تحبينه."

لخزيها التام، شعرت إلويز بنفسها تحمر خجلًا.

– "ربما."

قالت صوفي باستحسان:

– "و... لقد أحضر زهورًا."

– "إنه عالم نبات."

– "لا يجعل ذلك اللفتة أقل عذوبة."

– "لا، بل أسهل فقط."

قالت صوفي باستنكار:

– "إلويز، توقفي عن هذا فورًا."

– "توقفي عن ماذا؟"

– "محاولة التقليل من شأن الرجل المسكين قبل أن تتاح له فرصة حتى."

احتجت إلويز:

– "لم أكن أفعل ذلك على الإطلاق."

لكنها علمت أنها تكذب لحظة مغادرة الكلمات شفتيها. كرهت محاولة عائلتها إدارة حياتها، مهما كانت نواياهم حسنة، وجعلها ذلك تشعر بالنكد وعدم التعاون.

أعلنت صوفي بحزم:

– "حسنًا، أظن أن الزهور لفتة عذبة جدًا. لا يهمني إن كان لديه ثمانية آلاف صنف مختلف متاح له. لا يزال قد فكر في إحضارها."

أومأت إلويز، كارهة نفسها. أرادت أن تشعر بتحسن، أرادت أن تكون كلها ابتسامات وبهجة وتفاؤل، لكنها لم تستطع تدبر ذلك.

تابعت صوفي متجاهلة ضيق إلويز:

– "بينديكت لم يعطني كل التفاصيل. تعرفين كيف هم الرجال. لا يخبرونك أبدًا بما تريدين معرفته."

– "ماذا تريدين أن تعرفي؟"

نظرت صوفي للسير فيليب، مقدرة الوقت الذي تملكه قبل وصوله.

– "حسنًا، أولًا، هل صحيح أنكِ لم تقابليه قبل الهرب؟"

اعترفت إلويز:

– "ليس وجهًا لوجه، لا."

بدا الأمر غبيًا جدًا حين أعادت روايته. من كان ليظن أنها، وهي من آل بريدجرتون، ستهرب لرجل لم تره قط؟

قالت صوفي بصوت عملي:

– "حسنًا، إن سارت الأمور على ما يرام في النهاية، يا لها من قصة رومانسية ستكون."

ابتلعت إلويز ريقها بعدم ارتياح. لا يزال الوقت مبكرًا لمعرفة ما إذا كانت الأمور "ستسير على ما يرام في النهاية". شكت نوعًا ما – لا، في الحقيقة كانت واثقة تمامًا – أنها ستجد نفسها متزوجة بالسير فيليب، لكن من يدري أي نوع من الزواج سيكون؟

لم تكن تحبه، ليس بعد على أية حال، وهو لم يحبها، وظنت أن ذلك سيكون مقبولًا، لكن الآن وهي هنا في ويلتشير، تحاول عدم ملاحظة كيف ينظر بينديكت لـ صوفي، تساءلت إن كانت ارتكبت خطأً فادحًا.

وهل أرادت حقًا الزواج من رجل يبحث في المقام الأول عن أم لأطفاله؟

إن لم يكن هناك حب، هل من الأفضل إذًا البقاء وحيدة؟

لسوء الحظ، الطريقة الوحيدة للإجابة هي الزواج من السير فيليب ورؤية ما سيحدث. وإن لم تسر الأمور جيدًا...

ستكون عالقة.

أسهل طريقة للخروج من الزواج هي الموت، وبصراحة، لم يكن ذلك شيئًا تود إلويز التفكير فيه.

– "آنسة بريدجرتون."

كان فيليب واقفًا أمامها، ممدًا باقة من الأوركيد الأبيض.

– "أحضرت هذه لكِ."

ابتسمت له، مبتهجة بالشعور العصبي والدوار الخفيف الذي تصاعد بداخلها عند ظهوره.

همست وهي تأخذها وتشم الزهور:

– "شكرًا لك. إنها جميلة."

سألت صوفي:

– "من أين حصلت على الأوركيد؟ إنها رائعة."

أجاب:

– "زرعتها. لدي دفيئة."

– "نعم، بالطبع. ذكرت إلويز أنك عالم نبات. أحب البستنة بنفسي، رغم أني يجب أن أقول إني في معظم الأوقات لا أملك أدنى فكرة عما أفعله. أنا واثقة أن القائمين على الرعاية هنا يعتبرونني لعنة وجودهم."

تنحنحت إلويز، مدركة أنها لم تقم بالتعارف بعد. أشارت لأخت زوجها وقالت:

– "سير فيليب، هذه زوجة بينديكت، صوفي."

انحنى فوق يدها متمتمًا:

– "سيدة بريدجرتون."

قالت صوفي بأكثر طرقها ودًا:

– "مسرورة جدًا بلقائك. ومن فضلك، استخدم اسمي الأول. قيل لي إنك تفعل ذلك مع إلويز بالفعل، وعلاوة على ذلك، يبدو الأمر وكأنك عضو في العائلة بالفعل تقريبًا."

احمرت إلويز.

هتفت صوفي، محرجة فورًا:

– "أوه! لم أقصد ذلك فيما يتعلق بكِ يا إلويز. لم أكن لأفترض أبدًا... أوه، يا عزيزتي. ما قصدت قوله هو أني عنيت ذلك لأن الرجال..."

تحول لون وجنتيها للأحمر القاني وهي تنظر ليديها.

– "حسنًا، سمعت أنه كان هناك الكثير من النبيذ."

تنحنح فيليب.

– "تفصيل أفضل عدم تذكره."

قالت إلويز بعذوبة:

– "حقيقة أنك تتذكره أصلًا أمر مذهل."

نظر إليها، وتعبيره يوضح بجلاء أنه لم ينخدع بنبرتها السكرية.

– "أنتِ لطيفة جدًا."

سألته:

– "هل يؤلمك رأسك؟"

جفل.

– "كالجحيم."

كان يجب أن تقلق. كان يجب أن تكون لطيفة، خاصة أنه تكبد عناء إحضار أوركيد نادر لها. لكنها لم تستطع منع نفسها من الشعور بأنه لا يستحق أقل من ذلك، فقالت (بهدوء، لكنها قالتها):

– "جيد."

عاتبتها صوفي:

– "إلويز!"

سألتها إلويز بعذوبة:

– "كيف حال بينديكت؟"

تنهدت صوفي.

– "كان دبًا طوال الصباح، وغريغوري لم ينهض من فراشه حتى."

قال فيليب:
– "يبدو أني أبليت حسنًا بالمقارنة إذًا."
أخبرته إلويز:
– "باستثناء كولن. لا يشعر أبدًا بآثار الكحول. وبالطبع أنطوني شرب قليلًا الليلة الماضية."
– "رجل محظوظ."
سألت صوفي، معدلة قبعتها لتظلل عينيها بشكل أفضل:
– "أترغب في شيء لتشربه يا سير فيليب؟ من النوع الحميد غير المسكر بالطبع، نظرًا للظروف. يسعدني أن أجعل أحدهم يحضر لك كوبًا من عصير الليمون."
– "سيكون ذلك مقدرًا جدًا. شكرًا لكِ."
راقبها تنهض وتمشي أعلى المنحدر الخفيف نحو المنزل، ثم جلس في مكانها قبالة إلويز.
قال متنحنحًا:
– "من الجيد رؤيتكِ هذا الصباح."
لم يكن أبدًا أكثر الرجال ثرثرة، وبوضوح لم يستثنِ هذا الصباح، رغم الظروف غير العادية التي قادت لهذه اللحظة.
همست:
– "وأنت أيضًا."
تململ في مقعده. كان صغيرًا عليه؛ معظم الكراسي كذلك. قال بتيبس:
– "يجب أن أعتذر عن سلوكي الليلة الماضية."
نظرت إليه، محدقة في عينيه الداكنتين للحظة قبل أن ينزلق نظرها لرقعة من العشب بجواره. بدا صادقًا؛ وعلى الأرجح كان كذلك. لم تكن تعرفه جيدًا – بالتأكيد ليس جيدًا بما يكفي للزواج، وإن بدا أن تلك النقطة لم تعد ذات صلة الآن – لكنه لم يبدُ من النوع الذي يقدم اعتذارات كاذبة. ومع ذلك، لم تكن مستعدة تمامًا للانصياع له بامتنان، لذا حين أجابت، فعلت ذلك بتحفظ:

– "لدي إخوة. أنا معتادة على ذلك."

– "ربما، لكني لست كذلك. أؤكد لكِ أني لا أعتاد الإفراط في الشراب."

أومأت، متقبلة اعتذاره.

قال:

– "كنت أفكر."

– "وأنا كذلك."

تنحنح، ثم شد ربطة عنقه، وكأنها ضاقت فجأة.

– "علينا، بالطبع، أن نتزوج."

لم يكن شيئًا جديدًا عليها، لكن كان هناك شيء مريع في طريقة قوله للأمر. ربما كان خلو صوته من العاطفة، وكأنها مشكلة عليه حلها. أو ربما الطريقة العملية التي قالها بها، وكأنها لا تملك خيارًا (وهي في الحقيقة لا تملك، لكنها لم ترغب في التذكير بذلك).

أيًا كان السبب، جعلها تشعر بغرابة، وبحكة، وكأنها بحاجة للقفز خارج جلدها.

لقد أمضت حياتها كبالغة تتخذ قراراتها بنفسها، واعتبرت نفسها الأوفر حظًا بين النساء لأن عائلتها سمحت لها بذلك. ربما لهذا السبب يبدو الآن من غير المحتمل إجبارها على مسار قبل أن تكون مستعدة.

أو ربما كان غير محتمل لأنها هي من حركت هذه المهزلة بأسرها. كانت غاضبة من نفسها، وجعلها ذلك حادة الطباع مع الجميع.

قال بفظاظة:

– "سأبذل قصارى جهدي لإسعادك. والأطفال يحتاجون لأم."

ابتسمت بضعف. كانت تريد لزواجها أن يكون أكثر من مجرد أطفال.

– "أنا واثق أنكِ ستكونين عونًا كبيرًا."

رددت، كارهة وقع الكلمة:

– "عونًا كبيرًا."

– "ألا توافقين؟"

أومأت، في الغالب لأنها خشيت أن تصرخ لو فتحت فمها.

قال:

- "جيد. إذًا استقر الأمر."

استقر الأمر. لبقية حياتها، سيكون هذا هو عرض زواجها العظيم. استقر الأمر. والأسوأ من ذلك - لا يحق لها الشكوى. هي من هربت دون منح فيليب وقتًا كافيًا لترتيب وجود محرم. هي من كانت تواقة لصنع مصيرها بنفسها. هي من تصرفت دون تفكير، والآن كل ما تملكه لتريه هو...

استقر الأمر.

ابتلعت ريقها.

- "رائع."

نظر إليها، يطرف بعينيه حيرة.

- "ألستِ سعيدة؟"

قالت بصوت أجوف:

- "بالطبع."

- "لا تبدين سعيدة."

انفجرت:

- "أنا سعيدة."

تمتم فيليب بشيء تحت أنفاسه.

سألت:

- "ماذا قلت؟"

- "لا شيء."

- "لقد قلت شيئًا."

رمقها بنظرة نافدة الصبر.

- "لو أردتِ سماعه، لقلته بصوت عالٍ."

شهقت.

- "إذًا ما كان عليك قوله أصلًا."

تمتم فيليب:

– "بعض الأشياء يستحيل كتمانها."

طالبت:

– "ماذا قلت؟"

مرر فيليب يده في شعره.

– "إلويز..."

– "هل أهنتني؟"

– "هل تريدين حقًا أن تعرفي؟"

قالت بحدة:

– "بما أنه يبدو أننا سنتزوج، نعم."

رد فيليب:

– "لا أذكر كلماتي بالضبط، لكني أعتقد أني قد أكون نطقت بكلمتي 'النساء' و'انعدام المنطق' في نفس واحد."

ما كان يجب أن يقولها. كان يعلم ذلك؛ كان الأمر وقحًا في أي ظرف، وهو خاطئ بشكل خاص الآن. لكنها ضغطت وضغطت وضغطت ولم تتراجع. كان الأمر وكأنها غرزت إبرة تحت جلده، ثم قررت الوخز للمتعة فقط.

وفضلًا عن ذلك، لمَ هي في مزاج سيئ هكذا؟ كل ما فعله هو سرد الحقائق. سيتعين عليهما الزواج، وبصراحة، كان يجب أن تكون ممتنة لأنها إن كانت قد ضُبطت في وضع مريب، فعلى الأقل كان ذلك مع رجل مستعد لفعل الصواب والزواج منها.

لم يتوقع امتنانًا. تبًا، هذا خطؤه بقدر ما هو خطؤها؛ هو من أصدر الدعوة الأولية، في النهاية. لكن هل كثير أن يتوقع ابتسامة ومزاجًا جيدًا؟

قالت إلويز فجأة:

– "أنا سعيدة لأننا أجرينا هذه المحادثة. هذا جيد."

رفع نظره، مرتابًا على الفور.

– "عفوًا؟"

– "مفيد جدًا. يجب على المرء دائمًا فهم زوجه قبل الزواج، و..."

أنّ. لن ينتهي هذا على خير.

أضافت بحدة، محدقة في أنينه:

– "وبالتأكيد من حسن الطالع أني أعرف الآن شعورك تجاه النساء."

كان من النوع الذي يبتعد عادة عن الصراع، لكن حقًا، هذا كثير. رد عليها:

– "إن كنت أذكر بشكل صحيح، لم أخبركِ قط برأيي في النساء بالضبط."

– "لقد استنتجته. عبارة 'انعدام المنطق' وجهتني للاتجاه الصحيح."

مط صوته:

– "أفعلت؟ حسنًا، أنا أفكر بشكل مختلف الآن."

ضاقت عيناها.

– "ماذا تعني؟"

– "أعني أني غيرت رأيي. قررت أني لا أواجه صعوبات مع النساء بشكل عام، في النهاية. أنتِ وحدكِ من أجدكِ لا تطاقين."

تراجعت للخلف، مهانة بوضوح.

– "ألم يقل لكِ أحد من قبل إنكِ لا تطاقين؟"

وجد صعوبة في تصديق ذلك.

تذمرت:

– "لا أحد لم يكن من أقاربي."

– "لا بد أنكِ تعيشين في مجتمع مؤدب للغاية."

تململ في مقعده مرة أخرى؛ حقًا، ألا يصنع أحد كراسي للرجال الضخام بعد الآن؟

تمتم:

– "إما ذلك، أو أنكِ أرعبتِ الجميع للخضوع لكل نزواتك ببساطة."

احمر وجهها، ولم يستطع تمييز إن كان ذلك لخجلها من تقييمه الدقيق لشخصيتها أم لمجرد أنها غاضبة لدرجة تعجز عن الكلام.

على الأرجح كلاهما.

تمتمت:

- "أنا آسفة."

التفت إليها متفاجئًا.

- "عفوًا؟"

لم يمكن أن يكون سمع بشكل صحيح.

كررت، موضحة أنها لن تقول الكلمات مرة ثالثة، لذا من الأفضل أن ينصت جيدًا:

- "قلت إني آسفة."

- "أوه."

قال، مذهولًا جدًا لدرجة عدم القدرة على قول أي شيء آخر.

- "شكرًا لكِ."

- "عفوًا."

نبرتها كانت أقل من ودودة، لكن بدا أنها تحاول جاهدة مع ذلك.

للحظة لم يقل شيئًا. ثم اضطر للسؤال.

- "على ماذا؟"

رفعت نظرها، منزعجة بوضوح لأن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد. تذمرت:

- "أكان عليك أن تسأل؟"

- "حسنًا، نعم."

قالت بحدة:

- "أنا آسفة، لأني في مزاج مريع وتصرفت بشكل سيئ. وإن سألت كيف تصرفت بشكل سيئ، أقسم أني سأنهض وأمشي ولن تراني ثانية أبدًا، لأني أؤكد لك، هذا الاعتذار صعب بما يكفي دون أن أضطر لشرحه أكثر."

قرر فيليب أنه لا يمكنه طلب المزيد. قال بهدوء:

– "شكرًا لكِ."

لجم لسانه لدقيقة، ربما أطول دقيقة ـفي حياته، ثم قرر أنه قد يمضي قدمًا ويقولها.

– "إن كان ذلك يشعرك بتحسن، فقد قررت أننا سنتوافق قبل وصول إخوتك. كنت أخطط بالفعل لطلب يدك. بشكل لائق، مع خاتم وكل ما يُفترض بي فعله. لا أعرف. مر وقت طويل منذ طلبت الزواج من أحد، والمرة الأخيرة لم تكن ـفي ظروف طبيعية على أية حال."

نظرت إليه، والمفاجأة ـفي عينيها... وربما القليل من الامتنان أيضًا.

أضاف:

– "أنا آسف لأن إخوتك جاؤوا وجعلوا كل شيء يحدث أسرع مما أنتِ مستعدة له، لكني لست آسفًا لحدوثه."

همست:

– "لست كذلك؟ حقًا؟"

– "سأمنحكِ الوقت الذي تحتاجينه، ـفي حدود المعقول بالطبع. لكني لا أستطيع..."

نظر لأعلى التل؛ أنطوني وكولن يتهاديان نزولًا نحوهما، يتبعهما خادم يحمل صينية طعام.

– "لا أستطيع التحدث نيابة عن إخوتك. أجرؤ على القول إنهم لن يرغبوا في الانتظار طالما تفضلين. وبصراحة تامة، لو كنتِ أختي، لكنت سحبتكِ لكنيسة الليلة الماضية."

نظرت لأعلى التل نحو إخوتها؛ لا يزالون على بعد نصف دقيقة على الأقل. فتحت فمها، ثم أغلقته ـفي تفكير واضح. أخيرًا، بعد عدة ثوانٍ، استطاع خلالها رؤية عجلات عقلها تدور وتطحن عمليًا، اندفعت قائلة:

– "لماذا قررت أننا سنتوافق؟"

– "عفوًا؟"

كان تكتيك مماطلة، بالطبع. لم يتوقع سؤالًا مباشرًا كهذا.

رغم أن فقط الله يعلم لمَ لا. هذه إلويز، في النهاية.

كررت، وصوتها محدد وغير قابل للنكران:

– "لماذا قررت أننا سنتوافق؟"

ولكن بالطبع هكذا ستسأله. لا شيء خفي أو قابل للإنكار بشأن إلويز بريدجرتون. لن تدور أبدًا حول مشكلة حين يمكنها الدخول مباشرة ودس أنفها في قلب الموضوع.

سعل وتنحنح:

– "أنا... آه..."

صرحت، وتبدو خائبة الأمل:

– "أنت لا تعرف."

احتج:

– "بالطبع أعرف."

لا يحب أي رجل أن يقال له إنه لا يعرف عقله.

– "لا، لا تعرف. لو كنت تعرف، لما جلست هناك تغص بالهواء."

– "يا إلهي أيتها المرأة، هل لديكِ عظمة رحيمة واحدة في جسدك؟ الرجل يحتاج وقتًا لصياغة إجابة."

جاء صوت كولن بريدجرتون الودود دائمًا:

– "آه، ها هو الثنائي السعيد."

لم يكن فيليب سعيدًا برؤية إنسان آخر في حياته كما كان في تلك اللحظة.

– "صباح الخير."

قالها لرجلي بريدجرتون، مسرورًا بشكل غير عادي لهروبه من استجواب إلويز.

استفسر كولن وهو يجلس في الكرسي المجاور لـ فيليب:

– "جائع؟ سمحت لنفسي بجعل المطبخ يحضر إفطارًا في الهواء الطلق."

نظر فيليب للخادم وتساءل إن كان عليه عرض المساعدة. بدا الرجل المسكين على وشك الانهيار تحت وطأة الطعام.

سأل أنطوني وهو يجلس على المقعد المبطن بجوار إلويز:
– "كيف حالكِ هذا الصباح؟"
أجابت:
– "بخير."
– "جائعة؟"
– "لا."
– "مبتهجة؟"
– "ليس لأجلك."
التفت أنطوني لـ فيليب.
– "عادة ما تكون أكثر ثرثرة."
تساءل فيليب إن كانت إلويز ستضربه. لن يكون أكثر مما يستحق.
هبطت صينية الطعام على الطاولة بقرقعة عالية، متبوعة باعتذار الخادم المتذلل عن كونه أخرق، متبوعًا بتأكيد أنطوني أنه لا مشكلة على الإطلاق، وأن هرقل نفسه لا يستطيع حمل طعام يكفي كولن.
خدم الأخوان بريدجرتون نفسيهما، ثم التفت أنطوني لـ إلويز وفيليب وقال:
– "بالتأكيد تبدوان متوافقين جيدًا هذا الصباح."
نظرت إليه إلويز بعداء صريح.
– "متى توصلت لهذا الاستنتاج؟"
قال وهو يهز كتفيه:
– "استغرق الأمر لحظة واحدة فقط."
نظر لـ فيليب.
– "كانت المشاكسة، في الواقع. أفضل الأزواج يفعلون ذلك."
تمتم فيليب:
– "يسرني سماع ذلك."
قال أنطوني بود:

– "أنا وزوجتي غالبًا ما نجري محادثات مماثلة قبل أن تقتنع بطريقة تفكيري."

رمقته إلويز بتعبير نزق.

أضاف وهو يهز كتفيه:

– "بالطبع، زوجتي قد تقدم تفسيرًا مختلفًا. أسمح لها بالاعتقاد أني أنا من يقتنع بطريقة تفكيرها."

التفت عائدًا لـ فيليب وابتسم.

– "الأمر أسهل هكذا."

اختلس فيليب نظرة لـ إلويز. بدت وكأنها تعمل بجد للجم لسانها.

سأله أنطوني:

– "متى وصلت؟"

أجاب:

– "قبل بضع دقائق فقط."

قالت إلويز:

– "نعم. لقد عرض الزواج، أنا واثقة أنك ستسعد لسماع ذلك."

سعل فيليب متفاجئًا بإعلانها المفاجئ.

– "عفوًا؟"

التفتت إلويز لـ أنطوني.

– "قال: 'سيتعين علينا الزواج'."

رد أنطوني، مثبتًا نظرة مستوية مباشرة على وجهها:

– "حسنًا، إنه محق. أنتما مضطران للزواج. وتحياتي له لعدم المراوغة حول الأمر. كنت لأظن أنكِ، من بين كل الناس، ستقدرين المحادثة المباشرة."

سأل كولن:

– "أيريد أحدكم كعكة سكون؟ لا؟ المزيد لي إذًا."

التفت أنطوني لـ فيليب وقال:

– "إنها فقط متهيجة قليلًا لأنها تكره تلقي الأوامر. ستكون بخير في غضون أيام."

قالت إلويز بحدة:

– "أنا بخير الآن."

همس أنطوني:

– "نعم، تبدين بخير."

سألت إلويز من خلال أسنانها:

– "أليس لديك مكان تذهب إليه؟"

أجاب أخوها:

– "سؤال مثير للاهتمام. قد يقول المرء إنه يجب أن أكون في لندن، مع زوجتي وأطفالي. في الواقع، لو كان لدي مكان آخر لأكون فيه، أتصور أنه سيكون هناك. لكن بغرابة شديدة، يبدو أني هنا. في ويلتشير. حيث، حين استيقظت في سريري المريح في لندن قبل ثلاثة أيام، لم أكن لأحزر أبدًا أني سأكون هنا."

ابتسم بفتور.

– "أي أسئلة أخرى؟"

صمتت عند ذلك.

ناول أنطوني مظروفًا لـ إلويز.

– "هذا وصل لأجلكِ."

نظرت لأسفل، واستطاع فيليب رؤية أنها ميزت الخط فورًا.

قال أنطوني، رغم وضوح أنها عرفت ذلك بالفعل:

– "إنه من أمي."

سأل فيليب:

– "أتريدين قراءته؟"

هزت رأسها.

– "ليس الآن."

وهو ما يعني، كما أدرك، ليس أمام إخوتها.

وفجأة عرف ما عليه فعله.

قال لـ أنطوني وهو يقف:

– "لورد بريدجرتون، هل لي أن أطلب لحظة على انفراد مع أختك؟"

قال كولن بين قضمات اللحم المقدد:

– "لقد حظيت بلحظة على انفراد معها للتو."

تجاهله فيليب.

– "سيدي؟"

قال أنطوني:

– "بالطبع، إن كانت موافقة."

أمسك فيليب بيد إلويز وسحبها لتقف.

– "إنها موافقة."

علق كولن:

– "مممم. تبدو موافقة جدًا."

قرر فيليب حينها وهناك أن كل آل بريدجرتون يجب تكميمهم. قال لـ إلويز قبل أن تتاح لها فرصة الجدال:

– "تعالي معي."

وبالطبع كانت ستجادل، بما أنها إلويز، ولن تبتسم أبدًا بأدب وتتبع حين يكون الجدال احتمالًا واردًا.

لهثت، بمجرد أن سحبها بعيدًا عن عائلتها وكان يخطو عبر العشب، غير عابئ باضطرارها للركض لمجاراته:

– "إلى أين نحن ذاهبان؟"

– "لا أعرف."

– "لا تعرف؟"

توقف بسرعة كبيرة لدرجة أنها اصطدمت به. كان ذلك لطيفاً نوعًا ما، في الواقع. استطاع الشعور بكل جزء منها، من صدرها لفخذيها، رغم أنها تعافت بسرعة كبيرة وابتعدت قبل أن يتمكن من تذوق اللحظة.

قال، شارحًا لها وكأنها طفلة صغيرة:

– "لم آتِ إلى هنا من قبل. يجب أن أكون مستبصرًا لعينًا لأعرف أين أذهب."

– "أوه. حسنًا إذًا، دلني على الطريق."

سحبها عائدًا للمنزل، شاقًا طريقه لباب جانبي.

سأل:

– "إلام يؤدي هذا؟"

أجابت:

– "للداخل."

منحها نظرة ساخرة.

شرحت إلويز:

– "عبر غرفة كتابة صوفي إلى الردهة."

– "هل صوفي في غرفة كتابتها؟"

– "أشك في ذلك. ألم تذهب لإحضار عصير الليمون لك؟"

– "جيد."

فتح الباب، متمتمًا بشكر سريع لكونه غير مقفل، وأطل برأسه للداخل. كانت الغرفة فارغة، لكن الباب المؤدي للردهة كان مفتوحًا، فعبر وسحبه مغلقًا. حين استدار عائدًا، كانت إلويز لا تزال واقفة في المدخل المفتوح للخارج، تراقبه بمزيج من الفضول والتسلية.

أمر:

– "أغلقي الباب."

ارتفع حاجباها.

– "عفوًا؟"

– "أغلقيه."

لم تكن نبرة صوت يستخدمها كثيرًا، لكن بعد عام من العوم، من الشعور بالضياع وسط تيارات حياته، أخذ الزمام أخيرًا.

وعرف بالضبط ما يريده.

قال بصوت منخفض، متحركًا ببطء عبر الغرفة نحوها:

– "أغلقي الباب يا إلويز."

اتسعت عيناها. همست:

– "فيليب؟"

– "لا تتحدثي. فقط أغلقي الباب."

لكنها تجمدت في مكانها، تحدق فيه وكأنها لا تعرفه. والحق يقال، هي لم تكن تعرفه. تباً، لم يعد هو واثقًا من أنه يعرف نفسه.

– "فيليب، أنت..."

مد يده خلفها وأغلق الباب لها، مديرًا القفل بصوت طقة عالية ومنذرة.

سألت:

– "ماذا تفعل؟"

قال:

– "كنتِ قلقة من أننا قد لا نتوافق."

انفرجت شفتاها.

تقدم للأمام.

– "أظن أنه حان الوقت لأريكِ أننا نتوافق."

الفصل الثاني عشر

... وكيف عرفتِ أنك وسايمون مناسبان للزواج؟
أقسم أني لم أقابل رجلًا يمكنني قول المثل عنه،
هذا بعد ثلاثة مواسم طويلة في سوق الزواج.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أختها دوقة هاستينغز،
عقب رفضها لعرض الزواج الثالث

بالكاد سنحت لـ إلويز فرصة للتنفس قبل أن يطبق فمه على فمها. وكان من الجيد أنها فعلت، إذ لم يبدُ أن لديه أي خطط لإطلاق سراحها حتى، أوه، الألفية القادمة.

ولكن فجأة، ابتعد، ويداه الكبيرتان تحتضنان وجهها. ونظر إليها.

اكتفى بالنظر إليها.

سألت، غير مرتاحة لتفحصه:

– "ماذا؟"

علمت أنها تُعتبر جذابة، لكنها لم تكن جمالًا أسطوريًا، وكان يفحصها وكأنه يريد فهرسة كل ملامحها.

همس:

– "أردت رؤيتكِ."

لمس خدها، ثم مرر إبهامه على خط فكها.

– "أنتِ في حركة دائمة. لا يتسنى لي رؤيتكِ فقط."

ارتخت ساقاها، وانفرجت شفتاها، لكنها لم تستطع جعلهما تعملان، لم تستطع فعل شيء سوى التحديق في عينيه الداكنتين.

تمتم:

– "أنتِ جميلة جدًا. هل تعلمين ما فكرت فيه حين رأيتكِ للمرة الأولى؟"

هزت رأسها، يائسة لسماع كلماته.

– "ظننت أني قد أغرق في عينيكِ. ظننت..."

اقترب أكثر، كلماته الآن نفس بقدر ما هي صوت:

– "... أني قد أغرق فيكِ."

شعرت بنفسها تتمايل نحوه.

لمس شفتيها، مدغدغًا الجلد الرقيق بسبابته. أرسلت الحركة موجات من المتعة خلالها، وصولًا لمركز كيانها، لأماكن محرمة حتى عليها.

وأدركت أنها لم تفهم أبدًا قوة الرغبة حقًا حتى تلك اللحظة بالذات. لم تفهم أبدًا ماهيتها على الإطلاق.

همست:

– "قبلني."

ابتسم.

– "دائمًا ما تملين الأوامر عليّ."

– "قبلني."

تمتم، وفمه يتقوس في ابتسامة مشاكسة:

– "هل أنتِ واثقة؟ لأنه بمجرد أن أفعل، قد لا أكون قادرًا على..."

جذبت مؤخرة رأسه وسحبته للأسفل.

قهقه ضد شفتيها، وذراعاه تشتدان حولها بقوة لا تساوم. فتحت فمها، مرحبة بغزوه، تئن بمتعة ولسانه يكتسح الداخل، مستكشفًا دفئها. قضم

ولعق، مشعلًا نارًا بداخلها ببطء، طوال الوقت يضغطها أقرب وأقرب إليه حتى اندفعت حرارته عبر ملابسها، لافة إياها في ضباب من الرغبة.

تسللت يداه حول ظهرها، ثم لأسفل لمؤخرتها، يعصر ويدلك، ثم يميلها للأعلى حتى - -

شهقت. كانت في الثامنة والعشرين، كبيرة بما يكفي لتسمع همسات غير لائقة. عرفت ما تعنيه صلابته. لكنها لم تتوقع أبدًا أن تشعر بها بهذه الحرارة، بهذا الإلحاح.

جفلت مبتعدة، الحركة غريزية أكثر من أي شيء آخر، لكنه لم يدعها تذهب، سحبها أقرب وأنّ، محتكًا بها. أن في أذنها:

- "أريد أن أكون بداخلكِ."

خذلتها ساقاها تمامًا.

لم يهم ذلك، بالطبع؛ شدد قبضته عليها أكثر، ثم أنزلها على الأريكة، هابطًا فوقها حتى ضغط طوله بالكامل جسدها في الوسائد الكريمية الناعمة. كان ثقيلًا، لكن ثقله كان مثيرًا، ولم تستطع فعل شيء سوى إمالة رأسها للخلف بينما غادرت شفتاه شفتيها لتسافر عبر عمود عنقها.

أنت، ثم أنت مرة أخرى، وكأن اسمه الكلمة الوحيدة المتبقية لها:

- "فيليب."

زمجر:

- "نعم. نعم."

بدت كلماته ممزقة من حلقه، ولم تكن لديها أدنى فكرة عما يتحدث عنه، سوى أن أيًا كان ما يقول له نعم، فهي تريده أيضًا.

أرادت كل شيء. أي شيء يريده، أي شيء ممكن.

أرادت كل ما هو ممكن وكل ما هو مستحيل أيضًا. لم يعد هناك منطق، فقط إحساس. فقط حاجة ورغبة وهذا الشعور الطاغي بالـ"الآن".

الأمر ليس عن الأمس ولا عن الغد. هذا هو الآن، وهي تريده كله.

شعرت بيده على كاحلها، خشنة ومتصلبة وهي تتحرك صعودًا على ساقها حتى وصلت لحافة جوربها. لم يتوقف، لم يفعل شيئًا ليطلب إذنها ضمنيًا، لكنها منحته إياه على أية حال، باعدت بين ساقيها حتى استقر بحزم أكبر بينهما، مانحة إياه مساحة أكبر للمداعبة، مساحة أكبر لدغدغة بشرتها.

تحرك للأعلى وللأعلى وللأعلى، متوقفًا بين الفينة والأخرى ليعصر، وظنت أنها قد تموت من الانتظار. كانت تشتعل، تحترق لأجله، تشعر بغرابة وبلل وبأنها مختلفة تمامًا عن نفسها لدرجة ظنت معها أنها قد تذوب في بركة من العدم.

أو تتبخر تمامًا. أو ربما حتى تنفجر.

ثم، حين كانت مقتنعة تمامًا بأنه لا شيء يمكن أن يكون أغرب، لا شيء يمكن أن يوترها أكثر مما هي عليه، لمسها.

لمسها.

لمسها حيث لم يلمسها أحد قط، حيث لم تجرؤ على لمس نفسها. لمسها بحميمية بالغة، برقة بالغة لدرجة أنها اضطرت لعض شفتها كي لا تصرخ باسمه.

وحين انزلق إصبعه للداخل، علمت أنه في تلك اللحظة لم تعد ملكًا لنفسها.

كانت ملكه.

في وقت ما لاحقًا، لاحقًا جدًا، ستكون نفسها مجددًا، مسيطرة مرة أخرى، بكل قواها وملكاتها، لكن للآن هي ملكه.

في هذه اللحظة، لهذه الثانية، عاشت لأجله، لكل ما يمكنه جعلها تشعر به، لكل همسة متعة أخيرة، لكل أنين رغبة.

شهقت،بتوسل، ووعد، وسؤال:

– "أوه، فيليب."

كان كل ما احتاجت قوله للتأكد من عدم توقفه. لم تكن لديها فكرة إلى أين يتجه كل هذا، وما إذا كانت ستبقى الشخص نفسه حين ينتهي الأمر، لكنه

كان يجب أن يتجه لمكان ما. لا يمكنها الاستمرار في هذه الحالة للأبد. كانت مشدودة للغاية، متوترة للغاية لدرجة أنها ستتحطم بالتأكيد.

كانت قريبة من النهاية. لا بد أن تكون كذلك.

احتاجت لشيء ما. احتاجت للخلاص، وعلمت أنه الوحيد القادر على منحها إياه.

تقوست نحوه، ضغطت للأعلى بقوة لم تتخيل أبدًا امتلاكها، رافعة كلاهما فعليًا عن الأريكة بحاجتها. وجدت يداها كتفيه، تنغرزان في عضلاته، ثم تحركتا لأسفل ظهره في محاولة لسحبه أقرب إليها.

أنّ فيليب، مزلقًا يده الأخرى أعلى تنورتها حتى وجد مؤخرتها:

- "إلويز. هل لديكِ أدنى فكرة..."

ثم لم تكن لديها أدنى فكرة عما فعله - ربما هو لم يعرف أيضًا - لكن جسدها كله توتر بشكل مستحيل. لم تستطع الكلام، لم تستطع حتى التنفس وفمها ينفتح في صرخة صامتة من المفاجأة والبهجة ومائة شيء آخر مدموجة في واحد. ثم، حين ظنت أنها لا يمكن أن تنجو لثانية واحدة أخرى، ارتجفت وانهارت تحته، تلهث من الإرهاق، رخوة ومستهلكة لدرجة العجز عن تحريك حتى خنصرها.

قالت أخيرًا، والتجديف هو الكلمات الوحيدة التي تجري في عقلها:

- "أوه، يا إلهي. أوه، يا إلهي."

شددت يداه على مؤخرتها.

- "أوه، يا إلهي."

تحركت يده، صعدت لتمسيد شعرها. كان رقيقًا، رقيقًا بشكل مؤلم، رغم أن جسده كان متيبسًا ومتوترًا.

استلقت إلويز هناك فقط، متسائلة إن كانت ستقدر على الحركة مرة أخرى، تتنفس ضده وهي تشعر بأنفاسه على صدغها. في النهاية تحرك وتزحزح، متمتمًا بشيء عن كونه ثقيلًا جدًا عليها، ثم لم يكن هناك سوى

الهواء، وحين نظرت للجانب، كان جاثيًا بجوار الأريكة، يملس تنوراتها للأسفل.

بدا تصرفًا رقيقًا ونبيلًا نوعًا ما، بالنظر لفجورها الأخير.

نظرت ـفي وجهه، عالمة أنها لا بد تبتسم بسخافة بالغة. تنهدت:

– "أوه، فيليب."

سأل بصوت أجش:

– "هل هناك حمام؟"

طرفت بعينيها، ملاحظة لأول مرة أنه يبدو متوترًا نوعًا ما. رددت:

– "حمام؟"

أومأ بتيبس.

أشارت للباب المؤدي للردهة.

– "للخارج وإلى اليمين."

كان من الصعب تصديق حاجته لقضاء حاجته بعد لقاء مثير كهذا، لكن من هي لتحاول فهم طريقة عمل جسد الرجل؟

مشى إلى الباب، ووضع يده على المقبض، ثم استدار. سأل، وأحد حاجبيه يرتفع ـفي قوس متعجرف بشكل مستحيل:

– "أتصدقيني الآن؟"

انفرجت شفتاها حيرة.

– "في ماذا؟"

ابتسم. ببطء. وكل ما قاله هو:

– "سنتوافق."

لم يكن لدى فيليب أدنى فكرة عن الوقت الذي قد تستغرقه إلويز لاستعادة رباطة جأشها وهندامها. بدت شعثاء بشكل شهي حين تركها على الأريكة ـفي مكتب صوفي بريدجرتون الصغير. لم يفهم أبدًا تعقيدات زينة المرأة، وكان واثقًا تمامًا من أنه لن يفهم أبدًا، لكنه كان شبه متأكد أنها ستحتاج لإعادة تصفيف شعرها على أقل تقدير.

أما هو، فلم يتطلب الأمر سوى أقل من دقيقة في الحمام ليجد خلاصه؛ كان مشدودًا لتلك الدرجة من لقائه بـ إلويز.

يا إلهي، كانت رائعة.

لقد مضى وقت طويل منذ كان مع امرأة. عرف أنه حين يجد أخيرًا واحدة يرغب في مضاجعتها، سيتفاعل جسده بقوة. قضى سنوات أكثر مما يود عده ويده فقط ترضي حاجاته؛ جسد الأنثى بدا كنعيم خالص.

والله وحده يعلم أنه تخيل واحدًا بما فيه الكفاية.

لكن هذا كان مختلفاً، ليس على الإطلاق كما تصوره في عقله. كان مجنوناً بها. بها هي. بالأصوات التي تفلت من حنجرتها، برائحة بشرتها، بالطريقة التي بدا جسده يتلاءم تمامًا في ثنايا جسدها. حتى رغم اضطراره لإنهاء الأمر بنفسه، لا يزال يشعر بأكثر، وبكثافة أكبر، مما ظن ممكنًا يومًا.

كان يظن أن أي جسد أنثوي سيفي بالغرض، لكن اتضح له الآن بجلاء أن هناك سببًا لعدم لجوئه لخدمات العاهرات والنادلات اللاتي أبدين استعدادهن. هناك سبب لعدم عثوره على أرملة كتوم.

كان بحاجة لأكثر.

كان بحاجة لـ إلويز.

أراد أن يغرق نفسه فيها ولا يخرج أبدًا.

أراد أن يمتلكها، أن يحوزها، ثم يستلقي ويتركها تعذبه حتى يصرخ.

راودته خيالات من قبل. تباً، كل رجل تراوده. لكن الآن خياله له وجه، وخشى أنه سيجد نفسه يمشي بانتصاب دائم إن لم يتعلم كيف يتحكم في أفكاره.

يحتاج لزفاف. وبسرعة.

أنّ، غاسلًا يديه بسرعة في الحوض. لم تكن تعلم أنها تركته في حالة كهذه. لم تدرك حتى. اكتفت بالنظر إليه بتلك الابتسامة الهانئة، غارقة في شغفها الخاص لدرجة عدم ملاحظة استعداده للانفجار.

دفع الباب مفتوحًا، وقدميه تتحركان بسرعة على الأرضية الرخامية وهو يعود للعشب. سيكون لديه متسع من الوقت للانفجار قريبًا بما يكفي. وحين يفعل، ستكون هي هناك تمامًا معه.

جلبت الفكرة ابتسامة لشفتيه، وكادت ترسله عائدًا للحمام.

قال بينديكت بريدجرتون حين مشى فيليب نحوه عبر العشب:

– "آه، ها هو ذا."

رأى فيليب المسدس في يده وتوقف في مكانه، متسائلًا إن كان عليه القلق. لا يمكن لـ بينديكت أن يعرف ما حدث للتو في مكتب زوجته، أليس كذلك؟

ابتلع فيليب ريقه، مفكرًا بجدية. لا، مستحيل. وفضلًا عن ذلك، بينديكت يبتسم.

بالطبع، قد يكون من النوع الذي يستمتع بقنص منتهك براءة أخته...

قال فيليب، ناظرًا للجميع في محاولة لتقدير الموقف:

– "آه، صباح الخير."

أومأ بينديكت محييًا، ثم قال:

– "هل تطلق النار؟"

أجاب فيليب:

– "بالطبع."

– "جيد."

أشار برأسه نحو هدف.

– "انضم إلينا."

لاحظ فيليب بارتياح أن الهدف يبدو مثبتًا بإحكام في مكانه، مما يشير إلى أنه لن يضطر للعب هذا الدور.

قال:

– "لم أحضر مسدسًا."

أجاب بينديكت:

– "بالطبع لا. لمَ قد تفعل؟ نحن جميعًا أصدقاء هنا."

ارتفع حاجباه.

– "ألسنا كذلك؟"

– "يأمل المرء ذلك."

تقوست شفتا بينديكت، لكنها لم تكن تلك الابتسامة التي تبعث الثقة في سلامة المرء.

– "لا تقلق بشأن المسدس. سنوفره لك."

أومأ فيليب. إن كانت هذه هي الطريقة لإثبات رجولته لإخوة إلويز، فليكن. يمكنه إطلاق النار بمهارة أفضلهم. كانت واحدة من تلك الهوايات الرجولية التي أصر والده بإلحاح على أن يتعلمها. قضى ساعات لا تحصى خارج رومني هول، ذراعه ممدودة حتى تحترق عضلاته، حابسًا أنفاسه وهو يصوب نحو أيًا كان ما خرج والده لتدميره. كل طلقة كانت مصحوبة بدعاء حار أن يكون تصويبه دقيقًا.

إن أصاب الهدف، لن يضربه والده. كان الأمر بتلك البساطة – وذلك اليأس.

مشى لطاولة عليها عدة مسدسات، متمتمًا بتحياته لـ أنطوني، وكولن، وغريغوري. كانت صوفي تجلس على بعد عشر ياردات أو نحو ذلك، وأنفها في كتاب.

قال أنطوني:

– "لننجز هذا، قبل عودة إلويز."

ونظر نحو فيليب.

– "أين إلويز؟"

كذب فيليب:

– "ذهبت لتقرأ رسالة والدتكم."

قال أنطوني بعبوس:

– "فهمت. حسناً، لن يستغرق ذلك طويلًا. من الأفضل أن نسرع إذًا."

قال كولن، ملتقطًا مسدسًا وفاحصًا إياه:

– "ربما سترغب ـفي الرد. سيكسبنا ذلك بضع دقائق إضافية. أنتم تعرفون إلويز. دائمًا تكتب رسالة لأحدهم."

رد أنطوني:

– "بالفعل. وذلك ما أوقعنا ـفي هذه الفوضى، أليس كذلك؟"

اكتفى فيليب بالنظر إليه بابتسامة غامضة. كان مسرورًا جدًا بنفسه هذا الصباح لدرجة تمنعه من الانجرار لأي استفزاز يود أنطوني بريدجرتون تقديمه.

اختار غريغوري مسدسًا.

– "حتى لو ردت، ستعود قريبًا. إنها سريعة بشكل شيطاني."

سأل فيليب:

– "في الكتابة؟"

قال غريغوري بوجوم:

– "في كل شيء. لنطلق النار."

سأل فيليب:

– "لماذا أنتم جميعًا تواقون للبدء دون إلويز؟"

قال بينديكت:

– "آه، لا سبب."

في اللحظة نفسها تمامًا التي تمتم فيها أنطوني:

– "من قال شيئًا عن ذلك؟"

جميعهم قالوا، بالطبع، لكن فيليب لم يذكرهم بذلك.

قال كولن، ضاربًا أنطوني على ظهره:

– "السن قبل الجمال، يا صاح."

تمتم أنطوني، متقدمًا لخط طباشيري رسمه أحدهم على العشب:

– "أنت لطيف جدًا."

رفع ذراعه، صوب، وأطلق النار.

قال فيليب، بمجرد أن أحضر الخادم الهدف:

– "أحسنت."

لم يضرب أنطوني المركز الميت، لكنه كان بعيدًا عنه بإنش واحد فقط.

– "شكرًا لك."

وضع مسدسه جانبًا.

– "كم عمرك؟"

طرف فيليب بعينيه للسؤال غير المتوقع، ثم أجاب:

– "ثلاثون."

أشار أنطوني برأسه نحو كولن.

– "أنت بعد كولن إذًا. نفعل هذه الأشياء دائمًا حسب السن. إنها الطريقة الوحيدة لتتبع الأمر."

قال فيليب، مراقبًا بينديكت وكولن يأخذان دورهما:

– "بكل تأكيد."

كانا راميَيْن جيدَيْن، لا أحد منهما أصاب المركز الميت، لكنهما بالتأكيد قريبان بما يكفي لقتل رجل، لو كان ذلك هدفهما.

وهو ما لم يبدُ أنه كذلك، لحسن الحظ، على الأقل ليس في هذا الصباح.

اختار فيليب مسدسًا، اختبر وزنه في يده، ثم تقدم للخط الطباشيري. مؤخرًا فقط توقف عن التفكير في والده كلما صوب نحو هدف. استغرق الأمر سنوات، لكنه سمح لنفسه أخيرًا بإدراك أنه يحب الرماية فعلًا، وأنها لا يجب أن تكون عملًا شاقًا. وفجأة اختفى صوت والده، الذي كان دائمًا في مؤخرة عقله، يصرخ دائمًا، ينتقد دائمًا.

رفع ذراعه، وعضلاته ثابتة كالصخر، وأطلق النار.

حدق نحو الهدف. بدا جيدًا. أحضره الخادم للأمام. نصف إنش، على الأكثر، بعيدًا عن المركز. أقرب من أي شخص آخر حتى الآن.

عاد الهدف للخلف، وأخذ غريغوري دوره، مثبتًا أنه ند لـ فيليب.

أخبر أنطوني فيليب:

– "نقوم بخمس جولات. الأفضل يفوز، وإن كان هناك تعادل، يتواجه المتصدران."

قال فيليب:

– "فهمت. أي سبب معين؟"

قال أنطوني ملتقطاً مسدسه:

– "لا. فقط لأننا فعلنا ذلك دائمًا بهذه الطريقة."

نظر كولن لـ فيليب بعينين جادتين كالموت.

– "نأخذ ألعابنا بجدية."

– "ألاحظ ذلك."

– "هل تبارز؟"

قال فيليب:

– "ليس جيدًا."

ارتفعت زاوية فم كولن.

– "ممتاز."

نبحه أنطوني، ناظرًا إليهم بنزق:

– "اخرسوا. أحاول التصويب."

علق كولن:

– "مثل هذه الحاجة للصمت لن تخدمك جيدًا في وقت الأزمات."

قال أنطوني بحدة:

– "اخرس."

تابع كولن، وإحدى يديه تتحرك بتعبير وهو ينسج حكايته:

– "لو هوجمنا، لكان الأمر صاخبًا للغاية، وبصراحة، أجد من المقلق التفكير..."

صاح أنطوني:

– "كولن!"

– "لا تبالِ بي."

أعلن أنطوني:

– "سأقتله. هل يمانع أحد إن قتلته؟"

لم يمانع أحد، رغم أن صوفي نظرت لأعلى وذكرت شيئًا عن الدماء والفوضى وعدم رغبتها في الاضطرار للتنظيف.

قال فيليب للمساعدة، بما أن هذا مجال خبرته في النهاية:

– "إنه سماد ممتاز."

أومأت صوفي وعادت لكتابها.

– "آه. اقتله إذًا."

ناداها بينديكت:

– "كيف حال الكتاب يا عزيزتي؟"

– "جيد جدًا، في الواقع."

قال أنطوني بحدة:

– "هل ستخرسون جميعًا؟"

ثم، ووجنتاه تتوردان قليلًا، التفت لزوجة أخيه وتمتم:

– "ليس أنتِ بالطبع يا صوفي."

قالت بمرح:

– "سعيدة لكوني مستثناة."

قال بينديكت بهدوء:

– "حاول ألا تهدد زوجتي."

التفت أنطوني لأخيه ورشقه بنظرة حادة.

– "يجب شنقكم وتقطيعكم جميعًا."

ذكره كولن:

– "باستثناء صوفي."

التفت إليه أنطوني بتعبير مميت.

– "تدرك أن هذا المسدس محشو، أليس كذلك؟"

– "لحسن حظي أن قتل الأخ يعتبر أمرًا مرفوضًا تمامًا."

أطبق أنطوني فمه واستدار عائدًا نحو الهدف. نادى وهو يصوب:

– "الجولة الثانية."

– "انتظروووووا!"

تراخى رجال بريدجرتون الأربعة واستداروا، يئون وهم يرون إلويز تندفع مترنحة أسفل التل.

طالبت، وهي تتعثر لتتوقف:

– "هل تطلقون النار؟"

لم يجب أحد. لم يحتج أحد لذلك حقًا. كان الأمر واضحًا تمامًا.

– "بدوني؟"

قال غريغوري:

– "نحن لا نطلق النار. مجرد وقوف بمسدسات."

أضاف كولن للمساعدة:

– "قرب هدف."

– "أنتم تطلقون النار."

قال أنطوني بحدة:

– "بالطبع نطلق النار."

أشار برأسه لليمين.

– "صوفي وحدها. يجب أن تؤنسيها."

وضعت إلويز يديها على وركيها.

– "صوفي تقرأ كتابًا."

قالت صوفي، معيدة انتباهها للصفحات:

– "وهو كتاب جيد أيضًا."

اقترح بينديكت:

– "يجب أن تقرئي كتابًا أنتِ أيضًا يا إلويز. إنها تحسن المرء كثيرًا."

ردت عليه:

– "لا أحتاج لأي تحسين. أعطني مسدسًا."

رد بينديكت:

– "لن أعطيكِ مسدسًا. ليس لدينا ما يكفي للجميع."

قالت إلويز بحدة:

– "يمكننا المشاركة. هل جربت المشاركة من قبل؟ إنها تحسن المرء كثيرًا."

عبس بينديكت في وجهها بطريقة لم تكن تليق برجل في سنه.

قال كولن:

– "أظن أن ما كان بينديكت يحاول قوله هو أنه مُحسّن بقدر ما يمكنه أن يكون."

قالت صوفي، دون حتى رفع عينيها عن كتابها:

– "بالتأكيد."

قال فيليب بشهامة، مناولًا مسدسه لـ إلويز:

– "تفضلي، خذي خاصتي."

أنّ رجال بريدجرتون الأربعة، لكنه قرر أنه يستمتع بإزعاجهم نوعًا ما.

قالت إلويز بامتنان:

– "شكرًا لك."

– "من نباح أنطوني بـ 'الجولة الثانية'، أستنتج أن كلًا منكم أخذ طلقة واحدة؟"

أجاب فيليب:

– "بالفعل."

نظر لإخوتها، الذين بدت عليهم جميعًا تعبيرات بائسة.

– "ما الخطب؟"

هز أنطوني رأسه فقط.

نظر فيليب لـ بينديكت.

تمتم بينديكت:

– "إنها طفرة في الطبيعة."

نظر فيليب لـ إلويز باهتمام متجدد. لم تبدُ طفرة بشكل خاص بالنسبة له.

تمتم غريغوري:

– "أنا منسحب. لم آكل الإفطار بعد."

أخبره كولن:

– "سيكون عليك طلب المزيد. لقد أنهيته كله بالفعل."

أطلق غريغوري تنهيدة منزعجة. تذمر:

– "من العجب أني لم أمت جوعًا، كوني الأخ الأصغر."

هز كولن كتفيه.

– "عليك أن تكون سريعًا إن أردت الأكل."

نظر أنطوني للاثنين بقرف. سأل:

– "هل نشأتما في ميتم؟"

عض فيليب شفته لكبح ابتسامته.

طالبت إلويز:

– "هل سنطلق النار؟"

قال غريغوري، متهالكًا ضد شجرة:

– "بالتأكيد ستفعلين. أنا مغادر للأكل."

لكنه بقي، مراقبًا أخته بتعبير ملل وهي ترفع ذراعها، ودون حتى أن تبدو وكأنها تصوب، أطلقت النار.

طرف فيليب بعينيه دهشة حين أحضر الخادم الهدف.

المركز الميت.

سأل محاولًا عدم فغر فاه:

– "أين تعلمتِ فعل ذلك؟"

هزت كتفيها.

– "لا أستطيع إخبارك. لطالما كنت قادرة على فعله."

تمتم كولن:

– "طفرة في الطبيعة. بوضوح."

قال فيليب:

– "أظن أنه رائع."

نظرت إليه إلويز بعيون لامعة.

– "أحقًا تظن ذلك؟"

– "بالطبع. إن احتجت يومًا للدفاع عن منزلي، سأعرف من أرسل للخط الأمامي."

تهللت أساريرها.

– "أين الهدف التالي؟"

ألقى غريغوري ذراعيه باشمئزاز.

– "أنا أستسلم. سأذهب لآكل شيئًا."

نادى كولن:

– "أحضر شيئًا لي أيضًا."

تمتم غريغوري:

– "بالطبع."

التفتت إلويز لـ أنطوني.

– "هل دورك الآن؟"

أخذ المسدس من يديها ووضعه على الطاولة ليعاد حشوه.

– "وكأن الأمر يهم."

قالت بلهجة رسمية:

– "علينا القيام بالخمس جولات كلها. أنت من وضع القواعد."

قال بوجوم:

– "أعرف."

رفع ذراعه وأطلق طلقة، لكن قلبه لم يكن في الأمر بوضوح، وأخطأ بخمس بوصات.

اتهمته إلويز:

– "أنت لا تحاول حتى!"

التفت أنطوني لـ بينديكت وقال فقط:

– "أكره الرماية معها."

قالت إلويز لـ بينديكت:

– "دورك."

أخذ دوره، وكذلك فعل كولن، وكلاهما بذل جهدًا أكثر قليلًا مما فعل أنطوني، لكنهما لا يزالان بعيدين عن العلامة.

تقدم فيليب للخط الطباشيري، متوقفاً فقط للاستماع حين قالت إلويز:

– "إياك أن تقرر الاستسلام."

همس:

– "لم أكن لأحلم بذلك."

– "جيد. ليس من الممتع اللعب مع خاسرين سيئين."

وجهت الكلمتين الأخيرتين بحدة نحو إخوتها.

قال بينديكت:

– "هذا هو بيت القصيد."

قالت إلويز لـ فيليب:

– "يفعلون هذا في كل مرة. يرمون بشكل سيئ حتى أقرر أن المباراة لا تستحق العناء، وعندها يمرحون جميعًا."

أخبرها فيليب وشفتاه تختلجان:

– "كوني هادئة. أنا أصوب."

– "أوه."

أغلقت فمها بسرعة، مراقبة باهتمام وهو يركز على الهدف.

أطلق فيليب طلقته، سامحًا لنفسه بابتسامة بطيئة راضية حين قُدم الهدف.

هتفت إلويز مصفقة بيديها:

– "مثالي! أوه، فيليب، كان ذلك رائعًا!"

تمتم أنطوني بشيء تحت أنفاسه ربما لم يكن عليه قوله ـفي حضور أخته، ثم أضاف، موجهًا كلماته لـ فيليب:

– "أنت ستتزوجها، أليس كذلك؟ لأنه بصراحة، إن خلصتنا منها وسمحت لها بالرماية معك كي لا تزعجنا، سأضاعف لك مهرها بكل سرور."

كان فيليب واثقًا تمامًا ـفي تلك النقطة من أنه سيتزوجها بلا مقابل، لكنه ابتسم فقط وقال:

– "اتفقنا."

الفصل الثالث عشر

... وكما أثق أنكِ تستطيعين التخيل، كان لديهم جميعًا مزاج عكر للغاية.
أهو خطئي أني متفوقة جدًا؟ لا أظن.
ليس أكثر، كما أفترض، من كونه خطأهم أنهم ولدوا رجالًا،
وبالتالي دون أدنى تلميح للمنطق السليم أو الأخلاق الفطرية الحميدة.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى بينيلوبي فيذرينغتون،
بعد هزيمتها لستة رجال (ثلاثة ليسوا من أقاربها) في مباراة رماية

في اليوم التالي سافرت إلويز إلى رومني هول للغداء، برفقة أنطوني، وبينديكت، وصوفي. أعلن كولن وغريغوري أن بقية العائلة تسيطر على الوضع بشكل كافٍ وقررا العودة لـ لندن، كولن لزوجته الجديدة، وغريغوري لأيًا كان ما يفعله الشباب غير المتزوجين من المجتمع الراقي لملء حياتهم اليومية.

كانت إلويز سعيدة لرؤيتهم يرحلون؛ أحبت إخوتها، لكن حقًا، الأربعة منهم في وقت واحد كان أكثر مما يُتوقع من أي امرأة تحمله.

كانت تشعر بالتفاؤل وهي تنزل من العربة؛ اليوم السابق سار أفضل بكثير مما أملت يومًا. حتى لو لم يأخذها فيليب لمكتب صوفي ليثبت لها أنهما

"سيتوافقان" (لم تستطع إلويز التفكير في تلك الكلمات الآن إلا وكأنها بين علامات تنصيص)، لكان اليوم نجاحًا.

صمد فيليب وأكثر أمام القوة الجماعية لإخوة بريدجرتون، مما تركها تشعر بسرور كبير وأكثر من قليل من الفخر.

عجيب كيف لم يخطر ببالها حتى ذلك الحين أنها لا تستطيع أبدًا الزواج من رجل لا يمكنه مواجهة أي وكل من إخوتها والخروج سالمًا.

وفي حالة فيليب، واجه الأربعة كلهم دفعة واحدة. مثير للإعجاب للغاية.

لا تزال لدى إلويز تحفظات بشأن الزواج، بالطبع. كيف لا؟ هي وفيليب طورا حسًا بالاحترام المتبادل وربما المودة حتى، لكنهما ليسا في حالة حب، ولم تكن لدى إلويز طريقة لمعرفة ما إذا كانا سيصبحان كذلك يومًا.

ومع ذلك، كانت مقتنعة بأنها تفعل الشيء الصحيح بالزواج منه. لم يكن لديها خيار يذكر في الأمر، بالطبع؛ إما الزواج من فيليب أو مواجهة الخراب التام وحياة من الوحدة. لكن حتى مع ذلك، ظنت أنه سيكون زوجًا جيدًا. كان صادقًا وشريفًا، وإن كان هادئًا جدًا في بعض الأحيان، فعلى الأقل يبدو أنه يمتلك حس دعابة، وهو ما شعرت إلويز أنه ضروري لأي زوج محتمل.

وحين قبلها...

حسنًا، كان واضحًا تمامًا أنه يعرف بالضبط كيف يحول ركبتيها لزبدة. وبقيتها أيضًا.

كانت إلويز، بالطبع، عملية. كانت دائمًا كذلك، وعرفت أن الشغف لا يكفي لاستدامة زواج.

لكن، فكرت بابتسامة ماكرة، بالتأكيد لا يمكن أن يضر.

تفقد فيليب الساعة على الرف للمرة الخامسة عشرة في نفس العدد من الدقائق. كان من المقرر وصول آل بريدجرتون في الثانية عشرة والنصف، والوقت تجاوز ذلك بخمس وثلاثين دقيقة. ليس أن خمس دقائق تدعو للقلق حين يضطر المرء للسفر عبر طرق ريفية، لكن مع ذلك، كان من الصعب للغاية

إبقاء أوليفر وأماندا مرتبين ونظيفين، وفوق كل شيء، حسني السلوك بينما ينتظرون معه في غرفة الرسم.

قال أوليفر شادًا معطفه الصغير:

– "أكره هذه السترة."

أخبرته أماندا:

– "إنها صغيرة جدًا."

أجاب بازدراء واضح:

– "أعرف. لو لم تكن صغيرة جدًا، لما اشتكيت."

ظن فيليب أنه كان ليجد شيئًا آخر ليشتكي منه، لكن لم يبدُ هناك داعٍ للتعبير عن هذا الرأي.

تابع أوليفر:

– "وعلى أية حال، فستانك صغير جدًا أيضًا. أستطيع رؤية كاحليك."

قالت أماندا عابسة وهي تنظر لساقيها:

– "يفترض بك أن تكون قادرًا على رؤية كاحلي."

– "ليس بهذا القدر منهما."

نظرت لأسفل مرة أخرى، هذه المرة بتعبير قلق.

قال فيليب بصوت متعب:

– "أنتِ في الثامنة فقط. الفستان مناسب تمامًا."

أو على الأقل أمل أن يكون كذلك، بقلة ما يعرفه عن هذه الأمور.

إلويز، فكر، واسمها يتردد في رأسه كإجابة لصلواته. إلويز ستعرف هذه الأشياء. ستعرف إن كان فستان طفلة قصيرًا جدًا ومتى يجب أن تبدأ الفتاة برفع شعرها وحتى ما إذا كان يجب على الصبي الذهاب لـ إيتون أو هارو.

إلويز ستعرف كل هذه الأشياء.

الحمد لله.

أعلن أوليفر:

– "أظن أنهم تأخروا."

قال فيليب تلقائيًا:

– "لم يتأخروا."

قال أوليفر:

– "أظن أنهم تأخروا. أستطيع قراءة الساعة الآن، أتعلم."

لم يكن فيليب يعلم، مما أحزنه. كان الأمر يشبه إلى حد ما موضوع السباحة. يشبهه كثيرًا، في الواقع.

إلوين، ذكر نفسه. مهما كانت إخفاقاته كأب، فهو يعوض عن كل ذلك بالزواج من الأم المثالية لهما. إنه، لأول مرة منذ ولادتهما، يفعل الشيء الصحيح تمامًا لأطفاله، وكان شعور الراحة يغمره تقريبًا.

إلوين. لم يمكنها الوصول هنا بسرعة كافية.

تباً، لم يمكنه الزواج منها بسرعة كافية. كيف يحصل المرء على رخصة خاصة، على أية حال؟ لم يكن نوع الشيء الذي ظن أنه سيحتاج لمعرفته يومًا، لكن آخر ما أراده هو الانتظار عدة أسابيع لقراءة إعلانات الزواج.

أليست حفلات الزفاف تقام صباح السبت؟ هل يمكنهم تدبر الأمر بحلول هذا السبت؟ إنه بعد يومين فقط، لكن إن استطاعوا الحصول على تلك الرخصة الخاصة...

أمسك فيليب أوليفر من ياقته وهو يحاول الاندفاع خارج الباب.

– "لا. ستنتظر هنا الآنسة بريدجرتون. وستفعل ذلك بهدوء، ودون حوادث، وبابتسامة على وجهك."

بذل أوليفر على الأقل بعض المحاولة للهدوء عند ذكر اسم إلوين، لكن "ابتسامته" (التي أداها طاعة لأمر أبيه) كانت مطة مريعة للشفتين تركت فيليب يشعر وكأنه قابل غولًا مصابًا بفقر الدم لتوّه.

قالت أماندا فورًا:

– "لم تكن تلك ابتسامة."

– "بلى كانت."

– "لا. شفتاك لم تنثنيا حتى للأعلى..."

تنهد فيليب وهو يحاول سد أذنيه من الداخل للخارج. سيتحدث مع أنطوني بريدجرتون بشأن الرخصة الخاصة بعد الظهر. بدا كنوع الشيء الذي سيعرفه الفيكونت.

يوم السبت لا يمكن أن يأتي بسرعة كافية. يمكنه تسليم التوأم لـ إلويز أثناء النهار، و...

ابتسم لنفسه. ويمكنها تسليم نفسها له في الليل.

طالبت أماندا:

- "لمَ تبتسم؟"

قال فيليب، شاعرًا بنفسه يبدأ في - يا إلهي - الاحمرار خجلًا:

- "لست أبتسم."

اتهمته:

- "بلى تبتسم. والآن وجنتاك تتحولان للون الوردي."

تمتم:

- "لا تكوني سخيفة."

أصرت:

- "لست سخيفة. أوليفر، انظر لأبي. ألا تبدو وجنتاه ورديتين؟"

هدد فيليب:

- "كلمة أخرى عن وجنتي، وسأقوم بـ..."

تبًا، كاد يقول يجلدهم بالسوط، لكنهم جميعًا يعلمون أنه لن يفعل ذلك أبدًا.

أنهى في محاولة ضعيفة للتهديد:

- "... سأفعل شيئًا."

بشكل مذهل، نجح الأمر، وبقيا ساكنين وصامتين للحظة. ثم أرجحت أماندا ساقيها من مكان جلوسها على الأريكة وأوقعت مسند قدمين.

نظر فيليب للساعة.

قالت وهي تقفز للأسفل ثم تنحني لتعديله:

- "أوبس. أوليفر!"

أبعد فيليب عينيه عن عقرب الدقائق، الذي، بشكل لا يفسر، لم يصل حتى للثمانية. كانت أماندا ممددة على الأرض، تحدق في أخيها بغضب.

قالت:

- "لقد دفعني."

- "لم أفعل."

- "بلى فعلت."

- "فعـ – – "

قاطعه فيليب:

- "أوليفر. شخص ما دفعها، وأنا واثق تمامًا أنه لم يكن أنا."

عض أوليفر شفته السفلى، ناسيًا التفكير في حقيقة أن مسؤوليته ستكون واضحة تمامًا. اقترح:

- "ربما سقطت بمفردها."

حدق فيليب فيه فقط، آملًا أن يكون التعبير الشرس كافيًا لوأد تلك الفكرة في مهدها.

اعترف أوليفر:

- "حسنًا جدًا. دفعتها. أنا آسف."

طرف فيليب بعينيه دهشة. ربما يتحسن في كونه أبًا. لم يستطع تذكر آخر مرة سمع فيها اعتذارًا غير مطلوب.

قال أوليفر لـ أماندا:

- "يمكنكِ دفعي بالمثل."

قال فيليب بسرعة:

- "أوه، لا. فكرة سيئة. فكرة سيئة للغاية."

قالت أماندا بمرح:

- "حسنًا."

قال فيليب قافزًا لقدميه:

– "لا يا أماندا. لا تقومي بـ – – "

لكنها كانت قد ضغطت بكلتا يديها الصغيرتين على صدر أخيها ودفعت.

تراجع أوليفر متعثرًا مع انفجار ضحك عالٍ. صاح ببهجة:

– "الآن دوري لدفعك."

زمجر فيليب قافزًا فوق مسند قدمين:

– "لن تدفع أختك!"

صاح أوليفر:

– "هي دفعتني!"

– "لأنك طلبت منها ذلك، أيها الوغد الصغير البائس."

أرجح فيليب يده ليمسك كم أوليفر قبل أن ينزلق بعيدًا، لكن الشقي الصغير الماكر كان لزجًا كأنقليس.

صرخت أماندا:

– "ادفعني! ادفعني!"

صاح فيليب:

– "لا تدفعها!"

طفت رؤى لغرفة رسمه بشكل مشؤوم في عقله، الصورة منثورة بأثاث مكسور ومصابيح مقلوبة.

يا إلهي، ومع وصول آل بريدجرتون في أية لحظة.

وصل لـ أوليفر تمامًا كما وصل أوليفر لـ أماندا، وتهاوى الثلاثة، آخذين وسادتين من الأريكة معهم. شكر فيليب الرب على النعم الصغيرة. على الأقل الوسائد غير قابلة للكسر.

تحطم.

– "ما هذا بحق الشيطان؟"

قال أوليفر مبتلعًا ريقه:

– "أظن أنها كانت الساعة."

كيف بحق الأرض تمكنا من إسقاط الساعة عن الرف، لن يعرف فيليب أبدًا. هسهس:

– "أنتما الاثنان منفيان لغرفتكما حتى تبلغا الثامنة والستين."

قالت أماندا بسرعة:

– "أوليفر فعلها."

قال فيليب بحدة:

– "لا يهمني من فعلها. تعلمان أن الآنسة بريدجرتون متوقعة في أي – – "

– "احم."

استدار فيليب ببطء للمدخل، مرعوبًا – لكن غير متفاجئ – لرؤية أنطوني بريدجرتون واقفًا هناك، وبينديكت وصوفي وإلويز خلفه مباشرة.

قال فيليب، وصوته مقتضب أكثر مما ينبغي:

– "سيدي."

حقًا، كان يجب أن يكون أكثر كياسة – لم يكن خطأ الفيكونت أن أطفاله ينقصهم تجاوز واحد فقط ليكونوا وحوشًا كاملة – لكن فيليب لم يستطع تدبر البهجة في تلك اللحظة.

قال أنطوني بهدوء:

– "ربما نقاطعكم؟"

أجاب فيليب:

– "إطلاقًا. كما ترى، نحن فقط... آه... نعيد ترتيب الأثاث."

قالت صوفي بمرح:

– "وتقومون بعمل ممتاز في ذلك."

أرسل فيليب لها ابتسامة ممتنة. بدت من نوع النساء اللاتي يبذلن جهدهن دائمًا لجعل الآخرين يشعرون براحة أكبر، وفي تلك اللحظة كان ليقبلها لذلك.

نهض، متوقفاً لتعديل مسند القدمين المقلوب أثناء ذلك، ثم أمسك بكلا طفليه من ذراعيهما وسحبهما للوقوف. ربطة عنق أوليفر الصغيرة مفكوكة تماماً الآن، ومشبك شعر أماندا يتدلى بتراخٍ قرب أذنها.

قال، بكل ما استطاع حشده من كرامة:

– "اسمحوا لي بتقديم طفليّ، أوليفر وأماندا كرين."

تمتم أوليفر وأماندا بتحياتهما، وبدا كلاهما غير مرتاحين لاستعراضهما أمام هذا العدد من البالغين. إما ذلك، أو ربما يشعران بالخجل حقاً لسلوكهما المشين، مهما بدا ذلك مستبعداً.

قال فيليب، بمجرد أن أدى التوأم واجبهما:

– "حسناً جداً. يمكنكما الانصراف الآن."

نظرا إليه بتعبيرات بائسة.

– "ماذا الآن؟"

سألت أماندا بصوت صغير:

– "أيمكننا البقاء؟"

أجاب فيليب:

– "لا."

دعا آل بريدجرتون للغداء وجولة في دفيئته، واحتاج لاختفاء الأطفال عائدين للحضانة لنجاح أي من المسعيين.

توسلت أماندا:

– "أرجوك؟"

تجنب فيليب النظر لضيوفه بتعمد، مدركاً أنهم جميعاً يشهدون افتقاره التام للسيطرة على أطفاله. قال:

– "المربية إدواردز تنتظركما في الردهة."

قال أوليفر:

– "نحن لا نحب المربية إدواردز."

وأومأت أماندا بجانبه.

قال فيليب بنفاد صبر:

– "بالطبع تحبان المربية إدواردز. إنها مربيتكما منذ أشهر."

– "لكننا لا نحبها."

نظر فيليب لآل بريدجرتون. قال بصوت مقتضب:

– "اعذروني. أعتذر للمقاطعة."

قالت صوفي بسرعة، ووجهها يتخذ طابعًا أموميًا وهي تقيم الموقف:

– "لا عليك."

وجه فيليب التوأم للزاوية البعيدة من الغرفة، ثم عقد ذراعيه وحدق فيهما. قال بصرامة:

– "يا أطفال، لقد طلبت من الآنسة بريدجرتون أن تكون زوجتي."

أضاءت عيناهما.

نخر:

– "جيد. أرى أنكما تتفقان معي على أنها فكرة ممتازة."

– "هل ستـ – – "

قاطعه فيليب، نافد الصبر لدرجة تمنعه من التعامل مع أي من أسئلتهما الآن:

– "لا تقاطعني. أريدكما أن تستمعا إليّ. لا يزال عليّ كسب موافقة عائلتها، ولهذا أحتاج لتسلية ضيوفي وتقديم الغداء لهم، وكل هذا دون أطفال تحت الأقدام."

كان ذلك الحقيقة تقريبًا، على الأقل. لم يحتج التوأم لمعرفة أن أنطوني أمر بالزفاف عمليًا وأن الموافقة لم تعد مشكلة.

لكن شفة أماندا السفلى بدأت ترتجف، وحتى أوليفر بدا منزعجًا. سأل فيليب بتعب:

– "ماذا الآن؟"

سألت أماندا:

– "هل تخجل منا؟"

تنهد فيليب، شاعرًا بالغثيان التام من نفسه. يا إلهي، كيف وصلت الأمور لهذا الحد؟

- "لست..."

- "هل لي بالمساعدة؟"

نظر لـ إلويز وكأنها منقذته. راقب في صمت وهي تجثو قرب طفليه، تخبرهما بشيء بصوت ناعم جدًا لدرجة عجزه عن فهم الكلمات، فقط الجودة اللطيفة للنبرة.

قال التوأم شيئًا كان بوضوح احتجاجًا، لكن إلويز قاطعتهما، مشيرة بيديها وهي تتحدث.

ثم، لذهوله التام والمطبق، ودع التوأم وخرجا للردهة. لم يبدوا سعداء بشكل خاص للذهاب، لكنهما فعلا ذلك على أية حال.

قال فيليب تحت أنفاسه:

- "الحمد لله أني سأتزوجكِ."

همست وهي تتجاوزه بابتسامة سرية عائدة لعائلتها:

- "بالفعل."

تبعها فيليب واعتذر فورًا لـ أنطوني، وبينديكت، وصوفي عن سلوك أطفاله. شرح محاولًا وضع الأمر في أكثر الصيغ قبولًا للعذر:

- "كانا صعبا المراس منذ وفاة أمهما."

قال أنطوني بهدوء:

- "لا شيء أصعب من وفاة أحد الوالدين. من فضلك، لا تشعر بأي حاجة للاعتذار نيابة عنهما."

أومأ فيليب بشكره، ممتنًا لتفهم الرجل الأكبر. قال للمجموعة:

- "تعالوا، لنذهب للغداء."

لكن بينما يقودهم لغرفة الطعام، لاح وجها أوليفر وأماندا كبيرين في ذهنه. عيناهما كانتا حزينتين وهما يبتعدان.

رأى أطفاله عنيدين، لا يطاقون، حتى في نوبات غضب كاملة، لكنه لم يرهما حزينين منذ وفاة أمهما.

كان الأمر مقلقاً للغاية.

بعد الغداء وجولة في الدفيئة، انقسم الخماسي لمجموعتين. أحضر بينديكت كراسة رسم، فبقي هو وصوفي قرب المنزل، يثرثران برضا وهو يرسم الخارج. قرر أنطوني، وإلويز، وفيليب المشي حول الأراضي، لكن أنطوني سمح بتحفظ لـ إلويز وفيليب بالتأخر بضعة ياردات جيدة خلفه، مانحًا الزوجين المخطوبين الفرصة للتحدث ببعض الخصوصية.

سأل فيليب فورًا:

– "ماذا قلتِ للطفلين؟"

قالت إلويز بصدق تام:

– "لا أعرف. حاولت فقط التصرف مثل أمي."

هزت كتفيها.

– "بدا أن الأمر نجح."

فكر في ذلك.

– "لا بد أنه جميل امتلاك والدين يمكن الاقتداء بهما."

نظرت إليه بفضول.

– "ألم تملك ذلك؟"

هز رأسه.

– "لا."

أملت أن يقول المزيد، منحته وقتًا حتى، لكنه لم يتحدث. أخيرًا، قررت الضغط في المسألة وسألت:

– "أكانت أمك أم أبوك من كان صعبًا؟"

– "ماذا تعنين؟"

– "أي والديك كان صعبًا لتلك الدرجة؟"

نظر إليها للحظة طويلة، وعيناه الداكنتان مبهمتان وحاجباه يقتربان قليلًا جدًا. ثم قال:

– "أمي ماتت عند ولادتي."

أومأت.

– "أفهم."

قال بصوت مشدود وأجوف:

– "أشك في ذلك، لكني أقدر محاولتكِ."

مشيا معًا، مبقيين وتيرتهما بطيئة، غير راغبين في الدخول في مدى سمع أنطوني، رغم أن أحدهما لم يكسر الصمت لعدة دقائق. أخيرًا، بينما ينعطفان في المسار نحو الجانب الخلفي للمنزل، نطقت إلويز بالسؤال الذي كانت تموت لطرحه طوال اليوم:

– "لماذا أخذتني لمكتب صوفي بالأمس؟"

تلعثم وتعثر. تمتم ووجنتاه تتحولان للون الوردي:

– "ظننت أن ذلك سيكون واضحًا."

قالت إلويز، محمرة خجلًا حين أدركت بالضبط ما سألته:

– "حسنًا، نعم. ولكن بالتأكيد لم تظن أن ذلك سيحدث."

تمتم:

– "يمكن للرجل أن يأمل دائمًا."

– "أنت لا تعني ذلك!"

– "بالطبع أعنيه. ولكن،" أضاف، وبدا كمن لا يصدق أنه يجري هذه المحادثة، "كما حدث، لا، لم يخطر ببالي أبدًا أن الأمور ستخرج عن السيطرة لتلك الدرجة."

منحها نظرة ماكرة وجانبية.

– "لست آسفًا لحدوثها، مع ذلك."

شعرت بوجنتيها تسخنان.

– "لم تجب على سؤالي بعد."

– "لم أفعل؟"

– "لا."

علمت أنها ملحة لدرجة غير لائقة، لكن مع سير الأمور، بدا هذا أمرًا مهمًا للضغط فيه.

– "لماذا أخذتني هناك؟"

حدق فيها لعشر ثوانٍ كاملة، ليتأكد على الأرجح من أنها ليست معتوهة، ثم ألقى نظرة سريعة على أنطوني ليتأكد من خروجه عن مدى السمع قبل الإجابة:

– "حسنًا، إن كان لا بد أن تعرفي، نعم، نويت تقبيلكِ. كنتِ تثرثرين حول الزواج وتسألينني كل أنواع الأسئلة السخيفة."

وضع يديه على وركيه وهز كتفيه.

– "بدت طريقة جيدة لإثبات أننا متوافقان مرة واحدة وإلى الأبد."

قررت تجاهل وصفه لها بالثرثارة. أصرت:

– "لكن الشغف بالتأكيد لا يكفي لاستدامة زواج."

تمتم:

– "إنه بداية جيدة بالتأكيد. هل يمكننا التحدث عن شيء آخر؟"

– "لا. ما أحاول قوله..."

نخر وقلب عينيه.

– "دائمًا تحاولين قول شيء ما."

قالت بنزق:

– "هذا ما يجعلني ساحرة."

نظر إليها بصبر مصطنع.

– "إلويز. نحن متوافقان وسنستمتع بزواج لطيف وودود تمامًا. لا أعرف ماذا أقول أو أفعل غير ذلك لإثبات الأمر."

قالت بصوت ناعم:

– "لكنك لا تحبني."

بدا أن ذلك أفرغ الهواء من رئتيه، وتوقف وحدق فيها فقط للحظة طويلة. سأل:

– "لمَ تقولين أشياء كهذه؟"

هزت كتفيها بقلة حيلة.

– "لأنها مهمة."

للحظة لم يفعل شيئًا سوى التحديق.

– "ألم يخطر ببالكِ أبدًا أن كل فكرة وشعور لا يحتاج لأن يُنطق به؟"

قالت، وعمر من الندم ملفوف في تلك الكلمة الوحيدة:

– "نعم. طوال الوقت."

نظرت بعيدًا، غير مرتاحة للشعور الأجوف الغريب الذي يتردد في حلقها.

– "لا أستطيع منع نفسي، مع ذلك."

هز رأسه، محتارًا بوضوح، وهو ما لم يفاجئها. نصف الوقت كانت هي تحير نفسها. لمَ أصرت على طرح الموضوع؟ لمَ لا يمكنها أبدًا أن تكون لبقة، خجولة؟

أخبرتها أمها ذات مرة "*يمكنك أن تصطادي ذبابًا بالعسل أكثر مما تفعلين بالمطرقة الثقيلة*"، لكن إلويز لم تستطع تعلم الاحتفاظ بأفكارها لنفسها قط.

لقد سألت السير فيليب عمليًا إن كان يحبها، وصمته كان إجابة بقدر ما كانت ستكون "لا". اعتصر قلبها. لم تظن حقًا أنه سيناقضها، لكن خيبة أملها كانت دليلًا على أن جزءًا صغيرًا منها كان يأمل أن يخر راكعًا ويصرخ أنه يحبها، وأنه يعتز بها، وأنه في الحقيقة واثق تمامًا من أنه سيموت بدونها.

وهو ما كان كله هراءً، ولم تدرِ لمَ تمنته حتى، وهي لا تحبه أيضًا.

لكنها يمكن أن تفعل. كان لديها هذا الشعور بأنها إن منحت الأمر وقتًا كافيًا، يمكنها أن تحب هذا الرجل. وربما أرادته فقط أن يقول المثل.

سألت، والكلمات تعبر شفتيها قبل حتى أن تتاح لها فرصة التفكير في حكمة السؤال:

– "هل أحببت مارينا؟"

جفلت. ها هي ذي مرة أخرى، تطرح أسئلة شخصية للغاية. من العجب أنه لم يرفع ذراعيه ويركض صارخًا في الاتجاه المعاكس بالفعل.

لم يجب للحظة طويلة. وقفا هناك فقط، يراقب أحدهما الآخر، ويحاولان تجاهل أنطوني، الذي كان يتفحص شجرة بجدية على بعد ثلاثين ياردة.

أخيرًا، بصوت منخفض، قال فيليب:

– "لا."

لم تشعر إلويز بالابتهاج؛ ولم تشعر بالحزن. لم تشعر بأي شيء على الإطلاق عند تصريحه، مما فاجأها. لكنها أطلقت زفرة طويلة، لم تكن تدرك أنها كانت تحبسها. وشعرت بنوع من السرور لأنها تعرف الآن.

كانت تكره عدم المعرفة. بخصوص أي شيء.

ولذا لم يكن ينبغي لها حقًا أن تتفاجأ حين همست:

– "لمَ تزوجتها؟"

غسل تعبير فارغ عينيه، وأخيرًا هز كتفيه وقال:

– "لا أعرف. بدا الشيء الصحيح لفعله."

أومأت. كل شيء منطقي جدًا. إنه بالضبط نوع الشيء الذي سيفعله. فيليب دائمًا يفعل الشيء الصحيح، الشيء الشريف، يعتذر عن تجاوزاته، ويحمل أعباء الجميع...

يكرم وعود أخيه.

ثم كان لديها سؤال آخر. همست، وهي تكاد تفقد شجاعتها:

– "هل..."

– "هل شعرت بشغف تجاهها؟"

علمت أنه لا يجب أن تسأل، لكن بعد تلك الظهيرة، كان عليها أن تعرف. الإجابة لم تهم – أو على الأقل أخبرت نفسها أنها لا تهم.

لكن كان عليها أن تعرف.

– "لا."

استدار مبتعدًا، وبدأ يمشي، وخطواته الطويلة تجبرها على القفز للانتباه واللحاق به. لكن فجأة، وحين جمعت سرعة كافية للحاق به، توقف، مما تسبب في تعثرها ووضع يديها على ذراعه فقط للحفاظ على توازنها.

قال، وصوته مفاجئ:

– "لدي سؤال لكِ."

همست، متفاجئة من تغير سلوكه المفاجئ:

– "بالطبع."

ومع ذلك، كان ذلك عدلًا فقط. لقد استجوبت الرجل المسكين عمليًا.

سأل:

– "لمَ تركتِ لندن؟"

طرفت بعينيها دهشة. لم تكن تتوقع شيئًا بإجابة سهلة كهذه.

– "لمقابلتك، بالطبع."

– "هراء."

انفرج فمها لازدرائه الملموس.

– "هذا سبب قدومكِ، وليس سبب رحيلكِ."

لم يخطر ببالها حتى تلك الدقيقة بالذات أن هناك فرقًا، لكنه كان محقًا. لم يكن له علاقة بسبب مغادرتها لـ لندن. لقد وفر وسيلة سهلة للهرب فقط، طريقة للمغادرة دون الشعور بأنها تهرب.

أعطاها شيئًا لتركض إليه، وهو أسهل بكثير في التبرير من الركض من شيء ما.

سأل وصوته منخفض:

– "هل كان لديكِ عشيق؟"

أجابت، بصوت عالٍ بما يكفي ليلتفت أنطوني بالفعل، مجبرًا إياها على الابتسام والتلويح له، مطمئنة إياه أن كل شيء على ما يرام:

– "لا!"

نادت:

– "مجرد نحلة."

اتسعت عينا أنطوني، وبدأ يخطو في اتجاههما.

نادت بسرعة، وهي تشير له بالابتعاد:

– "ذهبت الآن! لا شيء بشأنها!"

التفتت لـ فيليب وشرحت:

– "إنه يخاف النحل بشكل مرضي."

تجهمت.

– "نسيت. كان يجب أن أقول إنه فأر."

نظر فيليب لـ أنطوني، والفضول على وجهه. لم تتفاجأ إلويز؛ كان من الصعب تخيل رجل مثل أخيها يخاف النحل، لكن الأمر منطقي، بالنظر لكيفية موت والدهما بعد لسعة واحدة.

– "لم تجيبي على سؤالي."

تباً. ظنت أنها أبعدته عن الموضوع. سألت:

– "كيف يمكنك سؤاله حتى؟"

هز فيليب كتفيه.

– "كيف لا أفعل؟ هربتِ من المنزل، دون تكبد عناء إخبار عائلتك إلى أين تذهبين..."

قاطعته:

– "تركت رسالة."

– "نعم، بالطبع، الرسالة."

انفرج فمها.

– "ألا تصدقني؟"

أومأ.

– "أصدقك، في الواقع. أنتِ منظمة ورسمية جدًا لدرجة تمنعك من المغادرة دون التأكد من ربط كل خيوطك السائبة."

تمتمت:

– "ليس خطئي أنها اختلطت بدعوات أمي."

صرح، عاقدًا ذراعيه:

– "الرسالة ليست القضية."

عاقدًا ذراعيه؟ صرت على أسنانها. جعله ذلك يشعرها بأنها طفلة، وليس هناك ما يمكنها فعله أو قوله حيال ذلك، لأن لديها شعورًا بأن أيًا كان ما سيقوله بخصوص سلوكها الأخير، فهو محق.

بقدر ما آلمها الاعتراف بذلك.

تابع:

– "حقيقة الأمر هي أنكِ فررتِ من لندن كمجرم في منتصف الليل. خطر لي ببساطة أن شيئًا ما ربما حدث لـ... آه... تلطيخ سمعتك."

عند تعبيرها النزق، أضاف:

– "ليس استنتاجًا غير معقول للوصول إليه."

كان محقًا، بالطبع. ليس بشأن سمعتها – تلك لا تزال نقية ونظيفة كالثلج. لكن الأمر بدا غريبًا، وبصراحة، كان من العجب أنه لم يستفسر عن الأمر بالفعل.

قال بهدوء:

– "إن كان لديكِ عشيق، فلن يغير ذلك من نواياي."

قالت بسرعة، في الغالب فقط لجعله يتوقف عن الحديث عن الأمر:

– "ليس الأمر كذلك على الإطلاق. كان..."

تلاشى صوتها، وتنهدت.

– "كان..."

ثم أخبرته بكل شيء. كل شيء عن عروض الزواج التي تلقتها، وتلك التي لم تتلقها بينيلوبي، والخطط التي وضعتاها مازحتين لتكبرا وتعنسا معًا. وأخبرته بمدى الذنب الذي شعرت به حين تزوجت بينيلوبي وكولن، وكيف لم تستطع التوقف عن التفكير في نفسها ومدى وحدتها.

أخبرته بكل ذلك وأكثر. أخبرته بما في عقلها وما في قلبها، وأخبرته بأشياء لم تخبرها لروح أخرى قط. وخطر لها أنه بالنسبة لامرأة تفتح فمها كل ثانية، هناك الكثير بداخلها لم تشاركه أبدًا.

ثم، حين انتهت (وفي الحقيقة، لم تدرك حتى أنها انتهت؛ نفدت طاقتها وتلاشى صوتها للصمت)، مد يده وأمسك يدها.

قال:

- "لا بأس."

وكان كذلك، أدركت. كان كذلك حقًا.

الفصل الرابع عشر

... أنا أسلم بأن وجه السيد ويلسون يمتلك مسحة برمائية معينة،
لكني أتمنى لو تتعلمين أن تكوني أكثر حذرًا في كلامك قليلًا.
بينما لن أعتبره أبدًا مرشحًا مقبولًا للزواج،
إلا أنه بالتأكيد ليس علجومًا، ولم يكن من اللائق أن تدعوه أختي الصغرى بهذا الاسم، وفي حضوره.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أختها هياسينث،
عقب رفضها لعرض الزواج الرابع

بعد أربعة أيام، كانا قد تزوجا. لم يكن لدى فيليب أدنى فكرة كيف تمكن أنطوني بريدجرتون من فعل ذلك، لكنه حصل على رخصة خاصة، تسمح لهما بالزواج دون إعلان الخطبة وفي يوم اثنين، وهو ما أكدت له إلويز أنه ليس أسوأ من الثلاثاء أو الأربعاء، سوى أنه ليس السبت، كما تقتضي الأصول.

زحفت عائلة إلويز بأسرها، باستثناء أختها الأرملة في اسكتلندا التي لم تملك وقتًا للرحلة، إلى الريف لحضور الزفاف. عادة ما كانت المراسم لتقام في كنت، في مقر عائلة بريدجرتون، أو على الأقل في لندن، حيث تحضر العائلة الكنيسة بانتظام في سانت جورج في ميدان هانوفر، لكن مثل هذه الترتيبات لم

تكن ممكنة في جدول زمني مستعجل كهذا، ولم يكن هذا زفافًا عاديًا على أية حال. عرض بينديكت وصوفي منزلهما للاستقبال، لكن إلويز شعرت أن التوأم سيكونان أكثر راحة في رومني هول، لذا أقاموا المراسم في كنيسة الأبرشية أسفل الطريق، متبوعة باستقبال صغير وحميم على العشب خارج دفيئة فيليب.

في وقت لاحق من اليوم، وبينما بدأت الشمس تميل للغروب، وجدت إلويز نفسها في غرفة نومها الجديدة مع والدتها، التي كانت تشغل نفسها بالتظاهر بدس أغراض في جهاز عروس إلويز المجموع على عجل. كل شيء، بالطبع، كان قد تم الاعتناء به من قبل خادمة إلويز الخاصة (التي أُحضرت من لندن مع العائلة) في وقت سابق من ذلك الصباح، لكن إلويز لم تعلق على انشغال والدتها العاطل. بدا أن فيولت بريدجرتون تحتاج ببساطة لشيء تفعله بينما تتحدث.

وإلويز، من بين كل الناس، تفهمت تلك الحاجة تمامًا.

قالت فيولت لابنتها وهي تطوي طرحتها المخرمة وتضعها برفق فوق خزانة ذات أدراج:

- "يجدر بي الشكوى من حرماني من لحظة مجدي المستحقة كأم للعروس، لكن في الحقيقة أنا سعيدة فقط برؤيتكِ عروسًا."

ابتسمت إلويز برفق لأمها.

- "كنتِ قد يئستِ تمامًا من الأمر، أليس كذلك؟"

- "تمامًا."

لكنها أمالت رأسها للجانب وأضافت:

- "في الواقع، لا. دائمًا ما ظننت أنكِ قد تفاجئيننا في النهاية. كثيرًا ما تفعلين."

فكرت إلويز في كل تلك السنوات منذ ظهورها الأول، وكل عروض الزواج المرفوضة تلك. كل تلك الزيجات التي حضرتاها، وفيولت تشاهد صديقة أخرى تزوج ابنة أخرى لرجل نبيل آخر رائع الأهلية.

رجل آخر، بالطبع، لم يعد بإمكانه الآن الزواج من إلويز، ابنة الليدي بريدجرتون العانس الشهيرة بكونها "باقية على الرف".

همست إلويز:

– "أنا آسفة إن خيبت ظنكِ."

حدقت فيولت فيها بتعبير حكيم.

– "أطفالي لا يخيبون ظني أبدًا. هم فقط... يذهلونني. أعتقد أني أحب الأمر هكذا."

وجدت إلويز نفسها تندفع للأمام لتعانق أمها. شعرت بالخرق وهي تفعل ذلك؛ لم تدرِ لِمَ، بما أن عائلتها لم تثبط أبدًا مثل هذه العروض من المودة في خصوصية منزلهم. ربما لأنها كانت قريبة بشكل خطير من البكاء؛ وربما لأنها استشعرت أن أمها كذلك. لكنها شعرت بأنها فتاة خرقاء مرة أخرى، كلها أذرع وسيقان طويلة ومرافق عظمية وفم يفتح دائمًا حين يجب أن يغلق.

وأرادت أمها.

قالت فيولت، بصوت يشبه كثيرًا ما كان عليه قبل سنوات، حين كانت تهتم بركبة مكشوطة أو مشاعر مجروحة:

– "هونًا، هونًا."

ثم أضافت، ووجهها يتحول للوردي:

– "والآن. والآن إذًا."

تمتمت إلويز:

– "أمي؟"

بدت غريبة جدًا بالفعل، وكأنها أكلت سمكًا فاسدًا.

تمتمت فيولت:

– "أنا أرهب هذا."

– "أمي؟"

بالتأكيد لم تسمع بشكل صحيح.

أخذت فيولت نفسًا عميقًا ومقويًا.

– "علينا أن نجري حديثًا صغيرًا."

رجعت للخلف، نظرت لابنتها في عينها، ثم أضافت:

– "هل علينا أن نجري حديثًا صغيرًا؟"

لم تكن إلويز واثقة ما إذا كانت أمها تسألها إن كانت تعرف تفاصيل الحميمية أم إن كانت تعرفها... بحميمية.

– "آآآه... أنا لم... آه... إن كنتِ تعنين... القصد هو، أني ما زلت..."

قالت فيولت بتنهيدة نابعة من القلب:

– "ممتاز."

ثم أضافت:

– "ولكن هل أنتِ – أعني، هل تدركين...؟"

قالت إلويز بسرعة، راغبة في تجنيب كلتيهما حرجًا لا داعي له:

– "نعم. لا أعتقد أني بحاجة لشرح أي شيء."

قالت فيولت مرة أخرى، وتنهيدتها أكثر عمقًا:

– "ممتاز. يجب أن أقول، إني أمقت هذا الجزء من الأمومة. لا أستطيع حتى تذكر ما قلته لـ دافني، سوى أني قضيت الوقت كله أحمر خجلًا وأتلعثم، وبصدق، ليس لدي أدنى فكرة إن كانت قد غادرت اللقاء بمعرفة أفضل مما وصلت بها."

انثنت زوايا فمها للأسفل.

– "على الأرجح لا، أخشى."

تمتمت إلويز:

– "يبدو أنها تأقلمت مع الحياة الزوجية بشكل جيد."

قالت فيولت بإشراق:

– "نعم، لقد فعلت. أليس كذلك؟ أربعة أطفال صغار وزوج يدللها. لا يمكن للمرء أن يأمل بأكثر من ذلك بالتأكيد."

سألت إلويز:

– "ماذا قلتِ لـ فرانشيسكا؟"

– "عفوًا؟"

كررت إلويز، مشيرة لأختها الصغرى التي تزوجت قبل ست سنوات – وترملت بشكل مأساوي بعد عامين من ذلك:

– "فرانشيسكا. ماذا قلتِ لها حين تزوجت؟ ذكرتِ دافني، لكن ليس فرانشيسكا."

تغيمت عينا فيولت الزرقاوان، كما يحدث دائمًا حين تفكر في ابنتها الثالثة، التي ترملت صغيرة جدًا.

– "أنتِ تعرفين فرانشيسكا. أتوقع أنها كان بإمكانها إخباري بشيء أو اثنين."

شهقت إلويز.

سارعت فيولت للإضافة:

– "لا أعني الأمر بتلك الطريقة، بالطبع. فرانشيسكا كانت بريئة كـ... حسنًا، بريئة مثلكِ، أتصور."

شعرت إلويز بوجنتيها تسخنان وشكرت خالقها على اليوم الغائم، الذي ترك الغرفة مظلمة نوعًا ما. ذلك وحقيقة أن أمها كانت مشغولة بتفحص حاشية ممزقة في فستانها. كانت عذراء تقنيًا، بالطبع، وستجتاز الفحص بالتأكيد لو فحصها طبيب، لكنها لم تعد تشعر بتلك البراءة بعد الآن.

تابعت فيولت، هازة كتفيها وناظرة للأعلى حين أدركت أنه لا يمكنها فعل شيء بشأن الحاشية:

– "لكنكِ تعرفين فرانشيسكا. إنها ماكرة وعليمة. أتوقع أنها رشت خادمة مسكينة لتشرح لها الأمر برمته قبل سنوات."

أومأت إلويز. لم ترد إخبار أمها أنها وفرانشيسكا جمعتا مصروفهما لرشوة الخادمة. كان الأمر يستحق كل بنس، مع ذلك. شرح آني مافيل كان مفصلًا، وكما أخبرتها فرانشيسكا لاحقًا، صحيحًا تمامًا.

ابتسمت فيولت بشجن، ثم مدت يدها ولمست عظم وجنة ابنتها، قرب زاوية عينها مباشرة. الجلد لا يزال متغير اللون قليلًا، لكن الأرجواني تلاشى

عبر الأزرق والأخضر إلى درجة صفراء مريضة نوعًا ما (لكن أقل قبحًا بالتأكيد).

سألت:

– "هل أنتِ واثقة أنكِ ستكونين سعيدة؟"

ابتسمت إلويز بأسف.

– "الوقت متأخر قليلًا للتساؤل، ألا تظنين؟"

– "قد يكون الوقت متأخرًا لفعل شيء حيال الأمر، لكن لا يفت الأوان أبدًا للتساؤل."

قالت إلويز:

– "أظن أني سأكون سعيدة."

آمل ذلك، أضافت، ولكن في عقلها فقط.

– "يبدو رجلًا لطيفًا."

– "إنه رجل لطيف جدًا."

– "شريف."

– "هو كذلك."

أومأت فيولت.

– "أظن أنكِ ستكونين سعيدة. قد يستغرق الأمر وقتًا حتى تدركي ذلك، وقد تشكين في نفسكِ في البداية، لكنكِ ستكونين سعيدة. فقط تذكري..."

توقفت، عاضة شفتها.

– "ماذا يا أمي؟"

قالت ببطء، وكأنها تختار كل كلمة بعناية فائقة:

– "فقط تذكري، أن الأمر يستغرق وقتًا. هذا كل شيء."

ما الذي يستغرق وقتًا؟ أرادت إلويز الصراخ.

لكن أمها كانت قد وقفت بالفعل وتملس تنوراتها بنشاط.

– "أتوقع أن عليّ اصطحاب العائلة للخارج، وإلا فلن يرحلوا أبدًا."

عبثت بفيونكة على فستانها وهي تلتفت بعيدًا قليلًا. ارتفعت إحدى يديها لوجهها، وحاولت إلويز ألا تلاحظ أنها كانت تمسح دمعة.

قالت فيولت مواجهة الباب:

– "أنتِ نافدة الصبر جدًا. لطالما كنتِ كذلك."

قالت إلويز، متسائلة إن كان هذا توبيخًا، وإن كان كذلك، فلمَ تختار أمها فعله الآن؟

– "أعرف."

قالت فيولت:

– "لطالما أحبّت ذلك فيكِ. لطالما أحبّت كل شيء فيكِ، بالطبع، لكن لسبب ما وجدت نفاد صبركِ ساحرًا بشكل خاص دائمًا. لم يكن أبدًا لأنكِ أردتِ المزيد، بل لأنكِ أردتِ كل شيء."

لم تكن إلويز واثقة من أن ذلك يبدو كصفة جيدة.

– "أردتِ كل شيء للجميع، وأردتِ معرفة كل شيء وتعلم كل شيء، و..."

للحظة ظنت إلويز أن أمها قد تكون انتهت، لكن فيولت التفتت وأضافت:

– "لم ترضي أبدًا بثاني أفضل شيء، وهذا جيد يا إلويز. أنا سعيدة لأنكِ لم تتزوجي أيًا من أولئك الرجال الذين تقدموا لكِ في لندن. لم يكن أي منهم ليجعلكِ سعيدة. راضية، ربما، لكن ليست سعيدة."

شعرت إلويز بعينيها تتسعان دهشة.

قالت فيولت بهدوء:

– "لكن لا تدعي نفاد صبركِ يصبح كل ما أنتِ عليه. لأنه ليس كذلك، أتعلمين. هناك الكثير فيكِ، لكني أظن أنكِ تنسين ذلك أحيانًا."

ابتسمت، الابتسامة اللطيفة الحكيمة لأم تودع ابنتها.

– "امنحي الأمر وقتًا يا إلويز. كوني لطيفة. لا تضغطي بشدة."

فتحت إلويز فمها لكنها وجدت نفسها عاجزة تمامًا عن الكلام.

قالت فيولت:

– "كوني صبورة. لا تضغطي."

– "أنا..."

عنت إلويز قول لن أفعل، لكن كلماتها تلاشت، وكل ما استطاعت فعله هو التحديق في وجه أمها، مدركة الآن فقط المعنى الحقيقي لكونها متزوجة.

لقد فكرت كثيرًا في فيليب لدرجة أنها لم تفكر في عائلتها.

إنها تتركهم. ستحتفظ بهم دائمًا بكل الطرق التي تهم، لكن مع ذلك، هي ترحل.

ولم تدرك حتى تلك اللحظة بالذات كم مرة تجلس مع أمها وتتحدثان فقط. أو كم كانت تلك اللحظات ثمينة. بدت فيولت دائمًا تعرف بالضبط ما يحتاجه أطفالها، وهو أمر مذهل حقًا، بما أن هناك ثمانية منهم – ثمانية أرواح مختلفة جدًا، لكل منها آمال وأحلام فريدة.

حتى رسالة فيولت – تلك التي كتبتها وطلبت من أنطوني إعطاءها لها في رومني هول – كانت صحيحة تمامًا، بالضبط ما احتاجت إلويز لسماعه. كان بإمكان فيولت التوبيخ، كان بإمكانها قذف الاتهامات؛ كانت لتكون محقة تمامًا في فعل أي منهما – أو أكثر.

لكن كل ما كتبته كان: "آمل أنكِ بخير. أرجوكِ تذكري أنكِ ابنتي وستظلين دائمًا ابنتي. أحبكِ."

انخرطت إلويز في البكاء. شكرت الله أنها نسيت قراءتها حتى وقت متأخر من الليل، حين تمكنت من فعل ذلك في خصوصية غرفتها بمنزل بينديكت.

لم تفتقر فيولت بريدجرتون لأي شيء يومًا، لكن ثروتها الحقيقية كمنت في حكمتها وحبها، وخطر لـ إلويز، وهي تشاهد فيولت تتجه عائدة للباب، أنها أكثر من مجرد أمها – إنها كل ما تطمح إلويز لأن تكونه.

ولم تصدق إلويز أن الأمر استغرقها كل هذا الوقت لتدركه.

قالت فيولت واضعة يدها على مقبض الباب:

– "أتصور أنكِ والسير فيليب سترغبان في بعض الخصوصية."

أومأت إلويز رغم أن أمها لم تستطع رؤية الإيماءة.

– "سأفتقدكم جميعًا."

قالت فيولت، ونبرتها الحازمة وسيلتها الواضحة لاستعادة رباطة جأشها:

– "بالطبع ستفعلين."

– "وسنفتقدكِ نحن. لكنكِ لن تكوني بعيدة. وستعيشين قريبًا جدًا من بينديكت وصوفي. وبوزي أيضًا. أتوقع أني سآتي لهذا الطريق مرات أكثر للزيارة الآن وقد أصبح لدي حفيدان إضافيان لأدللهما."

مسحت إلويز دموعها. قبلت عائلتها أطفال فيليب فورًا ودون قيد أو شرط. لم تتوقع أقل من ذلك، لكنه مع ذلك أدفأ قلبها أكثر مما تخيلت يومًا. يلعب التوأم بالفعل بصخب مع أحفاد بريدجرتون، وأصرت فيولت على أن يناديا‌ها بـ "الجدة". وافقا بحماس، خاصة بعد أن أخرجت فيولت كيسًا كاملًا من قطرات النعناع ادعت أنه لا بد سقط في حقيبتها في لندن.

ودعت إلويز عائلتها بالفعل، لذا حين غادرت والدتها، شعرت بحق وصدق أنها الليدي كرين. الآنسة بريدجرتون كانت لتعود لـ لندن مع بقية العائلة، لكن الليدي كرين، زوجة مالك أراضي وبارون من غلوسترشاير، بقيت هنا في رومني هول. شعرت بغرابة واختلاف ولامت نفسها على ذلك. قد يظن المرء، في الثامنة والعشرين، أن الزواج لن يبدو خطوة هائلة كهذه. ففي النهاية، ليست فتاة غرة، ولم تكن كذلك لبعض الوقت.

ومع ذلك، أخبرت نفسها، لديها كل الحق في الشعور بأن حياتها تغيرت للأبد. إنها متزوجة، يا للسماء، وسيدة منزلها الخاص. ناهيك عن كونها أمًا لطفلين. لم يضطر أي من إخوتها لتولي مسؤوليات الأبوة بهذه المفاجأة.

لكنها كانت على قدر المهمة. كان عليها أن تكون. قومت كتفيها، ناظرة بتصميم لانعكاسها في المرآة وهي تمشط شعرها. إنها من آل بريدجرتون، حتى لو لم يعد ذلك لقبها القانوني، وهي قادرة على أي شيء. وبما أنها ليست من النوع الذي يحتمل حياة تعيسة، فعليها ببساطة التأكد من أن حياتها ستكون أي شيء سوى ذلك.

دوى طرق على الباب، وحين استدارت إلويز، كان فيليب قد دخل الغرفة. أغلق الباب خلفه لكنه بقي مكانه، مفترضًا على الأرجح منحها بعض الوقت لتتمالك نفسها.

سأل، مومئًا نحو فرشاة شعرها:

– "ألن ترغبي في خادمتكِ لذلك؟"

قالت إلويز وهي تهز كتفيها:

– "أخبرتها أن تأخذ أمسية حرة. بدا غريبًا وجودها هنا، تطفل تقريبًا، أظن."

تنحنح وهو يشد ربطة عنقه، حركة أصبحت مألوفة ومحببة. لم يكن مرتاحًا أبدًا في الملابس الرسمية، كما أدركت، دائمًا يشد أو يتململ ويتمنى بوضوح لو كان في ملابس عمله الأكثر راحة.

كم هو غريب أن يكون لها زوج بمهنة فعلية. لم تفكر إلويز أبدًا في الزواج من رجل كهذا. ليس أن فيليب يعمل في التجارة، لكن مع ذلك، عمله في الدفيئة كان بالتأكيد شيئًا أكثر مما يملأ به معظم الشباب العاطلين من معارفها حياتهم.

أحبّت ذلك، كما أدركت. أحبّت أن لديه غاية ودعوة، أحبّت أن عقله حاد ومنشغل بالبحث الفكري بدلًا من الخيول والمقامرة.

أحبته.

كان ذلك مريحًا. يا له من مأزق كانت لتكون فيه لو لم تفعل.

سأل:

– "أترغبين في بضع دقائق أخرى؟"

هزت رأسها. كانت مستعدة.

اندفع تيار هواء عبر شفتيه. ظنت إلويز أنها ربما سمعت كلمات "الحمد لله"، ثم كانت بين ذراعيه، وكان يقبلها، وأيًا كان ما كانت تفكر فيه، فقد ذهب.

افترض فيليب أنه كان ينبغي له تكريس المزيد من طاقته الذهنية لزفافه، لكن الحقيقة هي أنه لم يستطع إبقاء عقله على أحداث النهار، ليس وأحداث

الليل تلوح قريبة بشكل مغرٍ. كلما نظر لـ إلويز، كلما شم رائحتها حتى، التي بدت في كل مكان، متميزة بين كل العطور الرقيقة لنساء بريدجرتون، شعر بذلك الشد الواشي في جسده، برعشة ترقب وهو يتذكر شعور وجودها بين ذراعيه.

قريبًا، أخبر نفسه، مجبرًا جسده على الاسترخاء، ثم شكر الله لنجاحه الفعلي في المسعى. قريبًا.

ثم أصبح قريباً الآن، وهما وحدهما، ولم يستطع تصديق كم هي جميلة بشعرها الكستنائي الطويل ينسدل في تموجات ناعمة أسفل ظهرها. لم يره منسدلًا قط، كما أدرك، لم يتخيل طوله أبدًا حين كان مدسوسًا في كعكة صغيرة مرتبة عند مؤخرة عنقها.

همس، بمجرد انتهائه من قبلته السابعة:

– "تساءلت دائمًا لمَ تبقي النساء شعورهن مرفوعة."

قالت إلويز، وتبدو محتارة من التعليق:

– "هذا متوقع، بالطبع."

قال:

– "ليس هذا السبب."

لمس شعرها، مرر أصابعه خلاله، ثم رفعه لوجهه وتنفس الرائحة.

– "إنه لحماية الرجال الآخرين."

طارت عيناها لعينيه بدهشة وحيرة.

– "بالتأكيد تعني الحماية من الرجال الآخرين."

هز رأسه ببطء.

– "كنت سأضطر لقتل أي شخص يراكِ هكذا."

– "فيليب."

كانت نبرتها توبيخية، كان واثقًا من ذلك، لكنها كانت تحمر خجلًا وتبدو مسرورة بشكل سخيف بتصريحه.

قال، لافًا خصلة من شعرها الحريري حول أصابعه:

– "لا أحد يرى هذا يمكنه مقاومتكِ. أنا واثق تمامًا من ذلك."

قالت، مانحة إياه ابتسامة استخفاف بالذات وهي تنظر إليه:

– "وجدني الكثير من الرجال قابلة للمقاومة تمامًا. الكثير جدًا، في الواقع."

قال ببساطة:

– "إنهم حمقى. وفضلًا عن ذلك، هذا يثبت نقطتي فقط، أليس كذلك؟ هذا..."

رفع خصلة سميكة طويلة بين وجهيهما، ثم دغدغ بها شفتيه، مستنشقًا عبيرها المسكر.

– "... كان مخفيًا في كعكة لسنوات."

قالت:

– "منذ كنت في السادسة عشرة."

جذبها نحوه، برفق ولكن بحزم لا يقاوم.

– "أنا سعيد. لم تكوني لتصبحي لي أبدًا لو نزعتِ دبابيس شعركِ. لكان شخص آخر قد خطفكِ قبل سنوات."

همست، وصوتها يرتجف قليلًا:

– "إنه مجرد شعر."

وافق:

– "أنتِ محقة. لا بد أنكِ كذلك، لأنه على أي شخص آخر، لا أظن أنه سيكون مسكرًا هكذا. لا بد أنه أنتِ."

همس، تاركًا الخصلات تسقط من أصابعه.

– "أنتِ فقط."

ضمَّ وجهها بين كفَّيه، وأماله قليلًا إلى الجانب ليُيسِّر على نفسه تقبيلها. كان يعرف طعم شفتيها، بل كان قد قبَّلهما بالفعل قبل دقائق قليلة. ومع ذلك، فوجئ بحلاوتها، بدفء أنفاسها وفمها، وبالطريقة التي اشتعل بها جسده نارًا من قبلة واحدة.

غير أنّها لم تكن – ولن تكون أبدًا – قبلة عابرة. ليس معها هي.

انزلقت أصابعه إلى مشابك فستانها، أزرار صغيرة مكسوّة بالقماش تصطفّ في مسيرة هادئة على امتداد ظهرها. قطع القبلة وقال آمرًا:

– "استديري."

لم يكن متمرّسًا إلى حدٍّ يسمح له بفكّ تلك الأزرار دون أن يراها. ثم إنّه كان يستمتع بهذا... بهذا التعرّي البطيء، حيث يكشف كل زرّ نصف بوصة أخرى من بشرة كريمية ناعمة.

كانت له، أدرك ذلك وهو يُمرّر إصبعًا واحدًا على طول عمودها الفقري قبل أن ينتقل إلى الزرّ الثالث من الأسفل. له إلى الأبد. بدا من الصعب تصديق مقدار الحظ الذي ناله، لكنه عزم ألّا يُمعن التفكير في حسن طالعِه، بل أن يستمتع به فحسب.

زرّ آخر. هذا كشف مربعًا صغيرًا من اللحم عند قاعدة ظهرها.

لمسها. فارتجفت.

انتقلت أصابعه إلى الزرّ الأخير. لم يكن بحاجة فعلًا إلى فكّه؛ كان فستانها واسعًا بما يكفي لينزلق عن كتفيها. لكنه شعر بأن عليه أن يفعل هذا كما ينبغي، أن يُجرِّدها كما يليق، أن يتذوّق اللحظة كاملة.

ثم إنّ هذا الزرّ الأخير كشف انحناءة أردافها.

أراد أن يُقبّلها. أراد أن يُقبّلها هناك تحديدًا، عند أعلى الشقّ، وهي واقفة مواجهة للجهة الأخرى، ترتجف لا من برد، بل من توقٍ مشتعل.

مال نحوها، وضغط شفتيه على مؤخرة عنقها فيما استقرّت يداه على كتفيها. كانت هناك أشياء شديدة الإثم على بريئة مثل إلويز.

لكنها كانت له. زوجته. وكانت نارًا وشغفًا وطاقة ملفوفة في جسد واحد. لم تكن مارينا – ذكّر نفسه – تلك الهشّة القابلة للكسر، العاجزة عن التعبير عن أي شعور سوى الحزن.

لم تكن مارينا. وكان عليه أن يُذكّر نفسه بذلك، لا الآن فقط، بل على مدار اليوم، كلما نظر إليها. لم تكن مارينا، ولم يكن مضطرًا أن يحبس أنفاسه

بقربها، خائفًا من كلماته، من تعابير وجهه، من أي شيء قد يدفعها إلى الانكفاء داخل نفسها، إلى يأسها الخاص.

هذه كانت إلويز. إلويز. القوية، المهيبة، إلويز.

دون أن يستطيع كبح نفسه، هوى على ركبتيه، قابضًا على وركي إلويز بقوة حين أطلقت همسة دهشة وحاولت أن تستدير.

وقبَّلها. هناك تمامًا، عند قاعدة عمودها الفقري، في الموضع الذي أغراه كل هذا الوقت. ثم – ولم يكن يدري لماذا؛ خبرته بالنساء كانت محدودة، لكن خياله كان يعوّض ذلك بوفرة – مرَّر لسانه على ذلك الخطّ الأوسط، هابطًا على طول ظهرها حتى بداية الشقّ، متذوّقًا ملوحة بشرتها الحلوة، متوقّفًا – دون أن يبتعد بشفتيه – حين أنَّت، وأسندت يديها إلى الحائط لتتوازن بعدما عجزت عن الوقوف.

– "فيليب"، شهقت.

نهض وأدارها نحوه، وانحنى حتى كادا يتلامسان أنفًا بأنف. قال بعجز:

– "كان هناك."

وكأنّ ذلك يفسّر كل شيء. وفي الحقيقة، لم يكن هناك تفسير آخر. كان هناك، ذلك الموضع الصغير المغري من الجلد، ورديًّا بلون الخوخ، ينتظر قبلة.

كانت هناك، وكان عليه أن يمتلكها.

قبَّل فمها مجددًا وهو يدع فستانها ينزلق عن جسدها. كانت قد تزوّجت بالأزرق، بدرجة شاحبة من اللون ذاته الذي يجعل عينيها أعمق وأكثر عصفًا من أي وقت مضى، كسماء ملبّدة قبل العاصفة.

كان فستانًا سماويًّا – كان قد سمع أختها دافني تقول لها ذلك في وقت سابق من ذلك اليوم.

لكنّ تجريدها منه كان أكثر سماوية.

لم تكن ترتدي قميصًا داخليًّا، وكان يعلم أنّها عارية أمامه، وسمعها تشهق حين لامست أطراف ثدييها كتان قميصه الناعم. لكنه بدل أن ينظر، مرَّر

يده على جانب ثديها، تداعب سلامياته برفق انحناءة الامتلاء. ثم، وهو يواصل تقبيلها، تقوّست يده حتى صار يحتضنها، شاعِرًا بالثقل الأخّاذ بين أصابعه.

– "فيليب"، أنَّت، وغاص الاسم في فمه كبركة.

حرّك يده مرة أخرى حتى غمرها بالكامل، فانزلقت حلمةٌ متيقّظة بين أصابعه. وحين ضغط – برفق، بتوقير – لم يستطع، بعد كل شيء، أن يصدّق أنّ هذا كله يحدث فعلًا.

ثم لم يعد يستطيع الانتظار. كان عليه أن يراها، أن يرى كل جزء منها، وأن يراقب وجهها وهو يفعل. تراجع، قاطعًا قبلتهما بوعدٍ هامس بأنّه سيعود حالًا.

حبس أنفاسه وهو يتأمّلها. لم يكن الظلام قد حلّ بعد، وكانت بقايا الضوء الأخير تتسلّل عبر النوافذ، تغمر بشرتها بتوهّج ذهبيٍّ مائل إلى الأحمر. كان ثدياها أكبر مما تخيّل، ممتلئين، مستديرين، طريّين، وكان بالكاد يستطيع مقاومة اندفاعه لحملها إلى السرير في تلك اللحظة. كان بوسعه أن يتنعّم بهما إلى الأبد، أن يحبّهما ويعبدهما حتى...

يا إلهي، مَن كان يخدع؟ حتى يشتدّ احتياجه هو، فلا يعود قادرًا على الاحتمال، فيضطرّ إلى امتلاكها، إلى الغوص فيها، إلى التهامها.

بأصابع مرتجفة، انشغل بأزرار قميصه، يراقبها وهي تراقبه وهو يمزّق القماش عن جسده. ثم نسي، واستدار...

فشهقت هي.

تجمّد في مكانه.

– "ماذا حدث؟" همست.

لم يكن يعلم لماذا فاجأه الموقف إلى هذا الحد، لماذا شعر بأن عليه الشرح. كانت زوجته، وستراه عاريًا كل يوم لبقية حياته، وإن كان هناك من سيعرف طبيعة ندوبه، فستكون هي.

كان يستطيع أن يتجاهلها، إذ كانت على ظهره وخارج نطاق رؤيته، لكن إلويز لن تكون محظوظة مثله.

قال دون أن يستدير:

– "لقد جُلدت."

– "مَن فعل هذا بك؟" كان صوتها منخفضًا وغاضبًا، وكان غضبها يدفئ قلبه.

– "أبي."

تذكّر فيليب ذلك اليوم جيدًا. كان في الثانية عشرة، عائدًا من المدرسة، حين أجبره والده على مرافقته في الصيد. كان فيليب فارسًا جيدًا، لكن ليس بما يكفي للقفزة التي تقدّم بها والده.

حاولها مع ذلك، إذ كان يعلم أنّه سيُوصم بالجبن إن لم يحاول. فسقط، بل طُرح أرضًا. وعلى نحوٍ معجز، نهض دون إصابة، لكن والده كان ثائرًا.

كان توماس كرين يمتلك رؤية ضيّقة جدًّا للرجولة الإنجليزية، ولم يكن السقوط عن صهوة الجواد جزءًا منها. كان أبناؤه سيركبون، ويطلقون، ويبارزون، ويتلاكمون، ويتفوّقون، ويتفوّقون، ويتفوّقون.

وليت الله يعينهم إن لم يفعلوا.

كان جورج قد اجتاز القفزة بالطبع. كان دائمًا أفضل قليلًا في كل ما يتعلّق بالرياضة. وكان كذلك أكبر منه بعامين، وأقوى بعامين. حاول التدخّل، أن يُنقذ فيليب من العقاب، لكن توماس جلده هو الآخر، موبّخًا إيّاه على التدخّل. كان على فيليب أن يتعلّم كيف يكون رجلًا، ولم يكن توماس ليتسامح مع أي تدخل، حتى من جورج.

لم يكن فيليب متيقّنًا مما جعل عقاب ذلك اليوم مختلفًا؛ عادةً ما كان والده يستخدم حزامًا لا يترك أثرًا فوق القميص. لكنهما كانا قرب الإسطبلات، وكان السوط في متناول اليد، وكان والده غاضبًا لدرجة تفوق المعتاد.

وحين شقّ السوط قميص فيليب، لم يتوقّف توماس.

كانت تلك المرّة الوحيدة التي تركت فيها ضربات والده ندوبًا ظاهرة.

وبقي فيليب يحمل هذا التذكير معه طيلة حياته.

التفت إلى إلوين، التي كانت تراقبه بنظرة شديدة الغرابة في عينيها. قال:

– "أنا آسف."

قالها رغم أنّه لم يكن كذلك. لم يكن هناك ما يُعتذر عنه، سوى أنّه اضطرّها لمواجهة رعب طفولته.

زمجرت:

– "أنا لست آسفة."

اتّسعت عيناه دهشة.

– "أنا غاضبة."

ولم يستطع منع نفسه. ضحك. أرجع رأسه إلى الخلف وضحك. كانت كاملة على نحوٍ لا يُصدَّق، عارية وغاضبة، مستعدّة للنزول إلى الجحيم ذاته لجرّ والده وتوبيخه.

بدت منزعجة قليلًا من ضحكه في توقيت غريب كهذا، ثم ابتسمت هي الأخرى، كأنّها أدركت أهمية اللحظة.

أخذ يدها، ويائسًا من رغبة أن تلمسه، وضعها على قلبه، ضاغطًا إياها حتى انفرجت أصابعها، وغاصت في شعر صدره الناعم المرن.

– "قويٌّ جدًّا"، همست، وراحت يدها تنزلق برفق على جلده. "لم أكن أعلم أن العمل في الدفيئة شاقٌّ إلى هذا الحد."

شعر كصبيٍّ في السادسة عشرة، مسرورًا بمديحها. وانسابت ذكرى والده بعيدًا بهدوء. قال بخشونة:

– "أعمل في الخارج أيضًا."

– "مع العمّال؟" تمتمت.

نظر إليها متسلّيًا:

– "إلويز بريدجرتون—"

– "كرين"، صحّحت.

اندفعت فيه موجة سرور عند كلمتها.

– "كرين"، كرّر. "لا تخبريني أنّك تُخفين خيالات سرّية عن عمّال المزرعة."

- "بالطبع لا"، قالت، "مع أنّ..."

لم يكن ليترك تلك الكلمات تتلاشى.

- "مع أنّ ماذا؟"

بدت خجولة قليلًا.

- "حسنًا، إنهم يبدون... بدائيين جدًا... هناك تحت الشمس، وهم يعملون."

ابتسم ببطء، كرجلٍ مقبل على وليمة حلمه المتحقّق.

- "آه يا إلويز"، قال، وهو يُنزل شفتيه على عنقها ثم يهبط، يهبط، يهبط. "لا فكرة لديكِ عمّا يعنيه البدائي. لا فكرة على الإطلاق."

ثم فعل ما كان يحلم به منذ أيام – حسنًا، أحد الأشياء التي كان يحلم بها – وأخذ حلمتها في فمه، يُدير لسانه حول الحافة قبل أن يُطبق ويمتصّ.

- "فيليب!" كادت تصرخ، وهي تذوب فيه.

حملها بين ذراعيه ومضى بها إلى السرير، المُهَيَّأ سلفًا وينتظر العروسين. وضعها فوق الملاءات، وتوقّف ليستمتع بالمشهد قبل أن ينشغل بجواربها، آخر ما تبقّى على جسدها. اندفعت يداها تلقائيًّا لتستر عورتها، فترك لها حياءها، عالمًا أنّ دوره سيأتي قريبًا.

أدخل أصابعه تحت حافة أحد الجوارب، يداعبها عبر الحرير الرقيق قبل أن يُنزله على ساقها. أنَّت حين تجاوز ركبتها، فلم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال:

- "دغدغة؟"

أومأت.

- "وأكثر."

وأكثر. أحبّ ذلك. أحبّ أنّها تشعر بالمزيد، وأنّها تريد المزيد.

تخلّص من الجورب الآخر بسرعة أكبر، ثم وقف إلى جانبها، وأصابعه تتّجه إلى مشابك سرواله. توقّف لحظة، ونظر إليها، ينتظر أن تخبره بعينيها أنّها مستعدّة.

ثم، وبسرعة وخفّة لم يكن يحلم بامتلاكهما، جرّد نفسه من بقية ثيابه واستلقى إلى جوارها. توتّرت لحظة، ثم استرخَت حين أخذ يلامسها، تصدر شفتيه أصوات تهدئة وهو ينتقل إلى صدغها، ثم إلى شفتيها.

– "لا شيء يدعو للخوف"، همس.

– "أنا لست خائفة"، قالت.

ابتعد قليلًا، ونظر في وجهها.

– "ألستِ خائفة؟"

– "متوترة، لكن لست خائفة."

هزّ رأسه إعجابًا.

– "أنتِ مهيبة."

– "أقول ذلك للجميع دائمًا"، قالت بلا مبالاة مع هزّة كتفين، "لكن يبدو أنّك الوحيد الذي يصدّقني."

ضحك بخفوت، يهزّ رأسه غير مصدّق. بالكاد كان يصدّق أنّه هنا، في ليلة زفافه، وهو يضحك. مرّتان الآن جعلته تضحك، وبدأ يدرك أنّ هذا نعمة. نعمة مذهلة، لا تُقدَّر بثمن، وهو محظوظ حقًّا بنيلها.

كان الجماع دائمًا مسألة حاجة، مسألة جسده وشهوته وكل ما يجعله رجلًا. لم يكن يومًا عن هذا الفرح، هذا العجب في اكتشاف إنسان آخر.

أمسك وجهها بين كفّيه وقبّلها مجددًا، هذه المرّة بكل ما يفيض فيه من شعور. قبّل فمها، ثم خدّها، ثم عنقها. وراح يهبط، يستكشف جسدها من كتفيها إلى بطنها إلى جانب وركها.

تجاوز موضعًا واحدًا فقط، موضعًا كان يرغب بشدّة في استكشافه، لكنه قرّر أن ذلك سيأتي لاحقًا، حين تكون مستعدّة.

حين يكون هو مستعدًّا.

لم تسمح له مارينا يومًا بتقبيلها هناك – لا، لم يكن ذلك منصفًا؛ في الحقيقة لم يطلب قط. بدا الأمر خاطئًا وهي مستلقية تحته، ساكنة صامتة،

كأنّها تؤدّي واجبًا. كانت هناك نساء قبل زواجه، لكنّهنّ كنّ خبيرات، ولم يرغب يومًا أن يكون حميميًّا إلى هذا الحدّ معهنّ.

لاحقًا، وعد نفسه وهو يتوقّف لحظة ليداعب تجعيدات شعرها.

قريبًا. قريبًا جدًّا.

لفّ كفّيه الكبيرتين حول ربْلتيها، ثم صعد بهما، مُباعدًا ساقيها ليتمكّن من الاستقرار بينهما.

كان متصلّبًا بشدّة، خائفًا من أن يُحرج نفسه، فأخذ أنفاسًا عميقة وهو يلمس مدخلها، محاولًا تهدئة دمه ليجعل هذه اللحظة تدوم بما يكفي لتستمتع هي.

– "آه، إلويز"، قال، وإن كان أقرب إلى زُمجرة. كان يريدها أكثر من أي شيء، أكثر من الحياة نفسها، ولم يكن يدري كيف سيصمد.

– "فيليب؟" سألت، وفي صوتها مسحة قلق.

ابتعد قليلًا ليرى وجهها.

– "أنتَ كبير جدًّا"، همست.

ابتسم.

– "ألا تعلمين أنّ هذا بالضبط ما يتمنّى الرجل سماعه؟"

– "أفترض ذلك"، قالت وهي تقضم شفتها السفلى. "يبدو الأمر مما تتباهون به وأنتم تتسابقون بالخيل، وتلعبون الورق، وتتنافسون بلا سبب واضح."

لم يكن متيقّنًا إن كان يرتجف من الضحك أم من الفزع.

– "إلويز"، تمكّن من القول، "أؤكّد لكِ—"

قاطعت:

– "كم سيؤلم ذلك؟"

– "لا أعلم"، قال بصدق. "لم أكن ـفي موضعكِ من قبل. قليلًا، على ما أظنّ. آمل ألّا يكون كثيرًا."

أومأت، وقدّرت صراحته.

– "أنا أظلّ..." وتلاشت كلماتها.

– "قولي لي"، حثّها.

لثوانٍ لم تفعل سوى أن ترمش، ثم قالت:

– "أجد نفسي منجرفة، كما في المرة الماضية، ثم أراك، أو أشعر بك، ولا أستطيع تخيّل كيف سينجح هذا، وأخشى أن أتمزّق، فأفقده. السحر"، أوضحت.

– "أفقد السحر."

وعندها قرّر – إلى الجحيم بكل شيء. لماذا ينتظر؟ ولماذا تنتظر هي؟ انحنى وقبّلها سريعًا على فمها.

– "ابقي هنا"، قال. "لا تذهبي إلى أي مكان."

قبل أن تسأل – وكانت إلوين، فبالطبع كان لديها أسئلة – انزلق إلى أسفل، وباعد ساقيها على اتّساعهما، كما كان يستلقي متخيّلًا ليلًا، وقبّلها. صرخت.

– "جيد"، تمتم، وذابت كلماته في صميمها. أمسكها بقوة؛ لم يكن لديه خيار، كانت تتلوّى وتنتفض كوحش بري. لعق وقبّل، وتذوّق كل شبر، كل تجويف مغرٍ. كان شرهًا، التهمها، مفكّرًا أنّ هذا لا بدّ أن يكون أفضل ما فعله في حياته بأسرها، وحمد الله أنّه رجل متزوّج الآن، ويمكنه أن يفعل ذلك متى شاء.

كان قد سمع رجالًا آخرين يتحدّثون عنه، بالطبع، لكن لم يخطر بباله قطّ أن يكون بهذه الروعة. كان على وشك أن يفقد نفسه تمامًا، وهي لم تلمسه بعد. وليس أنّه كان يريدها أن تفعل في تلك اللحظة – بالطريقة التي كانت تقبض بها على الملاءات، ومفاصل أصابعها البيضاء المشدودة، اللعنة، كانت ستمزّقه نصفين.

كان ينبغي أن يتركها تبلغ نهايتها، أن يظلّ يقبّلها حتى تنفجر في فمه، لكن احتياجه هو طغى، ولم يكن أمامه خيار. كانت ليلة زفافه، وحين يفرغ

نفسه، فسيكون داخلها، لا على الملاءات، إن لم يشعر بها تضيق حوله قريبًا، كان متيقّنًا أنّه سيشتعل.

فرفع نفسه، متجاهلًا صرخة ضيقها حين أبعد شفتيه، وتقدّم، مستقرًّا بعضوه عليها مرة أخرى، ثم استخدم أصابعه ليُباعدها أكثر وهو يدفع إلى الأمام.

كانت مبتلّة – مبتلّة جدًّا – مزيجًا منها ومنه، ولم يكن ذلك شبيهًا بأي إحساس عرفه من قبل. انزلق مباشرة، ممرّها سهلًا وضيقًا في آنٍ واحد.

شهقت باسمه، وشهق باسمها، ثم، عاجزًا عن الإبقاء على إيقاعه بطيئًا، اندفع، مخترقًا آخر حواجزها حتى غاص إلى النهاية. وربما كان ينبغي أن يتوقّف، وربما كان عليه أن يسألها إن كانت بخير، إن كانت تشعر بألم، لكنه لم يستطع. كان الانتظار طويلًا إلى حدٍّ ملعون، وكان احتياجه لها ملعونًا إلى حدٍّ أكبر، وما إن بدأ جسده يتحرّك حتى لم يعد هناك ما يوقفه.

كان سريعًا وخشنًا، لكنها لا بدّ أنّها أحبّت ذلك، لأنها كانت سريعة وخشنة تحته، وركاها تطحنان وركيه بقوّة محتاجة، وأصابعها تغرس نفسها في ظهره.

وحين أنَّت، لم يكن اسمه. كان:

– "المزيد!"

أدخل أصابعه تحتها، قابضًا على أردافها، ضاغطًا بقوّة وهو يميل بها ليمنحه دخولًا أسهل، ولا بدّ أنّ تغيير الوضع أثّر في الطريقة التي كان يحتكّ بها، أو لعلّها بلغت حدّها، لأنها تقوّست تحته، تصلّبت حتى ارتجفت، ثم انفلتت صرخة من حلقها وهو يشعر بعضلاتها تنقبض حوله.

لم يعد يحتمل. بصيحة أخيرة اندفع، يرتعش ويرتجف وهو يفرغ نفسه، مُعلنًا امتلاكها أخيرًا، وبلا محو، على أنّها له.

الفصل الخامس عشر

... لا أصدق أنك لن تخبريني بالمزيد.
بصفتي أختك الكبرى (بعام كامل، لا يجب أن أضطر لتذكيرك)،
أستحق قدرًا معينًا من الاحترام، وبينما أقدر إخبارك لي
بأن وصف آني مافيل للحب الزوجي كان صحيحًا،
كنت أود الحصول على بضعة تفاصيل تتجاوز ذلك الوصف المقتضب.
بالتأكيد لستِ غارقة في نعيمك لدرجة تمنعكِ من تخصيص بضع كلمات
(الصفات، على وجه الخصوص، ستكون مفيدة) لأختكِ الحبيبة.

- من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أختها كونتيسة كيلمارتن،
بعد أسبوعين من زفاف فرانشيسكا

بعد أسبوع واحد، كانت إلويز تجلس في الردهة الصغيرة التي حُولت مؤخرًا لمكتب لها، تمضغ طرف قلمها الرصاص وهي تحاول مراجعة حسابات المنزل. كان يُفترض بها عد الأموال، وأكياس الطحين، وأجور الخدم، وما شابه، لكن في الحقيقة كل ما استطاعت عده هو عدد المرات التي مارست فيها الحب مع فيليب.

ثلاث عشرة، فكرت. لا، أربع عشرة. حسنًا، خمس عشرة في الواقع، إن حسبت تلك المرة التي لم يدخل فيها داخلها حقًا، لكنهما كلاهما...

احمرت خجلًا، رغم عدم وجود روح في الغرفة غيرها، وليس وكأن أحدًا سيعرف فيم كانت تفكر على أية حال.

لكن يا إلهي، هل فعلت ذلك حقًا؟ قبلته هناك؟

لم تكن تعلم حتى أن شيئًا كهذا ممكن. بالتأكيد لم تصف آني مافيل أي شيء من هذا القبيل حين ألقت درسها الصغير لـ إلويز وفرانشيسكا قبل كل تلك السنوات.

جعدت إلويز وجهها وهي تعود بذاكرتها. تساءلت إن كانت آني مافيل تعلم حتى بإمكانية حدوث أشياء كهذه.

كان من الصعب تخيل آني تفعل ذلك، لكن مرة أخرى، كان من الصعب تخيل أي شخص يفعل ذلك، وخاصة نفسها.

كان أمرًا مذهلًا، كما فكرت، مذهلًا تمامًا وفوق الوصف أن يكون لها زوج مجنون بها هكذا. لم يريا بعضهما البعض كثيرًا خلال النهار – لديه عمله في النهاية، ولديها عملها، نوعًا ما – لكن في الليل، بعد أن يمنحها خمس دقائق لزينتها (بدأت بعشرين، لكن بدا أنها تقصر تدريجيًا، ويمكنها حتى سماع خطواته وهو يذرع المكان جيئة وذهابًا خارج الباب خلال الدقائق القليلة التي يمنحها إياها الآن)...

في الليل، ينقض عليها كرجل ممسوس. رجل جائع، حقًا. بدت طاقته لا تنفد، وكان دائمًا يجرب أشياء جديدة، يضعها في وضعيات جديدة، يداعب ويعذب حتى تصرخ وتتوسل، غير واثقة أبدًا إن كانت تريده أن يتوقف أم يستمر.

قال إنه لم يشعر بشغف تجاه مارينا، لكن إلويز وجدت صعوبة في تصديق ذلك. إنه رجل ذو شهية قوية (كلمة سخيفة، لكنها لم تستطع التفكير في أي طريقة أخرى لوصف الأمر)، والأشياء التي يفعلها بيده...

وبفمه...

وبأسنانه...

وبلسانه...

احمرت مرة أخرى. الأشياء التي يفعلها – حسنًا، يجب أن تكون المرأة نصف ميتة كي لا تستجيب.

نظرت لأسفل مرة أخرى للأعمدة في دفترها. الأرقام لم تجمع نفسها بأعجوبة بينما كانت تحلم في اليقظة، وكلما حاولت إلويز التركيز، بدأت تسبح أمام عينيها. نظرت عبر النافذة؛ لم تستطع رؤية دفيئة فيليب من موقعها، لكنها علمت أنها حول الزاوية مباشرة، وأنه بداخلها، يكدح، يقص الأوراق ويزرع البذور وأيًا كان ما يفعله هناك طوال اليوم.

طوال اليوم.

قطبت جبينها. كانت عبارة مناسبة جدًا في الواقع. فيليب يقضي اليوم بأكمله في الدفيئة، غالبًا ما يتناول وجبة الغداء محمولة إليه على صينية. علمت أنه ليس أمرًا غير طبيعي تمامًا للرجل وزوجته أن يعيشا حياة منفصلة خلال النهار (وبالنسبة للعديد من الأزواج، في الليل أيضًا)، لكنهما متزوجان منذ أسبوع واحد فقط.

والحق يقال، هي لا تزال بطرق عديدة تتعلم من هو زوجها الجديد. جاء الزواج بسرعة كبيرة؛ هي لا تعرف عنه الكثير حقًا. أوه، تعرف أنه صادق وشريف وسيعاملها جيدًا، والآن تعرف أنه يمتلك جانبًا جسديًا لم تكن لتحلم أبدًا بأنه يكمن تحت مظهره المتحفظ.

لكن عدا ما عرفته عن والده، لا تعرف تجاربه، وآراءه، وما حدث في حياته ليجعله الرجل الذي هو عليه الآن. حاولت، أحيانًا، استدراجه للحديث، ونجحت أحيانًا، لكن في أغلب الأحيان، تلاشت محاولاتها.

لأنه لا يبدو راغبًا أبدًا في الحديث حين يمكنه التقبيل. وذلك، حتمًا، يؤدي إلى دفعه لها نحو غرفة النوم، حيث تُنسى الكلمات.

وفي المرات القليلة التي نجحت فيها في إشراكه في محادثة، أثبت الأمر أنه ليس أكثر من تمرين في الإحباط. كانت لتسأله عن رأيه في أي شيء يتعلق

بالمنزل، على سبيل المثال، وكان ليهز كتفيه فقط ويخبرها أن عليها التعامل مع الأمر كما تراه مناسبًا.

أحيانًا تساءلت إن كان تزوجها فقط لكسب مدبرة منزل.

وبالطبع، جسد دافئ في سريره.

لكن يمكن أن يكون هناك المزيد. علمت إلويز أنه يمكن أن يكون هناك المزيد للزواج، علمت أنه يمكن أن يكون هناك المزيد في الزواج. لم تستطع تذكر الكثير من فترة زواج والديها، لكنها رأت إخوتها مع أزواجهم، وظنت أنها وفيليب قد يجدان النعيم نفسه لو قضيا فقط القليل من الوقت معًا خارج غرفة النوم.

وقفت فجأة ومشت للباب. يجب أن تتحدث معه. لا يوجد سبب يمنعها من الذهاب للدفيئة والتحدث معه. ربما سيقدر حتى سؤالها عن عمله.

لن تستجوبه، بالضبط، لكن بالتأكيد لا ضرر في سؤال أو اثنين، تدسهما في المحادثة. وإن ألمح حتى لأنها تزعجه أو تصعب عليه العمل، فستغادر فورًا.

لكن حينها سمعت صوت أمها يتردد في رأسها.

لا تضغطي يا إلويز. لا تضغطي.

تطلب الأمر قوة إرادة لم تظن أنها تملكها، بما أنه خالف كل ميولها الطبيعية، لكنها توقفت، واستدارت، وجلست مرة أخرى.

لم تعرف أمها مخطئة أبدًا في أي شيء مهم حقًا، وإن رأت فيولت من المناسب إسداء نصيحة في ليلة زفافها، شكت إلويز نوعًا ما في أنه يجب عليها إيلاءها اهتمامًا دقيقًا.

هذا، فكرت بعبوس نكد، لا بد أنه ما عنته أمها حين قالت امنحي الأمر وقتًا.

حشرت يديها تحت مؤخرتها، وكأنها تمنعهما من الامتداد للأمام وقيادتها عائدة نحو الباب.

نظرت عبر النافذة، ثم اضطرت لتحويل نظرها لأنه رغم عدم قدرتها على رؤية الدفيئة، علمت أنها هناك تمامًا، حول الزاوية مباشرة.

هذه ليست، فكرت وهي تصر على أسنانها، حالتها الطبيعية. لم تكن أبدًا من النوع الذي يستطيع الجلوس ساكنًا والابتسام بينما يفعل ذلك. خُلقت لتتحرك، لتفعل، لتستكشف، لتتساءل. وإن أرادت الصدق – لتزعج، وتضايق، وتصرح بآرائها لأي شخص يستمع أيضًا.

قطبت جبينها، وتنهدت. حين توضع الأمور هكذا، لا تبدو شخصًا جذابًا للغاية.

حاولت تذكر خطاب أمها ليلة الزفاف. بالتأكيد كان هناك شيء إيجابي فيه أيضًا. أمها تحبها، في النهاية. لا بد أنها قالت شيئًا جيدًا. ألم يكن هناك شيء عن كونها ساحرة؟

تنهدت. إن كانت تذكر بشكل صحيح، قالت أمها إنها تجد نفاد صبرها ساحرًا، وهو ما لا يماثل حقًا إيجاد طبع شخص ما الجيد ساحرًا.

كم هذا مريع. إنها في الثامنة والعشرين، يا للسماء. أبحرت خلال حياتها كلها تشعر بسعادة تامة بمن هي وكيف تتصرف.

حسنًا، سعادة شبه تامة. عرفت أنها تتحدث كثيرًا وربما مباشرة أكثر مما ينبغي أحيانًا، وحسنًا جدًا، لا يحبها الجميع، لكن معظم الناس يفعلون، وقررت منذ زمن بعيد أن ذلك لا بأس به بالنسبة لها.

لماذا الآن إذًا؟ لماذا هي فجأة غير واثقة من نفسها هكذا، خائفة جدًا من فعل أو قول الشيء الخطأ؟

وقفت. لا تستطيع احتمال هذا – التردد، قلة الفعل. ستعمل بنصيحة أمها وتمنح فيليب قليلًا من الخصوصية، لكن بحق الله، لا يمكنها الجلوس هنا لا تفعل شيئًا للحظة واحدة أخرى.

نظرت للأسفل نحو الدفاتر غير المكتملة. أوه، يا عزيزي. لو كانت تفعل ما يفترض بها فعله، لما كانت لا تفعل شيئًا، أليس كذلك؟

بزفرة انزعاج صغيرة، أغلقت الدفاتر بقوة. لم يهم حقًا إن كان بإمكانها جمع أرقامها، لأنها عرفت نفسها جيدًا بما يكفي لتعرف أنها لن تجمعها، حتى لو جلست هنا، لذا قد تذهب وتفعل شيئًا آخر.

الأطفال. هذا هو. أصبحت زوجة قبل أسبوع، لكنها أصبحت أمًا أيضًا. وإن كان أحد يحتاج للتدخل في حياته، فهما أوليفر وأماندا.

مدعومة بحسها الجديد بالهدف، سارت خارج الباب، تشعر وكأنها نفسها القديمة مرة أخرى. تحتاج للإشراف على دروسهما، والتأكد من تعلمهما بشكل صحيح. أوليفر سيحتاج للتحضير لـ إيتون، حيث يجب حقًا تسجيله في فصل الخريف.

ثم هناك ملابسهما. لقد كبرا تمامًا على كل شيء في خزانتهما، وأماندا تستحق شيئًا أجمل، و...

تنهدت برضا وهي تسرع صاعدة الدرج. كانت تضع علامات بالفعل على مشاريعها بأصابعها، وتخطط ذهنيًا للخياطة والخياط، ناهيك عن صياغة الإعلان الذي تنوي وضعه لتأمين خدمات بضعة معلمين آخرين، لأنهما بحاجة ماسة لتعلم الفرنسية والبيانو، وبالطبع، الحساب – وهل هما أصغر من أن يتعلموا القسمة المطولة؟

شاعرة بالمرح نوعًا ما، دفعت باب الحضانة مفتوحًا، ثم...

توقفت فجأة، محاولة استيعاب ما يجري.

عينا أوليفر حمراوان، وكأنه كان يبكي، وأماندا تشهق، ماسحة أنفها بظهر يدها. كلاهما يأخذ تلك الأنفاس المتقطعة الشبيهة بالحازوقة التي يفعلها المرء حين يكون منزعجًا.

سألت إلويز، ناظرة أولًا للطفلين ثم لمربيتهما:

– "هل هناك خطب ما؟"

لم يقل التوأم شيئًا، لكنهما نظرا إليها بعيون واسعة متوسلة.

سألت إلويز:

– "مربية إدواردز؟"

التوت شفتا المربية في عبوس غير سار.

– "إنهما يعبسان فقط لأنهما عوقبا."

أومأت إلويز ببطء. لم يكن مفاجئًا على الإطلاق أن يفعل أوليفر وأماندا شيئًا يستوجب العقاب، لكن مع ذلك، كان هناك شيء خاطئ فيما تراه. ربما كانت النظرة المنكسرة في عينيهما، وكأنهما جربا التحدي ويئسا منه.

ليس وكأنها تريد تشجيع التحدي، خاصة ليس ضد مربيتهما، التي تحتاج للحفاظ على منصب سلطتها في غرفة الدراسة، لكنها لا تريد أبدًا رؤية هذا التعبير في عيونهما – متواضع تمامًا، وديع وحزين.

سألت إلويز:

– "لماذا عوقبا؟"

جاء رد مربيتهما الفوري:

– "حديث غير محترم."

تنهدت إلويز.

– "أرى ذلك."

ربما استحق التوأم العقاب؛ غالبًا ما يتحدثان بقلة احترام وهو شيء وبختهما عليه بنفسها في عدة مناسبات.

– "وما العقاب الذي وُقع؟"

قالت المربية إدواردز، وظهرها مستقيم كقضيب:

– "ضُربا على مفاصل أصابعهما."

أجبرت إلويز فكها على الارتخاء. لم تحب العقاب البدني، لكن في الوقت نفسه، الضرب على المفاصل كان عنصرًا أساسيًا في أفضل المدارس. كانت واثقة تمامًا أن كل إخوتها ضُربت مفاصلهم في مناسبات عديدة في إيتون؛ لم تستطع تخيل أنهم اجتازوا كل تلك السنوات دون عدد من التجاوزات التأديبية.

مع ذلك، لم تحب النظرة في عيني الطفلين، لذا أخذت المربية إدواردز جانبًا وقالت بهدوء:

– "أفهم حاجتهما للانضباط، لكن إن كان عليكِ فعل هذا مرة أخرى، يجب أن أطلب منكِ فعله برفق أكبر."

قالت المربية بحدة:

– "إن فعلته برفق، فلن يتعلما درسهما."

قالت إلويز، وقد استشاطت غضبًا من نبرة المربية:

– "سأكون أنا الحكم على دروسهما المتعلمة. ولم أعد أطلب. أنا أخبركِ، إنهما طفلان، ويجب أن تكوني ألطف."

زمت المربية إدواردز شفتيها، لكنها أومأت. مرة واحدة، بحدة، لتظهر أنها ستفعل ما طُلب منها، لكنها لا توافق – وتستنكر تدخل إلويز.

التفتت إلويز عائدة للطفلين وقالت بصوت عالٍ:

– "أنا واثقة تمامًا أنهما تعلما درسهما لهذا اليوم. ربما يمكنهما أخذ استراحة قصيرة معي."

قالت المربية إدواردز:

– "نحن نتدرب على الخط. لا يمكننا تحمل أي وقت ضائع. خاصة إن كان يُفترض بي العمل كمربية ومربية تعليمية معًا."

قالت إلويز:

– "أؤكد لكِ أني أخطط لمعالجة تلك المشكلة بأسرع ما يمكن. وأما اليوم، فسأكون سعيدة بممارسة الخط مع الطفلين. يمكنكِ الاطمئنان إلى أنهما لن يتأخرا."

– "لا أظن..."

رمقتها إلويز بنظرة حادة. لم تكن من آل بريدجرتون عبثًا، وبحق الله، كانت تعرف كيف تتعامل مع الخدم المتمردين.

– "ما عليكِ سوى إخباري بخطط دروسك."

بدت المربية نكدة للغاية، لكنها أخبرت إلويز أنهم يتدربون اليوم على الأحرف M، N، و O. أضافت بحدة:

– "بالحجمين الكبير والصغير."

قالت إلويز، مانحة صوتها نغمة متعالية:

– "أفهم. أنا واثقة تمامًا أني مؤهلة في ذلك المجال الخاص من البحث العلمي."

احمر وجه المربية إدواردز من السخرية. قالت بفظاظة:

– "أهذا كل شيء؟"

أومأت إلويز.

– "بالفعل. يمكنكِ الانصراف. استمتعي بوقتك فراغك – بالتأكيد لا تحصلين على ما يكفي منه، وأنتِ تخدمين في وظيفتين كما تفعلين، كمربية ومربية تعليمية – ومن فضلك عودي للإشراف على غدائهم."

برأس مرفوع، غادرت المربية إدواردز الغرفة.

أعلنت إلويز، ملتفتة باهتمامها للطفلين، اللذين كانا لا يزالان جالسين على طاولتهما الصغيرة، يحدقان فيها وكأنها إلهة صغيرة، نزلت للأرض لغرض وحيد هو إنقاذ الأطفال من الساحرات الشريرات:

– "حسنًا إذًا. هل نـ – – "

لكنها لم تستطع إنهاء سؤالها، لأن أماندا قذفت نفسها عليها، رامية ذراعيها حول وسطها بقوة كافية لضرب ظهرها بالجدار. وسرعان ما تبعها أوليفر.

قالت إلويز، مربتة على شعرهما بحيرة:

– "هونًا، هونًا. ما الخطب بحق السماء؟"

جاء رد أماندا المكتوم:

– "لا شيء."

تراجع أوليفر للخلف ووقف مستقيمًا كالرجل الصغير الذي يخبره الناس دائمًا أن يكونه. ثم أفسد التأثير بمسح أنفه بظهر يده.

ناولته إلويز منديلًا.

استخدمه، وأومأ شاكرًا، وقال:

– "نحن نحبك أكثر من المربية إدواردز."

لم تستطع إلويز تخيل حب أي شخص أقل من المربية إدواردز، وأقسمت سرًا على البحث عن بديل في أقرب وقت ممكن. لكنها لم تكن لتقول شيئًا للطفلين عن هذا؛ فمن المؤكد تقريبًا أنهما سينقلان المعلومة للمربية، التي إما ستستقيل فورًا، تاركة إياهم جميعًا في مأزق مريع، أو ستصب إحباطها وغضبها على الأطفال، وهو ما لن يكون مقبولًا على الإطلاق.

قالت موجهة إياهما نحو الطاولة:

– "لنجلس. لا أعرف عنكما، لكني لا أريد مواجهتها إن لم نتدرب على الـ Ms، Ns، و Os."

وفكرت في نفسها: يجب حقًا أن أتحدث مع فيليب بشأن هذا.

نظرت لأسفل ليدي أوليفر. لم تبدوا متضررتين، لكن أحد مفاصل الأصابع بدا أحمر قليلًا. ربما كان خيالها، لكن مع ذلك...

تحتاج للتحدث مع فيليب. حالما تتمكن من ذلك.

دندن فيليب لنفسه وهو ينقل شتلة بعناية، مدركًا تمامًا أنه قبل زواجه، كان يعمل دائمًا في صمت مطبق.

أدرك أنه لم يشعر برغبة في التصفير من قبل، لم يرغب قط في الغناء بصوت خافت لنفسه أو الدندنة. لكن الآن... حسنًا، الآن بدا وكأن الموسيقى ببساطة في الهواء، حوله تمامًا. شعر باسترخاء أكبر أيضًا، وبدأت عقد التوتر المستمرة في كتفيه بالذوبان.

الزواج من إلويز كان، ببساطة، أفضل شيء كان يمكن أن يفعله. تباً، سيذهب لأبعد من ذلك ليقول إنه أفضل شيء فعله في حياته.

كان، لأول مرة في الذاكرة الحديثة، سعيدًا.

بدا الأمر بسيطًا جدًا الآن، أن تكون سعيدًا.

ولم يكن واثقًا حتى من إدراكه لعدم سعادته من قبل. بالتأكيد ضحك في مناسبات، واستمتع بوقته من حين لآخر– لم يكن، كما كان الحال لـ مارينا، تعيسًا تمامًا وبشكل دائم.

لكنه لم يكن سعيداً. ليس بالطريقة التي هو عليها الآن، يستيقظ كل يوم بشعور أن العالم مكان رائع بالفعل وأنه سيظل مكاناً رائعًا حين يخلد للفراش تلك الليلة ومرة أخرى حين ينهض في الصباح التالي.

لم يستطع تذكر آخر مرة شعر فيها هكذا. ربما ليس منذ أيام جامعته، حين تذوق لأول مرة إثارة الاكتشاف الفكري – وكان بعيداً بما يكفي عن والده بحيث لا يضطر للقلق بشأن التهديد المستمر بالعصا.

كان من الصعب عد الطرق التي حسنت بها إلويز حياته. هناك، بالطبع، وقتهما في غرفة النوم، الذي كان يتجاوز أي شيء قد تخيله. لو حلم حتى بأن الجماع يمكن أن يكون رائعًا هكذا، ما كان ليبقى عزبًا كل تلك الفترة. مستحيل أن يفعل، بصراحة، إن كانت شهيته الحالية مؤشرًا.

لكنه ببساطة لم يكن يعلم. ممارسة الحب بالتأكيد لم تكن هكذا مع مارينا. أو مع أي من النساء اللاتي عبث معهن كفتى جامعي، قبل زواجه.

لكن إن كان صادقاً مع نفسه – وكانت تلك مهمة صعبة، بالنظر لمدى هوس جسده بجسد إلويز – فالجماع لم يكن السبب الرئيسي لشعوره الحالي بالرضا.

كان ذلك الشعور – تلك المعرفة، حقاً – بأنه أخيرًا، وحقاً، ولأول مرة منذ أصبح أبًا، فعل الشيء الصحيح تمامًا للتوأم.

لن يكون أبًا مثاليًا أبدًا. عرف ذلك، وحتى إن كرهه، قبله. لكنه فعل أخيرًا ثاني أفضل شيء، وأحضر لهما الأم المثالية.

كان الأمر وكأن ألف رطل من الذنب قد رُفعت عن كاهله.

لا عجب أن عضلاته شعرت أخيرًا بأنها غير معقودة ومرتاحة.

يمكنه الذهاب لدفيئته في الصباح ولا يقلق. لم يستطع تذكر آخر مرة فعل فيها ذلك، ببساطة دخل وعمل دون أن يجفل كلما سمع ضجيجًا عاليًا أو صرخة. أو كان قادرًا على التركيز في عمله دون أن يشرد عقله في الذنب، عاجزًا عن التركيز على أي شيء سوى نقائصه كأب.

لكن الآن يدخل وينسى كل همومه. تباً، ليس لديه هموم.

كان الأمر رائعًا. سحريًا.

راحة.

وإن كانت زوجته تنظر إليه أحيانًا وكأنها تريده أن يقول شيئًا مختلفًا أو يفعل شيئًا مختلفًا – حسنًا، عزا ذلك للحقيقة البسيطة بأنه رجل وهي امرأة، ونوعه لن يفهم نوعها أبدًا، وحقًا، يجب أن يكون ممتنًا فقط لأن إلويز تقول دائمًا ما تعنيه بالضبط، وهو أمر جيد جدًا، بما أنه لا يُترك دائمًا يخمن ما هو متوقع منه.

ماذا كان ذلك الشيء الذي قاله أخوه دائمًا – احذر المرأة التي تطرح أسئلة. لن تجيب بشكل صحيح أبدًا.

ابتسم فيليب لنفسه، مستمتعًا بالذكرى. بهذا المعنى، لا داعي للقلق إن تلاشت محادثاتهما أحيانًا للعدم. معظم الوقت تتلاشى مباشرة للفراش، وهو ما كان جيدًا تمامًا بالنسبة له.

نظر لأسفل للانتفاخ المتشكل في بنطاله. تباً. سيتعين عليه التوقف عن التفكير في زوجته في منتصف النهار. أو على الأقل، إيجاد طريقة للعودة بحذر للمنزل في حالته هذه والعثور عليها بسرعة.

لكن فجأة، وكأنها عرفت أنه يقف هناك يفكر في مدى كمالها، وأرادت إثبات ذلك مرة أخرى، فتحت باب الدفيئة وأطلت برأسها للداخل.

نظر فيليب حوله وتساءل لمَ بنى الهيكل بالكامل من الزجاج. قد يحتاج لتركيب نوع من ساتر الخصوصية إن كانت ستأتي للزيارة بشكل منتظم.

– "هل أنا أتطفل؟"

فكر في ذلك. هي كذلك، في الواقع؛ كان في منتصف شيء ما، لكنه أدرك أنه لا يمانع. وهو ما كان غريبًا ومرضيًا نوعًا ما في الوقت نفسه. دائمًا ما كان ينزعج من المقاطعات من قبل. حتى حين يكون شخصًا يستمتع بصحبته، بعد بضع دقائق يجد نفسه يتمنى لو يغادر فقط ليتمكن من العودة لأي مشروع وضعه جانبًا لأجلهم.

قال:

– "إطلاقًا، إن لم تكوني منزعجة من مظهري."

نظرت إليه، مستوعبة التراب والطين، بما في ذلك اللطخة التي كان شبه واثق من وجودها على خده الأيسر، وهزت رأسها.

– "لا مشكلة على الإطلاق."

– "ما الذي يقلقكِ؟"

قالت دون مقدمات:

– "إنها مربية الأطفال. لا أحبها."

لم يكن ذلك ما توقعه. وضع مجرفته جانبًا.

– "لا تحبينها؟ ما الخطب بها؟"

– "لا أعرف بالضبط. فقط لا أحبها."

– "حسنًا، هذا بالكاد سبب لإنهاء توظيفها."

رقت شفتا إلويز قليلًا، علامة مؤكدة، كما بدأ يدرك، على أنها منزعجة. قالت:

– "ضربت مفاصل أصابع الأطفال."

تنهد. لم يحب فكرة ضرب شخص لأطفاله، لكن مرة أخرى، إنها مجرد ضربة مفاصل. لا شيء لا يحدث في كل غرفة دراسة عبر البلاد. وفكر باستسلام، أطفاله ليسوا بالضبط نماذج للسلوك الجيد. وهكذا، راغبًا في الأنين، سأل:

– "هل استحقوا ذلك؟"

اعترفت إلويز:

– "لا أعرف. لم أكن هناك. قالت إنهما تحدثا معها بقلة احترام."

شعر فيليب بكتفيه يتهدلان قليلًا.

– "لسوء الحظ، لا أجد صعوبة في تصديق ذلك."

قالت إلويز:

– "لا، بالطبع لا. أنا واثقة أنهما كانا وحشين صغيرين. لكن مع ذلك، بدا أن هناك شيئًا غير صحيح."

استند للخلف على منضدة عمله، ساحبًا يدها حتى تعثرت ضده.

– "انظري في الأمر إذًا."

انفرجت شفتاها دهشة.

– "ألا تريد النظر في الأمر؟"

هز كتفيه.

– "لست أنا من لديه مخاوف. لم يكن لدي سبب للشك في المربية إدواردز من قبل، لكن إن كنتِ تشعرين بعدم الارتياح، فبكل الوسائل، يجب أن تحققي. فضلًا عن ذلك، أنتِ أفضل في هذا النوع من الأشياء مني."

تململت قليلًا وهو يسحبها نحوه ويداعب عنقها بأنفه.

– "لكنك والدهما."

قال، وكلماته تخرج سميكة وساخنة ضد بشرتها:

– "وأنتِ أمهما."

كانت مسكرة، وكان يتوجع رغبة، وإن استطاع فقط جعلها تتوقف عن الكلام، يمكنه على الأرجح مناورتها لغرفة النوم، حيث يمكنهما الحصول على متعة أكبر بكثير.

قال، ظانًا أن ذلك سيرضيها – وفضلًا عن ذلك، كانت الحقيقة:

– "أنا أثق بحكمكِ. لهذا تزوجتكِ."

بوضوح، فاجأتها إجابته.

– "لهذا أنت... ماذا؟"

تمتم، محاولًا معرفة مقدار ما يمكنه لمسه مع وجود الكثير من الملابس بينهما:

– "حسنًا، هذا أيضًا."

صرخت، ناترة نفسها بعيدًا:

– "فيليب، توقف!"

ما هذا بحق الشيطان؟ سأل فيليب – بحذر، فمن خبرته، المحدودة وإن كانت، يجب على المرء دائمًا توخي الحذر مع امرأة غاضبة:

– "إلويز، ما الخطب؟"

طالبت، وعيناها تومضان بخطورة:

– "ما الخطب؟ كيف يمكنك حتى سؤال ذلك؟"

قال ببطء، ومع لمسة من السخرية:

– "حسنًا، قد يكون ذلك لأني لا أعرف ما الخطب."

– "فيليب، هذا ليس الوقت المناسب."

– "لسؤالك عما هو خطأ؟"

كادت تصرخ:

– "لا!"

تراجع فيليب خطوة للخلف. الحفاظ على الذات، فكر بتهكم. بالتأكيد هذا ما يجب أن يدور حوله الجانب الذكوري من المشاحنات الزوجية. الحفاظ على الذات ولا شيء غيره.

بدأت تلوح بذراعيها بطريقة غريبة.

– "لفعل هذا."

نظر حوله. كانت تلوح لمنضدة العمل، لنباتات البازلاء، للسماء في الأعلى، التي تغمز عبر ألواح الزجاج.

قال، وصوته متزن عمدًا:

– "إلويز، لست رجلًا غير ذكي، لكنني لا أملك أدنى فكرة عما تتحدثين عنه."

انفرج فمها، وعرف أنه في ورطة. سألت:

– "لا تعرف؟"

ربما كان عليه الالتفات لتحذيراته الخاصة بشأن الحفاظ على الذات، لكن شيطانًا صغيرًا – شيطانًا ذكرًا منزعجًا، كان واثقًا – أجبره على القول:

– "أنا لا أقرأ العقول يا إلويز."

قالت أخيرًا بصرير أسنان:

– "ليس الوقت المناسب لتكون حميميًا."

وافق:

– "حسناً، بالطبع لا. ليس لدينا ذرة من الخصوصية. لكن،" ابتسم لمجرد التفكير في الأمر، "يمكننا دائمًا العودة للمنزل. أعلم أنه منتصف النهار، ولكن..."

– "ليس هذا ما عنيته على الإطلاق!"

قال عاقدًا ذراعيه:

– "حسناً جدًا. أنا أستسلم. ماذا تعنين يا إلويز؟ لأني أؤكد لكِ، ليس لدي أدنى فكرة."

تمتمت:

– "الرجال."

– "سآخذ ذلك كإطراء."

نظرتها كانت لتجمد نهر التايمز. جمدت رغبته تمامًا، مما أزعجه بلا حدود، بما أنه كان يتطلع للتخلص منها بطريقة أخرى تمامًا.

قالت:

– "لم يُقصد كذلك."

استند للخلف على منضدة العمل، وقفته المسترخية مقصودة لإزعاجها.

قال بهدوء:

– "إلويز، حاولي منح قدر ضئيل من الاحترام لذكائي."

ردت عليه:

– "من الصعب ذلك حين تظهر القليل جدًا منه."

طفح الكيل. انفجر:

– "لا أعرف حتى لمَ نتجادل! في دقيقة كنتِ راغبة بين ذراعي، وفي التالية تصرخين كجنية نائحة."

هزت رأسها.

– "لم أكن راغبة قط بين ذراعيك."

كان الأمر وكأن قاع عالمه سقط.

لا بد أنها رأت الصدمة على وجهه، لأنها أضافت بسرعة:

– "اليوم. عنيت اليوم فقط. الآن فقط، في الواقع."

تهالك جسده ارتياحًا، حتى بينما كان الباقي منه يغلي غضبًا.

شرحت:

– "كنت أحاول التحدث معك."

أشار:

– "دائمًا تحاولين التحدث معي. هذا كل ما تفعلينه. كلام كلام كلام."

تراجعت للخلف. قالت بصوت حاد:

– "إن لم يعجبك ذلك، ما كان يجب أن تتزوجني."

قال بفظاظة:

– "ليس وكأنني ملكت خيارًا في الأمر. إخوتك كانوا مستعدين لخصيي. وفقط كي لا ترسميني باللون الأسود تمامًا، أنا لا أمانع كلامك. فقط ليس، بحق حب الرب، طوال الوقت."

بدت كمن تحاول قول شيء ذكي وقاطع للغاية، لكن كل ما استطاعت فعله هو فغر فاهها كسمكة وإصدار أصوات مثل: "آه! آه!"

قال، شاعرًا بتفوق تام:

– "بين الحين والآخر، قد تفكرين في إغلاق فمك واستخدامه لغرض آخر."

قالت غاضبة:

– "أنت، لا تطاق."

رفع حاجبيه، عالمًا أن ذلك سيزعجها.

قالت بصرير أسنان:

– "أنا آسفة لأنك تجد ميلي للكلام مسيئًا هكذا، لكني كنت أحاول التحدث معك حول شيء مهم، وأنت حاولت تقبيلي."

هز كتفيه.

– "دائمًا أحاول تقبيلكِ. أنتِ زوجتي. ماذا بحق الجحيم يفترض بي فعله غير ذلك؟"

قالت:

– "لكن أحيانًا لا يكون الوقت مناسبًا. فيليب، إن أردنا زواجًا جيدًا..."

قاطعها وصوته دفاعي ومرير:

– "نحن لدينا زواج جيد."

قالت بسرعة:

– "نعم، بالطبع، لكن لا يمكن أن يكون دائمًا حول... أتعلم."

قال، متغابيًا عمدًا:

– "لا. لا أعلم."

صرت إلويز أسنانها.

– "فيليب، لا تكن هكذا."

لم يقل شيئًا، فقط شدد عقد ذراعيه وحدق في وجهها.

أغمضت عينيها، واهتز ذقنها قليلًا للأمام بينما تحركت شفتاها. وأدرك أنها تتحدث. لم تكن تصدر صوتًا، لكنها لا تزال تتحدث.

يا إلهي، المرأة لا تتوقف أبدًا. حتى الآن تتحدث لنفسها.

سأل أخيرًا:

– "ماذا تفعلين؟"

لم تفتح عينيها وهي تقول:

– "أحاول إقناع نفسي بأنه لا بأس بتجاهل نصيحة أمي."

هز رأسه. لن يفهم النساء أبدًا.

قالت أخيرًا، تمامًا حين قرر أنه سيغادر ويتركها تتحدث لنفسها بخصوصية:

– "فيليب. أنا أستمتع كثيرًا بما نفعله في السرير..."

قال بفظاظة، لا يزال منزعجًا جدًا ليكون لطيفًا:

– "من اللطيف سماع ذلك."

تجاهلت افتقاره للكياسة.

– "لكن لا يمكن أن يكون الأمر مقتصرًا على ذلك."

– "ذلك؟"

– "زواجنا."

احمرت خجلًا، غير مرتاحة بوضوح لمثل هذا الكلام الصريح.

– "لا يمكن أن يكون فقط حول ممارسة الحب."

تمتم:

– "بالتأكيد يمكن أن يكون جزءًا كبيرًا منه حول ذلك."

– "فيليب، لمَ ترفض مناقشة هذا معي؟ لدينا مشكلة، ونحتاج للحديث عنها."

ثم انقطع شيء بداخله ببساطة. هو مقتنع بأن زواجه مثالي، وهي تشتكي؟ كان واثقًا جدًا من أنه أصاب هذه المرة. قال بصرير أسنان:

– "نحن متزوجان منذ أسبوع واحد يا إلويز. أسبوع واحد. ماذا تتوقعين مني؟"

– "لا أعرف. أنا..."

– "أنا مجرد رجل."

قالت بهدوء:

– "وأنا مجرد امرأة."

لسبب ما، كلماتها الهادئة لم تزده إلا انزعاجًا. مال للأمام، مستخدمًا حجمه عمدًا لإخافتها.

هسهس:

– "هل تعلمين كم مضى منذ اضطجعت مع امرأة؟ هل لديكِ أدنى فكرة؟"

اتسعت عيناها بشكل مستحيل، وهزت رأسها.

قال بفظاظة:

– "ثماني سنوات. ثماني سنوات طويلة بلا شيء سوى يدي للراحة. لذا في المرة القادمة التي أبدو فيها مستمتعًا بنفسي وأنا أدفع بداخلكِ، رجاءً اعذري عدم نضجي وذكوريتي..."

نطق الكلمة كما قد تفعل هي، بسخرية وغضب.

– "أنا ببساطة أقضي وقتًا رائعًا للغاية بعد فترة جفاف طويلة."

ثم، عاجزًا عن احتمالها للحظة واحدة أخرى...

لا، لم يكن ذلك صحيحًا. كان عاجزًا عن احتمال نفسه.

في كلتا الحالتين، غادر.

الفصل السادس عشر

... أنتِ محقة تمامًا يا عزيزتي كيت.
الرجال سهل جدًا إدارتهم. لا أستطيع تخيل خسارة جدال مع أحدهم أبدًا.
بالطبع، لو قبلت عرض اللورد لايسي،
لما حظيت بالفرصة حتى. فهو نادرًا ما يتحدث، وهو ما أجده غريبًا للغاية.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أخت زوجها الفيكونتيسة بريدجرتون، عقب رفضها لعرض الزواج الخامس

بقيت إلويز في الدفيئة لما يقارب الساعة، عاجزة عن فعل أي شيء سوى التحديق في الفراغ، متسائلة:

ماذا حدث؟

في دقيقة كانا يتحدثان – حسناً، يتجادلان، لكن بطريقة معقولة ومتحضرة نسبيًا – وفي التالية فقد صوابه، ووجهه منقبض بالغضب.

ثم غادر. لقد مشى مبتعدًا عنها في منتصف الجدال وتركها واقفة هناك في دفيئته، وفمها فاغر وكبرياؤها مجروح أكثر من قليل.

لقد مشى مبتعدًا. هذا ما أزعجها حقًا. كيف يمكن لشخص أن يمشي مبتعدًا في منتصف جدال؟

صحيح أنها كانت من بدأ النقاش – أوه، حسنًا، الجدال – لكن مع ذلك، لم يحدث شيء يستدعي مثل هذا الاقتحام الغاضب للخارج من جانبه.

والأسوأ من ذلك، أنها لم تكن تعرف ماذا تفعل.

طوال حياتها، عرفت ماذا تفعل. لم تكن محقة دائمًا، لكنها على الأقل شعرت بالثقة حين اتخذت قراراتها. وبينما كانت تجلس هناك على منضدة عمل فيليب، تشعر بالارتباك والعجز التامين، أدركت أنه بالنسبة لها، على الأقل، من الأفضل بكثير التصرف والخطأ بدلًا من الشعور بالعجز وقلة الحيلة.

وكأن كل ذلك لم يكن كافيًا، لم تستطع إخراج صوت أمها من رأسها.

لا تضغطي يا إلويز. لا تضغطي.

وكل ما استطاعت التفكير فيه هو: أنا لم أضغط. يا للسماء، ماذا فعلت سوى القدوم إليه بمخاوف بشأن أطفاله؟ هل من الخطأ الفادح الرغبة في التحدث بدلًا من الركض لغرفة النوم؟ افترضت أنه قد يكون خطأً، لو كان الزوجان المعنيان لا يقضيان أي وقت حميم معًا، لكنهما فعلا... وكانا...

لقد حدث ذلك هذا الصباح فقط!

لا أحد يستطيع القول إنهما يعانيان مشاكل في غرفة النوم. لا أحد.

تنهدت وتهالكت. لم تشعر بوحدة كهذه في حياتها كلها. مضحك، هذا. من كان ليظن أنها ستضطر للزواج – لربط حياتها للأبد بشخص آخر – لكي تشعر بالوحدة؟

أرادت أمها.

لا، لم ترد أمها. بالتأكيد لم ترد أمها. ستكون أمها لطيفة ومتفهمة وكل ما يجب أن تكونه الأم، لكن حديثًا مع أمها سيتركها تشعر بأنها طفلة صغيرة، لا بالغة كما يفترض بها أن تكون.

أرادت أخواتها. ليس هياسينث، التي بالكاد بلغت الحادية والعشرين ولا تعرف شيئًا عن الرجال، بل إحدى أخواتها المتزوجات. أرادت دافني، التي تعرف دائمًا ما تقول، أو فرانشيسكا، التي لا تقول أبدًا ما يريد المرء سماعه لكنها تنجح دائمًا في انتزاع ابتسامة مع ذلك.

لكنهما بعيدتان جدًا، في لندن واسكتلندا على التوالي، وإلويز لن تهرب. لقد صنعت سريرها حين تزوجت، وهي ترقد فيه برضا تام كل ليلة مع فيليب. الأيام فقط هي التي بها خلل ما.

لن تلعب دور الجبان وترحل، حتى ولو لبضعة أيام.

لكن صوفي قريبة، على بعد ساعة فقط. وإن لم تكونا أختين بالولادة... حسنًا، فهما أختان بالقلب.

نظرت إلويز خارج الباب. كان الجو غائمًا جدًا لرؤية الشمس، لكنها كانت واثقة تمامًا من أن الوقت لم يتجاوز الظهيرة بكثير. حتى مع وقت السفر، يمكنها قضاء معظم اليوم مع صوفي والعودة بحلول العشاء.

لم يرد كبرياؤها أن يعرف أحد بتعاستها، لكن قلبها أراد كتفًا تبكي عليه.

فاز قلبها.

قضى فيليب الساعات القليلة التالية يضرب الأرض بقدميه عبر حقوله، يقتلع الأعشاب الضارة من الأرض بشراسة.

مما أبقاه مشغولًا نسبيًا، بما أنه لم يكن في منطقة مزروعة، مما يعني أن كل نبتة تقريبًا يمكن تصنيفها كعشب ضار، إن مال المرء لذلك.

وهو مال لذلك. بل أكثر من مال. لو كان الأمر بيده، لاقتلع كل نبتة لعينة من الأرض.

وهو عالم نبات.

لكنه لم يرد زرع أشياء الآن، لم يرد مشاهدة أي شيء يزهر أو ينمو. أراد الركل والتشويه والتدمير. كان غاضبًا ومحبطًا وحانقًا على نفسه وحانقًا على إلويز ومستعدًا تمامًا للانزعاج من أي شخص يصادف طريقه.

لكن بعد ظهيرة من هذا، من الركل والضرب بالأقدام، واقتلاع رؤوس الزهور البرية وتمزيق أنصال العشب من المنتصف، جلس على صخرة وترك رأسه يسقط بين يديه.

جحيم.

يا لها من فوضى.

يا لها من فوضى دموية، والجزء الساخر حقًا في الأمر – أنه ظن أنهما سعيدان. ظن زواجه مثاليًا، وطوال هذا الوقت – أوه، حسنًا، مر أسبوع واحد فقط، لكنه كان أسبوعًا من الكمال، في رأيه. وهي كانت تعيسة.

أو إن لم تكن تعيسة، فهي ليست سعيدة.

أو ربما سعيدة قليلًا، لكن بالتأكيد ليست غارقة في نشوة النعيم، كما كان هو.

والآن عليه الذهاب وفعل شيء حيال ذلك، وهو آخر ما أراد فعله. التحدث مع إلويز، طرح الأسئلة فعليًا ومحاولة استنتاج الخطأ، ناهيك عن معرفة ما يجب فعله لإصلاحه – كان بالضبط نوع الشيء الذي يفسده دائمًا.

لكنه لم يملك خيارًا كبيرًا، أليس كذلك؟ لقد تزوج إلويز جزئيًا – حسنًا، أكثر من جزئيًا؛ كليًا تقريبًا، في الحقيقة – لأنه أرادها أن تتولى المسؤولية، أن تتولى كل المهام الصغيرة المزعجة في حياته، لتحرره للأشياء التي تهم حقًا. حقيقة أنه بدأ يهتم لأمرها كانت مكافأة غير متوقعة.

لكنه شك في أن زواج المرء لا يُحتسب كمهمة صغيرة مزعجة، ولا يمكنه تركه لـ إلويز فحسب. ومهما كان النقاش من القلب للقلب مؤلمًا، فعليه أن يتجرع الدواء المر ويجرب الأمر.

كان واثقًا تمامًا من أنه سيفسد الأمر، لكن على الأقل يمكنه القول إنه حاول.

أنّ. على الأرجح ستسأله عن مشاعره. ألا توجد امرأة حية تفهم أن الرجال لا يتحدثون عن المشاعر؟ تباً، نصفهم لا يملك مشاعر حتى.

أو ربما يمكنه اتخاذ الطريق السهل والاعتذار ببساطة. لم يكن متأكدًا مما يعتذر عنه، لكن ذلك سيرضيها ويجعلها سعيدة، وهذا كل ما يهم.

لم يرد لـ إلويز أن تكون غير سعيدة. لم يردها أن تندم على زواجها، ولو للحظة واحدة. أراد استعادة زواجه للطريقة التي ظن أنه عليها – سهل ومريح نهارًا، ناري ومتقد ليلًا.

جرجر أقدامه صاعدًا التل عائدًا لرومني هول، متدربًا على ما سيقوله في عقله وعابسًا من مدى سخافة كل ذلك.

لكن جهوده كانت بلا طائل، على أية حال، لأنه حين وصل للمنزل ووجد غانينغ، كل ما قاله رئيس الخدم كان:

– "إنها ليست هنا."

طالب فيليب:

– "ماذا تعني بليست هنا؟"

– "ليست هنا يا سيدي. ذهبت لمنزل أخيها."

تقلصت معدة فيليب.

– "أي أخ؟"

– "أعتقد ذاك الذي يعيش قريبًا."

– "تعتقد؟"

صحح غانينغ:

– "أنا متأكد نوعًا ما."

– "هل قالت متى تنوي العودة؟"

– "لا يا سيدي."

لعن فيليب بشراسة تحت أنفاسه. بالتأكيد إلويز لم تتركه. لم تكن من النوع الذي يقفز من سفينة غارقة، على الأقل ليس دون التأكد من مغادرة آخر راكب بسلام قبلها.

قال غانينغ:

– "لم تأخذ حقيبة يا سيدي."

أوه، الآن، هذا جعله يشعر بتحسن. رئيس خدمه شعر بالحاجة لطمأنته بأنه لم يُهجر من قبل زوجته.

قال فيليب من خلال أسنان مطبقة:

– "هذا كل شيء يا غانينغ."

قال غانينغ:

– "حسنًا جدًا يا سيدي."

أمال رأسه، كما يفعل دائمًا حين يستأذن، وغادر الغرفة.

وقف فيليب في الردهة لعدة دقائق، ساكنًا تمامًا، ويداه مقبوضتان بغضب بجانبيه. ماذا بحق الجحيم يفترض به فعله الآن؟ لم يكن ليركض خلف إلويز. إن أرادت بشدة الابتعاد عن صحبته، فبحق الله هذا ما سيعطيها إياه.

بدأ يمشي لمكتبه، حيث يمكنه الغليان والغضب بخصوصية، لكن حين كان على بعد خطوات قليلة من الباب، توقف، ناظرًا لساعة الجد الكبيرة في نهاية الردهة. كانت الثالثة وقليلًا، وقت تناول التوأم وجبتهما الخفيفة بعد الظهر تقريبًا. قبل زواجهما، اتهمته إلويز بعدم الاهتمام الكافي برفاهيتهما.

وضع يديه على وركيه، وقدمه تدور قليلًا، وكأنه غير متأكد من الاتجاه الذي يسلكه. قد يصعد للحضانة ويقضي بضع دقائق غير متوقعة مع أطفاله. ليس وكأن لديه شيئًا أفضل ليفعله بوقته، عالقًا هنا بانتظار عودة زوجته الضالة. وحين تعود... حسنًا، لن يكون لديها ما تشتكي منه، ليس بعد أن حشر نفسه في أحد تلك الكراسي الصغيرة وأكل الحليب والبسكويت مع التوأم.

بمنعطف حاسم، توجه صاعدًا السلم للحضانة، الواقعة في الطابق العلوي من رومني هول، مدسوسة بعناية تحت الأفاريز. كانت نفس مجموعة الغرف التي نشأ فيها، بنفس الأثاث والألعاب، ويفترض بنفس الشق في السقف فوق الأسرة الصغيرة، ذاك الذي يشبه البطة.

قطب فيليب جبينه وهو يخطو عن الدرجة الأخيرة لممر الطابق الثالث. ربما يجب أن يرى إن كان ذلك الشق لا يزال هناك، وإن كان كذلك، يستفسر عما يظن أطفاله أنه يشبه. جورج، أخوه، أقسم دائمًا أنه يشبه خنزيرًا، لكن فيليب لم يفهم أبدًا كيف أخطأ المنقار واعتبره خطمًا.

هز فيليب رأسه. يا للسماء، كيف يمكن لأحد أن يخطئ بطة ويحسبها خنزيرًا، لن يعرف أبدًا. حتى الـ...

توقف فجأة، على بعد بابين من الحضانة. سمع شيئًا، ولم يكن واثقًا تمامًا مما هو، سوى أنه لم يعجبه. كان...

أصغى مرة أخرى.

كان أنينًا.

كان ميله الأول هو الاقتحام وخلع باب الحضانة، لكنه تمالك نفسه حين أدرك أن الباب موارب بمقدار بوصتين، فتسلل للأمام بدلًا من ذلك، مختلسًا النظر عبر الشق بأكبر قدر ممكن من التخفي.

تطلب الأمر نصف ثانية فقط لإدراك ما يحدث.

كان أوليفر متكورًا في كرة على الأرض، يرتجف بنشيج صامت، وأماندا تقف أمام جدار، تسند نفسها بيديها الصغيرتين، تئن ومربيتها تضربها عبر الظهر بكتاب كبير وثقيل.

اقتحم فيليب الباب بقوة كادت تخلعه من مفصلاته. كاد يزمجر:

– "ماذا بحق الجحيم تظنين أنكِ تفعلين؟"

استدارت المربية إدواردز متفاجئة، لكن قبل أن تتمكن من فتح فمها للكلام، خطف فيليب الكتاب ورماه خلفه ضد الجدار.

صرخت المربية إدواردز بصدمة:

– "سير فيليب!"

قال، وصوته يرتجف غضبًا:

– "كيف تجرئين على ضرب هذين الطفلين. وبكتاب."

– "قيل لي..."

– "وفعلتِ ذلك حيث لا يرى أحد."

شعر بنفسه يسخن، يهتاج، يتحرق للضرب.

– "كم طفلًا ضربتِ، متأكدة من ترك الكدمات حيث لا يرى أحد؟"

قالت المربية إدواردز بتيبس:

– "تحدثا بقلة احترام. كان لا بد من عقابهما."

تقدم فيليب للأمام، قريبًا بما يكفي لإجبار المربية على التراجع.

- "أريدكِ خارج منزلي."

احتجت المربية إدواردز:

- "أخبرتني بتأديب الأطفال كما أراه مناسبًا."

هسهس، مستخدمًا كل أوقية من ضبط النفس لإبقاء ذراعيه بجانبيه. أراد أرجحتهما بجموح، الضرب، إمساك كتاب وضرب هذه المرأة تمامًا كما فعلت بأطفاله.

- "أهكذا ترينه مناسبًا؟"

لكنه تمسك بأعصابه. لم تكن لديه فكرة كيف، لكنه فعل.

تابع بغضب:

- "تضربينهما بكتاب؟"

نظر لأطفاله؛ كانا ينكمشان في زاوية، خائفين على الأرجح من والدهما في مزاج كهذا بقدر خوفهما من مربيتهما. أمرضه رؤيتهما له بهذه الطريقة، قريبًا جدًا من فقدان السيطرة التام، لكن لم يكن هناك المزيد لفعله لكبح جماح نفسه.

قالت المربية إدواردز بتعالي:

- "لم يكن هناك عصا."

الشيء الخطأ لقوله. شعر فيليب بجلده يزداد سخونة، حارب الضباب الأحمر الذي بدأ يغيم رؤيته.

كانت هناك عصا في الحضانة؛ الخطاف الذي علقت عليه لا يزال هناك، بجوار النافذة مباشرة.

أحرقها فيليب يوم جنازة والده، وقف أمام النار وراقبها تتحول لرماد. لم يكتفِ بمجرد رميها؛ احتاج لرؤيتها تدمر، تمامًا وإلى الأبد.

وفكر في تلك العصا، فكر في مئات المرات التي استخدمت عليه، فكر في الألم، في الإهانة، في كل الجهد الذي بذله، محاولًا منع نفسه من الصراخ.

كره والده البكائين. الدموع لم تؤدِ إلا لجولة أخرى بالعصا.

أو بالحزام. أو سوط الركوب. أو، حين لم يتوفر شيء آخر، يد والده.

لكن أبدًا، فكر فيليب بنوع غريب من الانفصال، ليس كتابًا. ربما لم يفكر والده في ذلك أبدًا.

قال فيليب، وصوته بالكاد مسموع:

– "اخرجي."

ثم، حين لم تستجب المربية إدواردز فورًا، زأر بها.

– "اخرجي! اخرجي من هذا المنزل!"

احتجت، مبتعدة عنه زحفًا، بعيدًا عن متناول ذراعيه الطويلتين القويتين:

– "سير فيليب."

– "اخرجي! اخرجي! اخرجي!"

لم يعرف من أين يأتي كل هذا بعد الآن. من مكان ما عميق بداخله، لم يُروض قط، بل كُبت بقوة الإرادة المحضة.

صرخت:

– "أحتاج لجمع أشيائي!"

قال فيليب، وصوته منخفض لكنه لا يزال يرتعش بجهد انفعاله:

– "لديكِ نصف ساعة. ثلاثون دقيقة. إن لم تكوني قد رحلتِ بحلول ذلك الوقت، سأرميكِ خارجًا بنفسي."

ترددت المربية إدواردز عند الباب، بدأت في الخروج، ثم التفتت. هسهست:

– "أنت تفسد هذين الطفلين."

– "إنهما أطفالي لأفسدهما."

– "ليكن ما تريد إذًا. إنهما ليسا سوى وحشين صغيرين على أية حال، سيئا الطباع، سيئا السلوك..."

ألا تبالي بسلامتها؟ كانت سيطرة فيليب معلقة بخيط رفيع جدًا، وكان قريبًا جدًا من إمساك المرأة اللعينة من ذراعها ورميها خارج الباب بنفسه.

زمجر، لما صلى أن تكون المرة الأخيرة. لا يستطيع الصمود أكثر من ذلك.

– "اخرجي."

تقدم للأمام، مؤكدًا كلماته بالحركة، وأخيرًا – أخيرًا – ركضت من الغرفة.

للحظة وقف فيليب ساكنًا ببساطة، محاولًا تهدئة نفسه، تهدئة تنفسه وانتظار هدوء دمه المندفع.

كان ظهره للتوأم، ورهب الاستدارة. كان يموت من الداخل، ينهشه الذنب لتوظيفه تلك المرأة، ذلك الوحش، لرعاية أطفاله. وكان مشغولًا جدًا بمحاولة تجنبهم لدرجة عدم رؤية معاناتهم.

معاناتهم بالطريقة نفسها التي عانى بها.

ببطء، استدار، مرتعبًا مما سيراه في عيونهما.

لكن حين رفع نظره عن الأرض ونظر في وجوههم، اندفعا للحركة، راميين نفسيهما عليه بقوة كادت تسقطه أرضًا.

صرخت أماندا، مستخدمة كلمة تدليل لم تنطقها منذ دهور:

– "أوه، بابا!"

كان "بابا" لسنوات الآن، ونسي كم تبدو الأخرى عذبة.

وأوليفر – كان يعانقه هو الآخر، ذراعاه الصغيرتان النحيلتان ملتفتان بإحكام حول خصر فيليب، ووجهه مدفون في قميصه كي لا يرى أبوه بكاءه.

لكن فيليب استطاع الشعور به. الدموع بللت قميصه، وكل شهقة رددت صداها ضد بطنه.

التفت ذراعاه حول أطفاله، بإحكام، بحماية. دندن:

– "ششش. لا بأس. أنا هنا الآن."

كانت كلمات لم يقلها قط، كلمات لم يتخيل قولها أبدًا؛ لم يظن أبدًا أن وجوده قد يكون هو ما يجعل كل شيء على ما يرام. اختنق بالكلمات:

– "أنا آسف. أنا آسف للغاية."

أخبراه أنهما لا يحبان مربيتهما؛ وهو لم يستمع.

قالت أماندا:

- "ليس خطأك يا أبي."

كان كذلك، لكن بدا أن لا جدوى من الإسهاب في الحقيقة. ليس الآن، والوقت ناضج لبداية جديدة.

طمأنهما:

- "سنجد لكما مربية جديدة."

سأل أوليفر، وهو يشهق مع انحسار دموعه أخيرًا:

- "شخص مثل المربية ميلسبي؟"

أومأ فيليب.

- "شخص مثلها تمامًا."

نظر إليه أوليفر بصدق كبير.

- "هل يمكن للآنسة... للأم المساعدة في الاختيار؟"

أجاب فيليب، مبعثرًا شعره:

- "بالطبع. أتوقع أنها سترغب في إبداء رأيها. إنها امرأة ذات آراء كثيرة، في النهاية."

قهقه الطفلان.

سمح فيليب لنفسه بابتسامة.

- "أرى أنكما تعرفانها جيدًا."

قال أوليفر بتردد:

- "إنها تحب الحديث فعلًا."

أضافت أماندا:

- "لكنها ذكية للغاية!"

تمتم فيليب:

- "بالفعل هي كذلك."

قال أوليفر:

- "أنا أحبها نوعًا ما."

أضافت أخته:

– "وأنا كذلك."

أخبرهما فيليب:

– "يسرني سماع ذلك. لأني أعتقد أنها هنا لتبقى."

وأنا كذلك، أضاف بصمت. قضى سنوات يتجنب أطفاله، خائفًا من ارتكاب خطأ، مرتعبًا من فقدان أعصابه. ظن أنه يفعل الأفضل لهما، بإبقائهما على مسافة ذراع، لكنه كان مخطئًا. مخطئًا للغاية.

قال لهما، بصوت أجش، وبعاطفة كبيرة:

– "أنا أحبكما. أنتما تعلمان ذلك، أليس كذلك؟"

أومآ، وعيونهما لامعة.

همس، جاثيًا حتى أصبحوا جميعًا في مستوى واحد. جذبهما قريبًا، متذوقًا دفئهما.

– "سأحبكما دائمًا."

الفصل السابع عشر

... بغض النظر يا دافني، لا أظن أنه كان عليكِ الهرب.

- من رسالة إلويز بريدجرتون إلى أختها دوقة هاستينغز،
أثناء انفصال دافني الوجيز عن زوجها،
بعد أسابيع قليلة فقط من زواجهما

كانت الرحلة إلى منزل بينديكت مليئة بالحفر والمطبات، وبحلول الوقت الذي نزلت فيه إلويز على الدرجات الأمامية لمنزل أخيها، تحول مزاجها من سيئ إلى كارثي. ومما زاد الطين بلة، أن رئيس الخدم حين فتح الباب نظر إليها وكأنها مجنونة.

سألت إلويز أخيرًا حين بدا جليًا أنه عاجز عن الكلام:

- "غريفز؟"

سأل وهو لا يزال فاغرًا فاه:

- "هل يتوقعون زيارتك؟"

قالت إلويز، ناظرة بوضوح تام إلى ما وراءه داخل المنزل، لأن هذا هو المكان الذي أرادت أن تكون فيه:

- "حسنًا، لا."

بدأ الرذاذ يتساقط، ولم تكن ترتدي ملابس مناسبة للمطر.

بدأت تقول:

- "ولكني بالكاد أظن..."

تنحى غريفز جانبًا، مستعيدًا وعيه متأخرًا وسامحًا لها بالدخول.

- "إنه السيد الصغير تشارلز. إنه مريض جدًا. إنه..."

شارت تشارلز إلى الابن الأكبر لـ بينديكت وصوفي، الذي يبلغ من العمر خمس سنوات ونصف فقط. شعرت إلويز بشيء فظيع وحمضي يرتفع في حلقها. سألت، غير عابئة حتى بتهدئة لهفتها:

- "ما الخطب؟ هل هو..."

يا إلهي، كيف يسأل المرء إن كان طفل صغير يحتضر؟

قال غريفز، مبتلعًا ريقه بتشنج:

- "سأحضر السيدة بريدجرتون."

التفت وهرع صاعدًا الدرج.

نادت إلويز:

- "انتظر!"

أرادت سؤاله المزيد، لكنه كان قد رحل بالفعل.

تهالكت على كرسي، تشعر بالغثيان من القلق، ثم، وكأن ذلك لم يكن كافيًا، شعرت بالاشمئزاز من نفسها لكونها غير راضية ولو قليلًا عن نصيبها في الحياة. مشاكلها مع فيليب، التي لم تكن مشاكل على الإطلاق في الحقيقة بل مجرد منغصات صغيرة - حسنًا، بدت صغيرة جدًا وتافهة مقارنة بهذا.

- "إلويز!"

كان بينديكت، وليس صوفي، من نزل الدرج. بدا منهكًا، وعيناه حمراوان، وبشرته شاحبة وعجينية. علمت إلويز أنه من الأفضل عدم سؤاله عن المدة التي قضاها بلا نوم؛ سيكون السؤال مزعجًا للغاية، وفضلًا عن ذلك، الإجابة مكتوبة بوضوح على وجهه - لم يغمض عينيه منذ أيام.

سأل:

– "ماذا تفعلين هنا؟"

– "جئت للزيارة. فقط لإلقاء التحية. لم تكن لدي أدنى فكرة. ما الخطب؟ كيف حال تشارلز؟ رأيته الأسبوع الماضي فقط. بدا بخير. إنه... ما الخطب؟"

احتاج بينديكت لعدة ثوانٍ لحشد الطاقة للكلام.

– "لديه حمى. لا أعرف لماذا. يوم السبت، استيقظ بخير، لكن بحلول الغداء كان..."

استند على الجدار، مغلقًا عينيه بألم.

– "كان يشتعل. لا أعرف ما أفعل."

سألت إلويز:

– "ماذا قال الطبيب؟"

قال بينديكت بصوت أجوف:

– "لا شيء. لا شيء ذا فائدة، على أية حال."

– "هل يمكنني رؤيته؟"

أومأ بينديكت، وعيناه لا تزالان مغلقتين.

قالت إلويز:

– "تحتاج للراحة."

– "لا أستطيع."

– "يجب عليك. لست مفيدًا لأحد في حالتك هذه، وأراهن أن صوفي ليست أفضل حالًا."

– "أجبرتها على النوم قبل ساعة. بدت كالموت."

أخبرته إلويز، مبقية نبرتها نشطة وعملية عمدًا:

– "حسنًا، أنت لا تبدو أفضل حالًا."

أحيانًا هذا ما يحتاجه الناس في أوقات كهذه – أن يُؤمروا، أن يُقال لهم ما يفعلون. التعاطف لن يؤدي إلا لبكاء أخيها، ولا أحد منهما يريد أن يشهد ذلك.

أمرت إلويز:

– "يجب أن تذهب للفراش. الآن. سأعتني بـ تشارلز. حتى لو نمت ساعة واحدة فقط، ستشعر بتحسن كبير."

لم يجب؛ لقد نام وهو واقف.

تولت إلويز المسؤولية بسرعة. وجهت غريفز لوضع بينديكت في الفراش، وتولت غرفة المريض، محاولة عدم الشهق حين دخلت ورأت ابن أخيها الصغير لأول مرة.

بدا ضئيلًا وهشًا في السرير الكبير؛ كان بينديكت وصوفي قد نقلاه لغرفة نومهما، حيث يوجد متسع أكبر للناس للاهتمام به. بشرته متوردة، لكن عينيه، حين يفتحهما، زجاجيتان وغير مركزتين، وحين لا يكون مستلقيًا بسكون غير طبيعي، كان يتقلب، متمتمًا بكلمات غير مفهومة عن المهور وبيوت الأشجار وحلوى المرزبان.

جعل ذلك إلويز تتساءل عما قد تتمتم به هي لو أصابتها حمى يومًا.

مسحت جبينه، وقلبته وساعدت الخادمات على تغيير ملاءاته، ولم تلحظ الشمس وهي تنزلق تحت الأفق. شكرت السماء فقط لأن تشارلز لم يزدد سوءًا تحت رعايتها، لأنه وفقًا للخدم، كان بينديكت وصوفي بجانبه ليومين متواصلين، ولم ترد إلويز إيقاظ أي منهما بأخبار سيئة.

جلست في الكرسي بجوار السرير، وقرأت له من كتاب حكاياته المفضل، وحكت له قصصًا عن حين كان والده صغيرًا. وشكت في أنه سمع كلمة واحدة، لكن كل ذلك جعلها تشعر بتحسن، لأنها لم تستطع الجلوس هناك فقط وفعل لا شيء.

ولم يخطر ببالها حتى الثامنة مساءً، حين استفاقت صوفي أخيرًا من ذهولها وسألت عن فيليب، أنه يجب عليها إرسال ملاحظة، وأنه قد يكون قلقًا.

لذا خربشت شيئًا قصيرًا وسريعًا واستأنفت سهرها. فيليب سيتفهم.

بحلول الثامنة مساءً، أدرك فيليب أن أحد أمرين قد حدث لزوجته. إما أنها هلكت في حادث عربة، أو أنها تركته.

لم يكن أي من الاحتمالين جذابًا بشكل خاص.

لم يظن أنها ستتركه؛ بدت سعيدة ـ في الغالب ـ في زواجهما، رغم شجارهما بعد الظهر. وفضلًا عن ذلك، لم تأخذ أيًا من ممتلكاتها معها، رغم أن ذلك لا يعني الكثير؛ فمعظم ممتلكاتها لم يصل بعد من منزلها ـ في لندن. ليس وكأنها ستترك الكثير خلفها هنا ـ في رومني هول.

مجرد زوج وطفلين.

يا إلهي، ولقد قال لهما للتو بعد ظهر هذا اليوم: أعتقد أنها هنا لتبقى.

لا، فكر بوحشية، إلويز لن تتركه. لن تفعل شيئًا كهذا أبدًا. ليس لديها عظمة جبانة واحدة ـ في جسدها، ولن تنسل هاربة وتتخلى عن زواجهما. إن كانت مستاءة بطريقة ما، فستخبره بذلك، ـ في وجهه مباشرة ودون مواربة.

وهو ما يعني، كما أدرك وهو يرتدي معطفه ويكاد يقذف نفسه خارج الباب الأمامي، أنها ميتة ـ في خندق ما على طريق ويلتشير. كانت تمطر باستمرار طوال المساء، والطرق بين منزله ومنزل بينديكت لم تكن جيدة ـ في الأساس.

تباً، يكاد يكون من الأفضل لو أنها تركته.

لكن حين ركب ـ في الممر المؤدي لـ «كوخي»، منزل بينديكت بريدجرتون ذو الاسم السخيف، مبتلًا حتى العظم وفي مزاج مريع، بدأ الأمر يبدو أكثر وكأن إلويز قررت التخلي عن زواجها.

لأنها لم تكن ملقاة ـ في خندق بجانب الطريق، ولم تكن هناك أي علامة على أي نوع من حوادث العربات، وعلاوة على ذلك، لم تكن مختبئة ـ في أي من النزلين على طول الطريق.

وبما أنه لا يوجد سوى طريق واحد بين منزله ومنزل بينديكت، فليس وكأنها ـ في نزل آخر على طريق آخر، ويمكن عزو هذه المهزلة بأكملها إلى لا شيء أكثر من سوء تفاهم كبير.

تمتم تحت أنفاسه وهو يصعد الدرجات الأمامية بعنف:

– "أعصابك. أعصابك."

لأنه لم يكن قريبًا قط من فقدانها هكذا.

ربما هناك تفسير منطقي. ربما لم ترغب في القيادة للمنزل تحت المطر. لم يكن سيئًا لتلك الدرجة، لكنه كان أكثر من رذاذ، وافترض أنها ربما لم ترغب في السفر.

رفع المطرقة على الباب وضربها بقوة. بقوة شديدة.

ربما انكسرت عجلة العربة.

ضرب المطرقة مرة أخرى.

لا، هذا لا يفسر الأمر. كان بإمكان بينديكت بسهولة إرسالها للمنزل في عربته.

ربما...

ربما...

بحث عقله بلا جدوى عن سبب آخر لوجودها هنا مع أخيها وليس في المنزل مع زوجها. لم يستطع التفكير في واحد.

اللعنة التي هسهس بها من فمه كانت واحدة لم ينطق بها منذ سنوات.

مد يده للمطرقة مرة أخرى، مستعدًا هذه المرة لخلع الشيء اللعين عن الباب ورميه عبر النافذة، لكن في تلك اللحظة فُتح الباب، ووجد فيليب نفسه يحدق في غريفز، الذي قابله قبل أقل من أسبوعين، أثناء مهزلة تودده.

كاد فيليب يزمجر:

– "زوجتي؟"

شهق رئيس الخدم:

– "سير فيليب!"

لم يتحرك فيليب، رغم أن المطر كان ينهمر على وجهه. المنزل اللعين لا يملك رواقًا. من سمع بشيء كهذا، في إنجلترا، من بين كل الأماكن؟

كرر بحدة:

– "زوجتي."

طمأنه غريفز:

– "إنها هنا. تفضل بالدخول."

خطا فيليب للداخل.

– "أريد زوجتي. الآن."

– "دعني آخذ معطفك."

قال فيليب بحدة:

– "لا يهمني معطفي اللعين. أريد زوجتي."

تجمد غريفز، ويداه لا تزالان مستعدتين لأخذ معطف فيليب.

– "ألم تتسلم رسالة الليدي كرين؟"

– "لا، لم أتسلم رسالة."

تمتم غريفز:

– "ظننت أنك وصلت بسرعة كبيرة. لا بد أنك مررت بالرسول في طريقك. من الأفضل أن تدخل."

ذكره فيليب بنزق:

– "أنا في الداخل."

أطلق غريفز زفرة طويلة، تكاد تكون تنهيدة، وهو أمر لافت لرئيس خدم مدرب على عدم إظهار حتى تلميح من العاطفة. قال بهدوء:

– "أظن أنك ستبقى هنا لبعض الوقت. اخلع معطفك. جفف نفسك. سترغب في أن تكون مرتاحًا."

انزلق غضب فيليب فجأة لرعب عميق. هل حدث شيء لـ إلويز؟ يا إلهي، إن كان أي شيء... همس:

– "ماذا يحدث؟"

لقد وجد أطفاله لتوّه. لم يكن مستعدًا لفقدان زوجته.

اكتفى رئيس الخدم بالالتفات للسلم بعينين حزينتين. قال بهدوء:

– "تعال معي."

تبعه فيليب، وكل خطوة تملؤه بالرهبة.

حضرت إلويز -بالطبع- الكنيسة كل أحد تقريبًا من حياتها. كان ذلك المتوقع منها، وما يفعله الناس الطيبون والصادقون، لكن في الحقيقة لم تكن يومًا متدينة أو خائفة من الله بشكل خاص. كان عقلها يميل للشرود أثناء العظات، وغنت مع التراتيل ليس بدافع شعور عظيم بالسمو الروحي بل لأنها أحبت الموسيقى كثيرًا، وكانت الكنيسة المكان المقبول الوحيد لصاحبة أذن غير موسيقية مثلها لرفع صوتها بالغناء.

لكن الآن، الليلة، وهي تنظر لأسفل نحو ابن أخيها الصغير، صلت.

لم يزدد تشارلز سوءًا، لكنه لم يتحسن، والطبيب، الذي جاء وذهب للمرة الثانية ذلك اليوم، أعلن أن الأمر "بيد الله".

كرهت إلويز تلك العبارة، كرهت كيف يلجأ إليها الأطباء حين يواجهون مرضًا يتجاوز مهاراتهم، لكن إن كان الطبيب محقًا، وكان الأمر بيد الله حقًا، فبحق السماوات، هذا من ستتوجه إليه.

حين لا تكون مشغولة بوضع قماش بارد على جبين تشارلز أو تقطير المرق الفاتر في حلقه، هذا هو. لكن لم يكن هناك الكثير لفعله، ومعظم وقتها في غرفة المريض قضته في سهر عاجز نوعًا ما.

وهكذا جلست هناك فقط، يداها مطويتان بإحكام في حجرها، تهمس: "أرجوك. أرجوك."

ثم، وكأن الصلاة الخطأ قد أُجيبت، سمعت ضجيجًا في المدخل، وبطريقة ما كان فيليب، رغم أنها أرسلت الرسول قبل ساعة فقط. كان مبتلًا من المطر، وشعره ملتصق بجبهته بشكل غير أنيق، لكنه كان أعز مشهد رأته عيناها قط، وقبل أن تدرك ما تفعله، ركضت عبر الغرفة ورمت نفسها بين ذراعيه.

انتحبت، سامحة لنفسها أخيرًا بالبكاء:

- "أوه، فيليب."

لقد كانت قوية جدًا طوال اليوم، مجبرة نفسها على أن تكون الصخرة التي يحتاجها أخوها وأخت زوجها. لكن الآن فيليب هنا، وحين التفت ذراعاه

حولها، شعرت بصلابته وطيبته، وللمرة الأولى أمكنها السماح لشخص آخر بأن يكون قويًا لأجلها.

همس فيليب:

- "ظننت أنها أنتِ."

سألت بحيرة:

- "ماذا؟"

- "رئيس الخدم - لم يشرح حتى صعدنا السلم. ظننت أنه..."

هز رأسه.

- "لا يهم."

لم تقل إلويز شيئًا، اكتفت بالنظر إليه، وابتسامة صغيرة حزينة على وجهها.

سأل:

- "كيف حاله؟"

هزت رأسها.

- "ليس جيدًا."

نظر لـ بينديكت وصوفي، اللذين نهضا لتحيته. بديا "ليس جيدًا" إلى حد ما أيضًا.

سأل فيليب:

- "منذ متى وهو هكذا؟"

أجاب بينديكت:

- "يومان."

صححت صوفي:

- "يومان ونصف. منذ صباح السبت."

قالت إلويز، مبتعدة عنه:

- "تحتاج لتجفيف نفسك. والآن أنا أيضًا."

نظرت بأسف لفستانها، المبتل الآن من الأمام بسبب ملابس فيليب الرطبة.

– "سينتهي بك الأمر في حالة ليست أفضل من تشارلز."

قال فيليب متجاوزًا إياها وهو يقترب من سرير الصبي الصغير:

– "أنا بخير."

لمس جبينه، ثم هز رأسه ونظر لوالديه.

– "لا أستطيع التمييز. أنا بارد جدًا من المطر."

أكد بينديكت بوجوم:

– "إنه محموم."

سأل فيليب:

– "ماذا فعلتم لأجله؟"

سألت صوفي، وعيناها تمتلئان بأمل يائس:

– "هل تعرف شيئًا عن الطب؟"

أجاب بينديكت:

– "الطبيب فصده. لم يبدُ أن ذلك ساعد."

قالت صوفي:

– "كنا نعطيه المرق، ونبرده حين يصبح ساخنًا جدًا."

أنهت إلويز ببؤس:

– "وندفئه حين يصبح باردًا جدًا."

همست صوفي:

– "لا شيء يبدو مجديًا."

ثم، أمام الجميع، انهارت ببساطة. سقطت بجانب السرير وانتحبت.

اختنق بينديكت:

– "صوفي."

سقط على ركبتيه بجوارها واحتضنها وهي تبكي، وأشاح فيليب وإلويز بنظريهما حين أدركا أنه يبكي هو الآخر.

قال فيليب لـ إلوين:

– "شاي لحاء الصفصاف. هل تناول أيًا منه؟"

– "لا أظن ذلك. لماذا؟"

– "إنه شيء تعلمته في كامبريدج. اعتادوا إعطاءه للألم، قبل أن يصبح الأفيون شائعًا جدًا. أصر أحد أساتذتي على أنه يساعد أيضًا في خفض الحمى."

سألت إلوين:

– "هل أعطيت الشاي لـ مارينا؟"

نظر فيليب إليها متفاجئًا، ثم تذكر أنها لا تزال تظن أن مارينا ماتت بحمى الرئة، وهو ما افترض أنه صحيح في الغالب. أجاب:

– "حاولت. لكني لم أستطع إدخال الكثير في حلقها. وفضلًا عن ذلك، كانت أشد مرضًا من تشارلز بكثير."

ابتلع ريقه، متذكرًا.

– "بطرق عديدة."

نظرت إلوين في وجهه للحظة طويلة، ثم التفتت بنشاط لـ بينديكت وصوفي، اللذين كانا هادئين الآن، لكن لا يزالان جاثيين على الأرض معًا، غارقين في لحظتهما الخاصة.

لكن إلوين، بكونها إلوين، لم تملك الكثير من التوقير للحظات الخاصة في وقت كهذا، لذا أمسكت بكتف أخيها وأدارته. سألته:

– "هل لديك أي شاي لحاء صفصاف؟"

اكتفى بينديكت بالنظر إليها، طارفًا بعينيه، ثم قال أخيرًا:

– "لا أعرف."

قالت صوفي، مشيرة لنصف الزوجين العجوزين اللذين اعتنيا بـ «كوخي» قبل زواج بينديكت، حين لم يكن أكثر من مكان يريح فيه رأسه أحيانًا:

– "السيدة كرابتري قد يكون لديها. دائمًا ما تملك أشياء كهذه. لكنها والسيد كرابتري ذهبا لزيارة ابنتهما. لن يعودا للمنزل قبل عدة أيام."

سأل فيليب:

– "هل يمكنكم دخول منزلهما؟ سأعرفه إن كان لديها. لن يكون شايًا. مجرد اللحاء، سننقعه ‍في ماء ساخن. قد يساعد ‍في خفض الحمى."

سألت صوفي بشك:

– "لحاء صفصاف؟ تعني علاج ابني بلحاء شجرة؟"

قال بينديكت بفظاظة، سائرًا نحو الباب:

– "بالتأكيد لا يمكن أن يضره الآن. تعال يا كرين. لدينا مفتاح لكوخهما. سآخذك هناك بنفسي."

لكن حين وصل للمدخل، التفت لـ فيليب وسأل:

– "هل تعرف ما تفعله؟"

أجاب فيليب بالطريقة الوحيدة التي يعرفها:

– "لا أعرف. آمل ذلك."

حدق بينديكت ‍في وجهه، وعلم فيليب أن الرجل الأكبر يقيمه. أن يسمح بينديكت له بالزواج من أخته شيء. وأن يسمح له بصب جرعات غريبة ‍في حلق ابنه شيء آخر تمامًا.

لكن فيليب فهم. لديه أطفال هو الآخر.

قال بينديكت:

– "حسنًا جدًا. لننذهب."

وبينما يسرع فيليب خارج المنزل، كل ما استطاع فعله هو الدعاء ألا تكون ثقة بينديكت بريدجرتون به ‍في غير محلها.

في النهاية، كان من الصعب القول ما إذا كان لحاء الصفصاف أو صلوات إلويز المهموسة أو مجرد حظ أعمى، لكن بحلول صباح اليوم التالي

انكسرت حمى تشارلز، ورغم أن الصبي لا يزال ضعيفاً وخاملًا، إلا أنه كان بلا شك في طريق الشفاء.

بحلول الظهيرة، كان واضحًا أن لا حاجة لـ إلويز وفيليب بعد الآن، وأنهما في الواقع يعرقلان الطريق، لذا صعدا لعربتهما وتوجها للمنزل، كلاهما تواق للانهيار في سريرهما الكبير المتين، ولمرة واحدة، عدم فعل شيء سوى النوم.

قُضيت الدقائق العشر الأولى من رحلة العودة في صمت. وجدت إلويز، بشكل مذهل، نفسها متعبة جدًا للكلام. لكن حتى في إرهاقها، كانت قلقة جدًا، مشدودة جدًا من توتر وقلق الليلة السابقة لتنام. لذا اكتفت بالتحديق عبر النافذة في الريف المبلل. توقف المطر في الوقت الذي انكسرت فيه حمى تشارلز تقريبًا، مما يوحي بتدخل إلهي قد يشير لصلوات إلويز كمنقذ للصبي الصغير، لكن بينما اختلست إلويز نظرة لزوجها، الجالس بجوارها في العربة وعيناه مغلقتان (رغم أنها كانت واثقة تمامًا من أنه ليس نائمًا)، علمت أنه كان لحاء الصفصاف.

لم تدرِ كيف عرفت، وكانت مدركة تمامًا لحقيقة أنها لا تستطيع إثبات ذلك أبدًا، لكن حياة ابن أخيها أُنقذت بكوب من الشاي.

وللتفكير في مدى استبعاد وجود فيليب حتى في منزل أخيها تلك الليلة. لقد كانت سلسلة فريدة من الأحداث. لو لم تذهب لرؤية التوأم، لو لم تذهب لإخبار فيليب أنها لا تحب مربيتهما، لو لم يتشاجرا...

حين توضع الأمور هكذا، تشارلز بريدجرتون الصغير هو أوفر الأولاد حظًا في بريطانيا تمامًا.

قالت، غير مدركة أنها نوت الكلام حتى غادرت الكلمات شفتيها:

– "شكرًا لك."

همس فيليب بنعاس، دون فتح عينيه:

– "على ماذا؟"

قالت ببساطة:

- "تشارلز."

فتح فيليب عينيه عند ذلك، والتفت إليها.

- "قد لا يكون فعلي. لن نعرف أبدًا إن كان لحاء الصفصاف."

قالت بحزم:

- "أنا أعرف."

تقوست شفتاه في أقل ابتسامة.

- "دائمًا تعرفين."

وفكرت في نفسها: أهذا ما كنت أنتظره طوال حياتي؟ ليس الشغف، ليس شهقات المتعة التي أشعر بها حين ينضم لي في الفراش، بل هذا.

هذا الشعور بالراحة، بالرفقة السهلة، بالجلوس بجوار شخص في عربة والمعرفة بكل ذرة من كيانك أن هذا هو مكانك.

وضعت يدها على يده.

- "كان الأمر مريعًا جدًا. لا أظن أني خفت هكذا في حياتي. لا أستطيع تخيل كيف كان الأمر بالنسبة لـ بينديكت وصوفي."

قال فيليب بهدوء:

- "ولا أنا."

قالت، وأدركت أنها المرة الأولى التي تقول فيها ذلك:

- "لو كان أحد أطفالنا..."

أطفالنا.

صمت فيليب لفترة طويلة. حين تحدث، كان ينظر عبر النافذة.

- "طوال الوقت الذي كنت أراقب فيه تشارلز، كل ما فكرت فيه كان، الحمد لله أنه ليس أوليفر أو أماندا."

ثم التفت إليها، ووجهه منقبض بالذنب.

- "ولكن لا ينبغي أن يكون طفل أي أحد."

عصرت إلويز يده.

– "لا أظن أن هناك خطأ في مشاعر كهذه. لست قديسًا، أتعلم. أنت مجرد أب. أب جيد جدًا، أعتقد."

نظر إليها بتعبير غريب، ثم هز رأسه. قال بجدية:

– "لا، لست كذلك. لكني آمل أن أكون."

أمالت رأسها.

– "فيليب؟"

قال، وفمه يشتد في خط كئيب:

– "كنتِ محقة. بشأن مربيتهما. لم أرد أن يكون هناك شيء خاطئ، لذا لم أولِ اهتمامًا، لكنكِ كنتِ محقة. كانت تضربهما."

– "ماذا؟"

تابع، وصوته يكاد يخلو من العاطفة، وكأنه استنفد كل مشاعره بالفعل:

– "بكتاب. دخلت وكانت تضرب أماندا بكتاب. كانت قد انتهت من أوليفر بالفعل."

قالت إلويز، والدموع – دموع الحزن والغضب – تملأ عينيها:

– "أوه، لا. لم أتخيل هذا أبدًا. لم أحبها، بالطبع. وضربت مفاصل أصابعهما، لكن... لقد ضُربت مفاصل أصابعي. الجميع ضُربت مفاصل أصابعهم."

تهالكت في مقعدها، والذنب يثقل كاهلها.

– "كان يجب أن أدرك. كان يجب أن أرى."

نخر فيليب.

– "بالكاد أكملتِ أسبوعين في المنزل. أنا عشت مع تلك المرأة اللعينة لأشهر. إن لم أرَ أنا، فلِمَ كان يجب عليكِ أنتِ؟"

لم يكن لدى إلويز ما تقوله لهذا، لا شيء على الأقل لن يجعل زوجها المثقل بالذنب أصلًا يشعر بأسوأ. قالت أخيرًا:

– "أفترض أنك طردتها."

أومأ.

– "أخبرت الطفلين أنكِ ستساعدين في إيجاد بديل."

قالت بسرعة:

– "بالطبع."

– "وأنا..."

توقف، تنحنح، ونظر عبر النافذة قبل المتابعة.

– "أنا..."

سألت بهدوء:

– "ما الأمر يا فيليب؟"

لم يلتفت إليها حين قال:

– "سأكون أبًا أفضل. لقد دفعتهم بعيدًا لفترة طويلة جدًا. كنت خائفًا جدًا من أن أصبح والدي، من أن أكون مثله، لدرجة أني..."

همست إلويز واضعة يدها على يده:

– "فيليب، أنت لست مثل والدك. لا يمكن أن تكون أبدًا."

قال بصوت أجوف:

– "لا، لكني ظننت أني قد أكون. أحضرت سوطًا ذات مرة. ذهبت للاسطبلات وأمسكت بالسوط."

سقط رأسه بين يديه.

– "كنت غاضبًا جدًا. غاضبًا بشكل دموي."

همست، عالمة أن كلماتها حقيقة. لا بد أن تكون كذلك.

– "لكنك لم تستخدمه."

هز رأسه.

– "لكني أردت ذلك."

كررت، مبقية صوتها حازمًا قدر استطاعتها:

– "لكنك لم تفعل."

قال مرة أخرى، ولم تكن واثقة حتى من أنه سمعها، لشدة ضياعه في ذكراه الخاصة:

– "كنت غاضبًا جدًا."

لكن بعد ذلك التفت إليها، واخترقت عيناه عينيها.

– "هل تفهمين ما معنى أن تكون مرتعبًا من غضبك الخاص؟"

هزت رأسها.

قال:

– "أنا لست رجلًا صغيرًا يا إلويز. يمكنني إيذاء شخص ما."

ردت:

– "وكذلك أنا."

ثم، عند نظرته الجافة، أضافت:

– "حسنًا، ربما ليس أنت، لكني بالتأكيد كبيرة بما يكفي لإيذاء طفل."

نخر ملتفتًا بعيدًا:

– "أنتِ لن تفعلي ذلك أبدًا."

كررت:

– "ولا أنت."

صمت.

وفجأة، فهمت. قالت بهدوء:

– "فيليب. قلت إنك كنت غاضبًا، ولكن... ممن كنت غاضبًا؟"

نظر إليها بعدم فهم.

– "لقد ألصقا شعر مربيتهما بالملاءات يا إلويز."

قالت ملوحة بيدها باستخفاف:

– "أعرف. أنا واثقة تمامًا أني كنت سأرغب في خنقهما معًا، لو كنت حاضرة. لكن ليس هذا ما سألته."

انتظرت منه نوعًا من الرد. وحين لم يفعل، أضافت:

– "هل كنت غاضبًا منهما بسبب الغراء، أم كنت غاضبًا من نفسك، لأنك لم تعرف كيف تجعلهما يطيعان؟"

لم يقل شيئًا لكن كلاهما عرف الإجابة.

مدت إلويز يدها ولمست يده. كررت:

– "أنت لا تشبه والدك في شيء يا فيليب. لا شيء."

قال فيليب بهدوء:

– "أعرف ذلك الآن. ليس لديكِ فكرة كم أردت تمزيق المربية إدواردز اللعينة تلك إربًا إربًا."

قالت إلويز، ناخرة وهي تستند للخلف في مقعدها:

– "أستطيع التخيل."

شعر فيليب بشفتيه تختلجان. لم تكن لديه فكرة لماذا، لكن كان هناك شيء مضحك تقريبًا في نبرة زوجته، شيء مريح، حتى. بطريقة ما وجدا فكاهة في موقف لا ينبغي أن يكون فيه أي منها. وشعر بذلك جيدًا.

أضافت إلويز وهي تهز كتفيها:

– "لم تستحق أقل من ذلك."

ثم التفتت ونظرت إليه.

– "لكنك لم تلمسها، أليس كذلك؟"

هز رأسه.

– "لا. وإن تمكنت من كبح جماح أعصابي معها، فأنا بالتأكيد لن أفقدها أبدًا مع أطفالي."

قالت إلويز، وكأنه لم يكن هناك شك في ذلك أبدًا:

– "بالطبع لا."

ربتت على يده، ثم نظرت عبر النافذة، غير قلقة بوضوح.

إيمان كهذا به، أدرك فيليب. إيمان كهذا بطيبته الداخلية، بجودة روحه، حين كان هو ممزقًا بالشك لسنوات طوال.

ثم شعر أنه يجب أن يكون صادقًا، يجب أن يعترف، وقبل أن يدرك ما يفعله، اندفع قائلًا:

– "ظننت أنكِ تركتِني."

التفتت إليه بصدمة.

- "الليلة الماضية؟ لمَ قد تظن ذلك بحق السماء؟"

هز كتفيه باستخفاف بالذات.

- "أوه، لا أعرف. قد يكون لأنكِ غادرتِ لمنزل أخيك ولم تعودي أبدًا."

همهمت عند ذلك.

- "السبب في بقائي واضح الآن، وفضلًا عن ذلك، لن أتركك أبدًا. يجب أن تعرف ذلك."

رفع حاجبه.

- "يجب عليّ؟"

قالت، وبدت غاضبة منه نوعًا ما:

- "بالطبع يجب عليك. قطعت عهدًا في تلك الكنيسة، وأؤكد لك أني لا أستخف بمثل هذه الأمور. فضلًا عن ذلك، التزمت لـ أوليفر وأماندا بأن أكون أمهما، ولن أدير ظهري لذلك أبدًا."

نظر إليها فيليب بثبات، ثم تمتم:

- "لا. لا، لن تفعلي. من السخف مني ألا أفكر في ذلك."

أرجعت ظهرها للخلف وعقدت ذراعيها.

- "حسنًا، كان عليك ذلك. أنت تعرفني أفضل من هذا."

ثم، حين لم يقل شيئًا آخر، أضافت:

- "هذان الطفلان المسكينان. لقد فقدا أمًا بالفعل دون ذنب منهما. بالتأكيد لن أهرب وأجعلهما يمران بكل ذلك مرة أخرى."

التفتت إليه بتعبير منزعج للغاية.

- "لا أصدق أنك ظننت ذلك بي حتى."

بدأ فيليب يتساءل الشيء نفسه. عرف إلويز فقط منذ... يا إلهي، هل يعقل أنهما أسبوعان فقط؟ بدا الأمر، بطرق عديدة، كعمر كامل. لأنه شعر أنه يعرفها، من الداخل والخارج. ستكون لها دائمًا أسرارها، بالطبع، كما لكل الناس، وهو واثق تمامًا أنه لن يفهمها أبدًا، بما أنه لا يستطيع تخيل فهم أي أنثى أبدًا.

لكنه يعرفها. واثق تمامًا من أنه يعرفها. وكان يجب أن يعرف أفضل من القلق بشأن تخليها عن زواجهما.

لا بد أنه كان ذعرًا، خالصًا وبسيطًا. وافترض، لأنه كان من الأفضل التفكير في أنها تركته بدلًا من تخيلها ميتة في خندق بجانب الطريق. مع الأول يمكنه على الأقل اقتحام منزل أخيها وجرها للمنزل.

لو ماتت...

لم يكن مستعدًا للألم الذي شعر به في أحشائه لمجرد التفكير.

متى أصبحت تعني له كل هذا؟ وماذا سيفعل لإبقائها سعيدة؟

لأنه يحتاجها سعيدة. ليس فقط، كما كان يخبر نفسه، لأن إلويز السعيدة تعني أن حياته ستستمر في السير بسلاسة. يحتاجها سعيدة لأن مجرد التفكير في كونها تعيسة كان كالسكين في قلبه.

أصابت السخرية هدفها بدقة، بالفعل. أخبر نفسه، مرارًا وتكرارًا، أنه تزوجها لتكون أمًا لأطفاله، لكن للتو، حين أعلنت أنها لن تترك زواجهما أبدًا، أن التزامها تجاه التوأم قوي جدًا...

شعر بالغيرة.

شعر بالغيرة من أطفاله بالفعل. أرادها أن تذكر كلمة "زوجة"، وكل ما سمعه كان "أمًا".

أرادها أن تريده. هو. ليس فقط لأنها قطعت عهدًا في كنيسة، بل لأنها مقتنعة تمامًا بأنها لا تستطيع العيش بدونه. ربما حتى لأنها تحبه.

تحبه.

يا إلهي، متى حدث هذا؟ متى أصبح يريد الكثير من الزواج؟ تزوجها لترعى أطفاله؛ كلاهما علم ذلك.

ثم كان هناك الشغف. إنه رجل، بحق الله، ولم يضطجع مع امرأة لثماني سنوات. كيف لا يسكر بشعور بشرة إلويز بجوار بشرته، بصوت شهقاتها وأنينها حين تنفجر حوله؟ بالقوة الخالصة لمتعته الخاصة كلما دخل فيها؟

وجد كل ما أراده يومًا في زواج. إلويز تدير حياته بكمال نهارًا وتدفئ سريره بمهارة محظية ليلًا. حققت كل رغباته جيدًا لدرجة أنه لم يلاحظ أنها فعلت شيئًا أكثر.

لقد وجدت قلبه. لمسته، غيرته. غيرته هو.

أحبها. لم يكن يبحث عن الحب، لم يفكر فيه حتى، لكن ها هو ذا، وكان أثمن شيء يمكن تخيله.

كان عند فجر يوم جديد، الصفحة الأولى من فصل جديد في حياته. كان أمرًا مثيرًا. ومرعبًا. لأنه لم يرد الفشل. ليس الآن، ليس حين وجد أخيرًا كل ما يحتاجه. إلويز. أطفاله. نفسه.

مرت سنوات منذ شعر بالراحة في جلده، منذ وثق بحدسه. منذ نظر في المرآة دون تجنب نظراته الخاصة.

نظر عبر النافذة. كانت العربة تبطئ، تتوقف بمحاذاة رومني هول. بدا كل شيء رماديًا – السماء، حجر المنزل، النوافذ، التي عكست السحب. حتى العشب بدا أقل خضرة قليلًا بلا شمس لتفتيح لونه.

ناسب مزاجه التأملي تمامًا.

ظهر خادم لمساعدة إلويز على النزول، وبمجرد أن قفز فيليب لجانبها، التفتت إليه وقالت:

– "أنا منهكة، وأنت تبدو كذلك. هل نذهب لأخذ قيلولة؟"

كان على وشك الموافقة، بما أنه منهك، لكن فجأة، وقبل أن تغادر الكلمات شفتيه، هز رأسه وقال:

– "اذهبي أنتِ بدوني."

فتحت فمها لسؤاله، لكنه أسكتها بضغطة لطيفة على كتفها.

– "سأصعد قريبًا. لكن الآن، أظن أني أريد عناق طفليّ."

الفصل الثامن عشر

... لا أخبركِ كثيرًا بما يكفي، يا أمي الحبيبة، كم أنا ممتنة لكوني ابنتكِ.
نادرة هي الوالدة التي تمنح طفلتها مثل هذه الحرية والتفهم.
والأندر هو من ينادي ابنته بالصديقة. أنا أحبكِ، يا أمي العزيزة.

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى والدتها،
عقب رفضها لعرض الزواج السادس

حين استيقظت إلويز من قيلولتها، فوجئت برؤية أن الملاءات على الجانب الآخر من السرير مرتبة وغير مجعدة. كان فيليب متعبًا تمامًا مثلها، وربما أكثر، بما أنه ركب الخيل طوال الطريق لمنزل بينديكت في الليلة السابقة، تحت الريح والمطر، لا أقل.

بعد أن هندمت نفسها، شرعت في البحث عنه، لكنه لم يكن في أي مكان. أخبرت نفسها ألا تقلق، أنهما مرا بأيام صعبة قليلة، وأنه ربما يحتاج فقط لبعض الوقت لنفسه، للتفكير.

مجرد لأنها لا تفضل العزلة لا يعني أن الجميع يتفق معها.

ضحكت بلا مرح لنفسها. كان ذلك درسًا حاولت – بلا نجاح – تعلمه طوال حياتها.

وهكذا أجبرت نفسها على التوقف عن البحث عنه. إنها متزوجة الآن، وفجأة فهمت ما كانت أمها تحاول جاهدة إخبارها به في ليلة زفافها. الزواج يدور حول التسويات، وهي وفيليب شخصان مختلفان جدًا. قد يكونان مثاليين لبعضهما البعض، لكن ذلك لا يعني أنهما متماثلان. وإن أرادته أن يغير بعض طرقه لأجلها، حسنًا، فسيكون عليها فعل المثل لأجله.

لم تره بقية اليوم، لا حين تناولت الشاي بعد الظهر، ولا حين ودعت التوأم ليلًا، ولا عند العشاء، الذي اضطرت لتناوله وحدها، شاعرة بضآلة ووحدة شديدة على طاولة الماهوجني الكبيرة.

تناولت طعامها في صمت، واعية دائمًا لأعين الخدم المراقبة، وكلاهما يبتسم لها بتعاطف وهما يحضران طعامها.

ابتسمت إلويز في المقابل، لأنها تؤمن بوجوب الأدب في كل شيء، لكن في داخلها كانت تتنهد باستسلام. إنها حالة محزنة حين يشفق عليكِ الخدم (رجال، يا للسماء، وعادة ما يكونون غافلين عن ضيق الآخرين).

لكن مرة أخرى، ها هي ذي، بعد أسبوع واحد فقط من زواجها وتتناول العشاء وحدها. من ذا الذي لا يشفق عليها؟

فضلًا عن ذلك، آخر ما عرفه الخدم هو أن السير فيليب اندفع غاضبًا خارج الباب لإحضار زوجته، التي يُفترض أنها هربت لمنزل أخيها بعد شجار مريع.

حين توضع الأمور هكذا، فكرت إلويز بتنهيدة، ليس من المستغرب جدًا أن فيليب قد ظن أنها تركته.

أكلت باقتضاب، غير راغبة في إطالة أمد الوجبة أكثر مما يلزم، وحين أنهت لقمتَي الحلوى الإلزاميتين، وقفت، عازمة تمامًا على الذهاب للفراش، حيث، افترضت، ستقضي وقتها كما فعلت طوال اليوم – وحيدة.

لكن حين خطت للردهة، وجدت نفسها متململة، غير مستعدة تمامًا للتقاعد. وهكذا بدأت تمشي، بلا هدف نوعًا ما، عبر المنزل. كانت ليلة باردة لأواخر مايو، وكانت سعيدة لإحضارها شالًا. قضت إلويز وقتًا في العديد من

المنازل الريفية الفخمة، حيث تُشعل كل المواقد ليلًا، تاركة المنزل في وهج من الضوء والدفء، لكن رومني هول، رغم كونه دافئًا ومريحًا، لم يحمل مثل هذه الأوهام عن أهمية الذات، ولذا بقيت معظم الغرف مغلقة ليلًا، والمواقد تُشعل فقط عند الحاجة.

وتباً، كان الجو باردًا.

سحبت شالها بإحكام حول كتفيها وهي تمشي، مستمتعة نوعًا ما بإيجاد طريقها بضوء القمر الخافت فقط كدليل. لكن بعد ذلك، وبينما تقترب من معرض الصور، رأت ضوء فانوس لا تخطئه العين.

شخص ما هناك، وعرفت، حتى قبل أن تخطو خطوة أخرى للأمام، أنه فيليب.

اقتربت بهدوء، سعيدة لارتدائها خفها ذا النعل اللين، وأطلت عبر المدخل.

المشهد الذي رأته كاد يفطر قلبها.

كان فيليب واقفًا هناك، ساكنًا تمامًا، أمام لوحة مارينا. لم يتحرك على الإطلاق، باستثناء طرفة عرضية لعينيه. وقف هناك فقط، ينظر إليها، ينظر لزوجته الميتة، والتعبير على وجهه كان كئيبًا وحزينًا لدرجة أن إلويز كادت تشهق.

هل كذب عليها حين قال إنه لم يحب مارينا؟ حين قال إنه لم يشعر بشغف؟

وهل يهم؟ مارينا ميتة. ليس وكأنها منافسة حقيقية على عواطف فيليب. وحتى لو كانت، هل يهم؟ لأنه لا يحب إلويز أيضًا، وهي لم...

أو ربما، أدركت، في واحدة من تلك الومضات التي تخطف النفس من الرئتين، أنها تحبه.

من الصعب تخيل متى حدث ذلك، أو حتى كيف حدث، لكن هذا الشعور الذي تكنه له، هذه المودة والاحترام، قد نما ليصبح شيئًا أعمق.

ويا، كم أرادته أن يشعر بالشيء نفسه.

كان يحتاجها. من ذلك كانت واثقة تمامًا. يحتاجها ربما أكثر مما تحتاجه هي، لكن لم يكن هذا هو الأمر. أحبت كونها محتاجة، مرغوبة، لا غنى عنها حتى، لكن كان هناك المزيد لمشاعرها.

أحبت طريقة ابتسامته، المائلة قليلًا، الصبيانية قليلًا، ومع نغمة مفاجأة صغيرة، وكأنه لا يصدق تمامًا سعادته الخاصة.

أحبت الطريقة التي ينظر بها إليها، وكأنها أجمل امرأة في العالم، حين كانت تعلم، بوضوح تام، أنها ليست كذلك.

أحبت الطريقة التي يصغي بها فعليًا لما لديها لقوله، والطريقة التي لا يسمح لها فيها بإخافته. أحبت حتى الطريقة التي يخبرها فيها أنها تتحدث كثيرًا، لأنه دائمًا ما يفعل ذلك بابتسامة، ولأنه، بالطبع، كان محقًا.

وأحبت الطريقة التي يظل يستمع إليها، حتى بعد إخبارها بأنها تتحدث كثيرًا.

أحبت الطريقة التي يحب بها أطفاله.

أحبت شرفه، وصدقه، وحس دعابته الماكر.

وأحبت الطريقة التي تناسبت بها في حياته، والطريقة التي تناسب بها في حياتها.

كان الأمر مريحًا. كان صحيحًا.

وهنا، أدركت أخيرًا، هو المكان الذي تنتمي إليه.

لكنه كان واقفًا هناك، يحدق في لوحة زوجته الميتة، ومن الطريقة التي كان ساكنًا بها ولا يتحرك... حسنًا، الله وحده يعلم منذ متى وهو يفعل ذلك. وإن كان لا يزال يحبها...

كظمت موجة من الذنب. من هي لتشعر بأي شيء سوى الحزن نيابة عن مارينا؟ لقد ماتت صغيرة جدًا، وبشكل غير متوقع. وفقدت ما اعتبرته إلويز حق كل أم وهبه الله – مشاهدة أطفالها يكبرون.

الشعور بالغيرة من امرأة كهذه كان أمرًا لا يغتفر.

ومع ذلك...

ومع ذلك لا بد أن إلويز ليست شخصًا جيدًا كما ينبغي، لأنها لم تستطع مشاهدة هذا المشهد، لم تستطع مشاهدة فيليب يحدق في لوحة زوجته الأولى دون أن يعتصر الحسد قلبها. لقد أدركت لتوها أنها تحب هذا الرجل، وستحبه لآخر يوم في حياتها. تحتاجه هو، وليس امرأة ميتة.

لا، فكرت بضراوة. إنه لا يزال يحب مارينا. ربما لم يحب مارينا قط. قال في الصباح السابق إنه لم يكن مع امرأة لثماني سنوات.

ثماني سنوات؟

استوعبت الأمر أخيرًا.

يا إلهي.

لقد قضت اليومين الماضيين في دوامة من العاطفة لدرجة أنها لم تتوقف وتفكر حقًا – تفكر حقًا – فيما قاله.

ثماني سنوات.

لم يكن ذلك ما توقعته. ليس من رجل مثل فيليب، الذي يستمتع بوضوح – لا، يحتاج بوضوح – للجوانب الجسدية من الحب الزوجي.

مارينا ميتة منذ خمسة عشر شهرًا فقط. إن كان فيليب قد بقي بلا امرأة لثماني سنوات، فهذا يعني أنهما لم يتشاركا غرفة نوم منذ حمل التوأم.

لا...

أجرت إلويز بعض الحسابات الذهنية. لا، سيكون ذلك بعد ولادة التوأم. بقليل.

بالطبع، قد يكون فيليب مخطئًا في تواريخه، أو ربما يبالغ، لكن بطريقة ما لم تظن إلويز ذلك. ظنت بالأحرى أنه يعرف بالضبط متى نام هو ومارينا معًا لآخر مرة، وخشيت، خاصة الآن وقد حددت تاريخ الأمر، أنها كانت مناسبة مريعة بالفعل.

لكنه لم يخنها. ظل مخلصًا لامرأة حُظر عليه فراشها. لم تتفاجأ إلويز، نظرًا لحسه الفطري بالشرف والكرامة، لكنها لم تظن أنها كانت لتنتقص من قدره لو سعى للراحة في مكان آخر.

وحقيقة أنه لم يفعل...

جعلتها تحبه أكثر.

لكن إن كان وقته مع مارينا صعبًا ومقلقًا هكذا، فلماذا جاء هنا الليلة؟ لماذا يحدق في لوحتها، واقفًا هناك وكأنه لا يستطيع التحرك من مكانه؟ يحدق فيها وكأنه يتوسل إليها، يستجديها لشيء ما.

يستجدي معروفًا من امرأة ميتة.

لم تستطع إلويز الاحتمال أكثر. تقدمت للأمام وتنحنحت.

فاجأها فيليب بالالتفات فورًا؛ ظنت أنه ضائع تمامًا في عالمه الخاص لدرجة أنه لن يسمعها. لم يقل شيئًا، ولا حتى اسمها، لكن بعد ذلك...

مد يده.

مشت للأمام وأخذتها، لا تعرف ماذا تفعل، ولا حتى تعرف – بغرابة الأمر – ماذا تقول. لذا وقفت بجواره فقط وحدقت لأعلى في لوحة مارينا.

سألت، رغم أنها سألته من قبل:

– "هل أحببتها؟"

قال:

– "لا."

وأدركت أن جزءًا صغيرًا منها لا بد كان لا يزال قلقًا جدًا، لأن موجة الراحة التي شعرت بها عند إنكاره كانت مفاجئة في قوتها.

– "هل تفتقدها؟"

كان صوته أرق، لكنه واثق.

– "لا."

همست:

– "هل كرهتها؟"

هز رأسه، وبدا حزينًا جدًا حين قال:

– "لا."

لم تعرف ماذا تسأل أيضًا، لم تكن واثقة مما يجب أن تسأل، لذا انتظرت فقط، آملة أن يتحدث.

وبعد فترة طويلة جدًا، فعل.

قال:

– "كانت حزينة. كانت دائمًا حزينة."

نظرت إلويز إليه، لكنه لم يبادلها النظرة. كانت عيناه على لوحة مارينا، وكأنه مضطر للنظر إليها بينما يتحدث عنها. وكأنه ربما يدين لها بذلك.

تابع:

– "كانت دائمًا كئيبة، دائمًا هادئة أكثر مما ينبغي قليلًا، إن كان لذلك أي معنى، لكن الأمر كان أسوأ بعد ولادة التوأم. لا أعرف ما حدث. قالت القابلة إنه من الطبيعي للنساء البكاء بعد الولادة لكن لا داعي للقلق، وأن الأمر سيزول في غضون أسابيع."

قالت إلويز بهدوء:

– "لكنه لم يزل."

هز رأسه، ثم أزاح خصلة شعر داكنة بعنف حين سقطت على جبينه.

– "ازداد الأمر سوءًا فقط. لا أعرف كيف أشرح ذلك. كان الأمر وكأنها..."

هز كتفيه بقلة حيلة وهو يبحث عن الكلمات، وحين تابع، كان يهمس.

– "كان الأمر وكأنها اختفت... نادرًا ما غادرت فراشها... لم أرها تبتسم قط... بكت كثيرًا. كثيرًا جدًا."

خرجت الجمل، ليس باندفاع، بل واحدة تلو الأخرى، وكأن كل معلومة تُستحضر من ذاكرته بتتابع بطيء. لم تقل إلويز شيئًا، لم تشعر أن من حقها مقاطعته أو محاولة إقحام مشاعرها في مسألة لا تعرف عنها شيئًا.

ثم، أخيرًا، التفت بعيدًا عن مارينا لـ إلويز، ونظر لها في عينها مباشرة.

– "حاولت كل شيء لإسعادها. كل شيء في وسعي. كل شيء عرفته. لكنه لم يكن كافيًا."

فتحت إلويز فمها، أصدرت صوتًا صغيرًا، بداية همهمة قصدت بها طمأنته بأنه بذل قصارى جهده، لكنه قاطعها.

سأل، وصوته يعلو، ويصبح أكثر إلحاحًا:

– "هل تفهمين يا إلويز؟ لم يكن كافيًا."

قالت بهدوء، لأنه رغم عدم معرفتها بـ مارينا كبالغة، فهي تعرف فيليب، وتعرف أن تلك لا بد أن تكون الحقيقة:

– "لم يكن خطأك."

قال وصوته مستوٍ:

– "في النهاية استسلمت فقط. توقفت عن محاولة مساعدتها على الإطلاق. سئمت وتعبت من ضرب رأسي بالحائط فيما يخصها. وكل ما حاولت فعله هو حماية الأطفال، وإبقاؤهم بعيدًا حين تكون ـ في نوبة سيئة حقًا. لأنهم أحبوها كثيرًا."

نظر إليها بتوسل، ربما من أجل التفهم، وربما من أجل شيء آخر لم تفهمه إلويز.

– "كانت أمهم."

قالت بهدوء:

– "أعرف."

– "كانت أمهم، ولم... لم تستطع..."

قالت إلويز بحرارة:

– "لكنك كنت هناك. أنت كنت هناك."

ضحك بقسوة.

– "نعم، ويا له من نفع كبير قدمه ذلك لهم. أن تولد بوالد واحد مريع شيء، لكن باثنين؟ لم أكن لأتمنى ذلك لأطفالي أبدًا، ومع ذلك... ها نحن ذا."

قالت إلويز، عاجزة عن إبعاد نبرة التوبيخ عن صوتها:

– "أنت لست أبًا سيئًا."

هز كتفيه فقط والتفت عائدًا للوحة، عاجزًا بوضوح عن النظر في كلماتها.

همس:

– "هل تعرفين كم آلم ذلك؟ هل لديكِ أدنى فكرة؟"

هزت رأسها، رغم أنه التفت بعيدًا.

– "أن تحاول بجد، بجد لعين، ولا تنجح أبدًا؟ تباً..."

ضحك، صوت قصير ومرير، مليء بكراهية الذات.

– "تباً، لم أكن أحبها حتى وآلمني الأمر كثيرًا."

سألت إلويز، ومفاجأتها ترفع نبرة كلماتها لطبقة مختلفة:

– "لم تكن تحبها؟"

التوت شفتاه بسخرية.

– "هل يمكنكِ حب شخص لا تعرفينه حتى؟"

التفت إليها عائدًا.

– "لم أكن أعرفها يا إلويز. كنت متزوجًا منها لثماني سنوات، ولم أعرفها أبدًا."

– "ربما لم تدعك تعرفها."

– "ربما كان عليّ المحاولة بجد أكبر."

قالت إلويز، واضعة في صوتها كل ما استطاعت من يقين وقناعة:

– "ربما، لم يكن هناك المزيد مما كان يمكنك فعله. بعض الناس يولدون سوداويين يا فيليب. لا أعرف لماذا، وأشك أن أحدًا يعرف لماذا، لكن هذه هي طبيعتهم فقط."

نظر إليها بتهكم، وعيناه الداكنتان ترفضان رأيها بوضوح، لذا قفزت مجددًا قائلة:

– "لا تنسَ، عرفتها أنا أيضًا. كطفلة، قبل وقت طويل حتى من معرفتك بوجودها."

تغير تعبير فيليب حينها، وازدادت نظراته كثافة على وجهها لدرجة أنها كادت تتململ تحت ضغطها.

قالت إلويز بهدوء:

– "لم أسمعها تضحك قط. ولا حتى مرة واحدة. كنت أحاول تذكرها بشكل أفضل منذ التقيتك، محاولة تذكر لمَ بدت ذكرياتي عنها دائمًا غريبة وشاذة، وأظن أن هذا هو السبب. لم تضحك أبدًا. من سمع بطفل لا يضحك؟"

صمت فيليب للحظات، ثم قال:

– "لا أظن أني سمعتها تضحك أبدًا، أنا الآخر. أحيانًا كانت تبتسم، عادة حين يأتي الأطفال لرؤيتها، لكنها لم تضحك أبدًا."

أومأت إلويز. ثم قالت:

– "أنا لست مارينا يا فيليب."

قال:

– "أعرف. صدقيني، أعرف. لهذا تزوجتكِ، أتعلمين."

لم يكن ذلك ما أرادت سماعه تمامًا، لكنها كظمت خيبة أملها وسمحت له بالمتابعة.

تعمقت التجاعيد في جبهته، وفركها بقوة. بدا مثقلًا جدًا، متعبًا جدًا من مسؤولياته.

قال:

– "أردت فقط شخصًا لن يكون حزينًا. شخصًا يكون حاضرًا للأطفال، شخصًا لن..."

قطع كلامه، والتفت بعيدًا.

سألت بإلحاح، مستشعرة أهمية الأمر:

– "شخصًا لن ماذا؟"

لفترة طويلة ظنت أنه لن يجيب، ثم، حين يئست منه تمامًا، قال:

– "ماتت بالإنفلونزا. تعرفين ذلك، أليس كذلك؟"

قالت، بما أن ظهره كان لها ولن يرى إيماءتها:

– "نعم."

كرر:

– "ماتت بالإنفلونزا. هذا ما قلناه للجميع..."

شعرت إلويز فجأة بغثيان شديد، لأنها عرفت، عرفت تمامًا ما سيقوله.

قال بمرارة، مفاجئًا إياها بكلماته. كانت واثقة جدًا من أنه سيقول إنهم كانوا يكذبون طوال الوقت.

قال مرة أخرى:

– "إنها الحقيقة. لكنها لم تكن الحقيقة كاملة. لقد ماتت بالإنفلونزا بالفعل، لكننا لم نخبر أحدًا قط عن سبب مرضها."

همست إلويز، والكلمات تخرج منها دون إرادة. لم تدرك حتى أنها كانت تفكر فيها حتى نطقتها:

– "البحيرة."

أومأ بوجوم.

– "لم تسقط فيها بالصدفة."

طارت يدها لتغطي فمها. لا عجب أنه كان مستاءً جدًا لأخذها الأطفال هناك. شعرت بالفظاعة. بالطبع لم تكن تعلم، لم يكن بإمكانها أن تعلم، لكن مع ذلك...

قال:

– "وصلت إليها في الوقت المناسب. في الوقت المناسب لإنقاذها من الغرق، هذا هو. ليس في الوقت المناسب لإنقاذها من حمى الرئة بعد ثلاثة أيام."

خنق ضحكة مريرة.

– "حتى شاي لحاء الصفصاف الشهير خاصتي لم يستطع القيام بالمهمة لأجلها."

همست إلويز:

– "أنا آسفة للغاية."

وكانت كذلك، رغم أن موت مارينا، بطرق عديدة، جعل سعادتها هي ممكنة.

قال، دون النظر إليها:

– "أنتِ لا تفهمين. لا يمكنكِ ذلك."

قالت بحذر، غير واثقة مما إذا كانت هذه هي الكلمات التي يُفترض قولها في موقف كهذا:

– "لم أعرف شخصًا أنهى حياته بيده قط."

قال، وكاد ينفجر حقًا:

– "ليس هذا ما أعنيه. لا تعرفين ما معنى الشعور بأنكِ محاصرة، عالقة، بلا أمل. أن تحاولي بجد ولا تنجحي أبدًا، أبدًا..."

التفت إليها حينها، وعيناه تقدحان شررًا.

– "...في الاختراق. حاولت. كل يوم حاولت. حاولت لأجلي وحاولت لأجل مارينا، وقبل كل شيء لأجل أوليفر وأماندا. فعلت كل ما عرفته، كل ما أخبرني الجميع بفعله، ولا شيء، ولا شيء واحد جعل الأمر ينجح. حاولت، وهي بكت، ثم حاولت مرة أخرى ومرة أخرى ومرة أخرى، وكل ما فعلته هي هو حفر نفسها أعمق في سريرها اللعين وسحب الأغطية فوق رأسها. عاشت في الظلام وستائرها مسدلة والأضواء خافتة ثم اختارت اليوم المشمس الوحيد الملعون لتذهب وتقتل نفسها."

اتسعت عينا إلويز.

– "يوم مشمس. حظينا بشهر لعين من السماوات الملبدة، ثم أخيرًا خرجت الشمس، وكان عليها قتل نفسها."

ضحك، لكن الصوت كان قصيرًا ومريرًا.

– "بعد كل ما فعلته، كان عليها الذهاب وتخريب الأيام المشمسة لي."

قالت إلويز واضعة يدها على ذراعه:

– "فيليب."

لكنه نفضها عنه فقط.

– "وكأن ذلك لم يكن كافيًا، لم تستطع حتى قتل نفسها بشكل صحيح. حسنًا، لا،" قال بقسوة، "أفترض أن ذلك كان خطئي. كانت لتكون ميتة تمامًا

لولا أني جئت وأجبرتها على تعذيبنا جميعًا لثلاثة أيام أخرى، نتساءل إن كانت ستعيش أم تموت."

عقد ذراعيه ونخر باشمئزاز.

- "لكن بالطبع ماتت. لا أعرف لمَ تمسكنا بالأمل حتى. لم تقاوم على الإطلاق، لم تستخدم ولو أوقية من الطاقة لمحاربة المرض. استلقت هناك فقط وتركت المرض يأخذها، وظللت أنتظر منها أن تبتسم، وكأنها سعيدة أخيرًا لأنها نجحت الآن في الشيء الوحيد الذي أرادت فعله."

همست إلويز، وقد أمرضتها الصورة:

- "أوه، يا إلهي. هل فعلت؟"

هز رأسه.

- "لا. لم تملك حتى الطاقة لذلك. ماتت فقط بنفس التعبير على وجهها الذي كان دائمًا. فارغ."

قالت إلويز، رغم علمها أن كلماتها لا يمكن أن تكون كافية أبدًا:

- "أنا آسفة للغاية. لا ينبغي لأحد أن يمر بشيء كهذا."

حدق فيها لفترة طويلة، وعيناه تبحثان في عينيها، تبحثان عن شيء، تبحثان عن إجابة لم تكن واثقة من امتلاكها. ثم التفت فجأة ومشى للنافذة، يحدق في سماء الليل الحالك. قال، وصوته هادئ بالاستسلام والندم:

- "حاولت بجد، ومع ذلك، تمنيت كل يوم لو كنت متزوجًا من شخص آخر."

مال رأسه للأمام، حتى استند جبينه على الزجاج.

- "أي شخص آخر."

لزم الصمت لفترة طويلة جدًا. أطول مما ينبغي، في تقدير إلويز، لذا تقدمت للأمام، متمتمة باسمه، فقط لسماع رده. فقط لتعرف أنه بخير.

قال، وصوته مقتضب:

- "بالأمس، قلتِ إن لدينا مشكلة..."

قاطعته بأسرع ما يمكنها:

– "لا. لم أعنِ..."

كرر، وصوته منخفض وقوي لدرجة أنها لم تظن أنه سيسمع مقاطعة أخرى حتى لو حاولت:

– "قلتِ إن لدينا مشكلة. ولكن حتى تعيشي ما عشته، حتى تكوني محاصرة في زواج ميئوس منه، لشريك ميئوس منه، حتى تذهبي للفراش وحدك لسنوات لا تتمنين شيئًا أكثر من لمسة إنسان آخر..."

استدار، وخطى نحوها، وعيناه تشتعلان بنار جعلتها تشعر بالتواضع.

– "حتى تعيشي كل ذلك، إياكِ أن تشتكي مما لدينا. لأنه بالنسبة لي... بالنسبة لي..."

اختنق بالكلمات، لكنه بالكاد توقف قبل أن يتابع.

– "هذا – نحن – هو الجنة. ولا أحتمل سماعكِ تقولين غير ذلك."

قالت:

– "أوه، فيليب."

ثم فعلت الشيء الوحيد الذي عرفته. أغلقت المسافة بينهما ورمت ذراعيها حوله وتمسكت به بكل ما أوتيت من قوة. همست، ودموعها تبلل قميصه:

– "أنا آسفة. أنا آسفة للغاية."

اختنق بالكلمات، دافنًا وجهه في تجويف عنقها:

– "لا أريد الفشل مرة أخرى. لا أستطيع – لم أستطع –"

أقسمت:

– "لن تفعل. لن نفعل."

قال، وكلماته تبدو وكأنها مُزقت من حلقه:

– "يجب أن تكوني سعيدة. يجب أن تكوني. أرجوكِ قولي..."

طمأنته:

– "أنا كذلك. أنا كذلك. أعدك."

تراجع وأمسك وجهها بين يديه، مجبرًا إياها على النظر بعمق في عينيه. بدا كأنه يبحث عن شيء في تعبيرها، يسعى يائسًا للتأكيد، أو ربما الغفران، أو ربما مجرد وعد بسيط.

همست، مغطية يديه بيديها:

– "أنا سعيدة. أكثر مما حلمت به يومًا. وأنا فخورة بكوني زوجتك."

بدا وجهه يشتد، وشفته السفلى بدأت ترتجف. حبست إلويز أنفاسها. لم ترَ رجلًا يبكي من قبل، لم تظن حقًّا أن ذلك ممكن، لكن دمعة تدحرجت ببطء على خده، مستقرة في الغمازة عند زاوية فمه حتى مدت يدها ومسحتها.

قال، مختنقًا بالكلمات:

– "أنا أحبك. لا يهمني حتى إن كنتِ لا تشعرين بالمثل. أنا أحبك و... و..."

همست، رافعة يدها لتلمس الدموع على وجهه:

– "أوه، فيليب. أنا أحبك أيضًا."

تحركت شفتاه وكأنهما تحاولان تشكيل كلمات، ثم تخلى عن الكلام، ومد يده لها، ساحقًا إياها نحوه بقوة وكثافة جعلتها تشعر بالتواضع. دفن وجهه في عنقها، متمتمًا باسمها مرارًا وتكرارًا، ثم تحولت كلماته لقبلات، وتحرك على طول بشرتها حتى وجد فمها.

كم من الوقت وقفا هناك، يقبلان بعضهما وكأن العالم سينتهي تلك الليلة، لن تعرف إلويز أبدًا. ثم حملها بين ذراعيه وحملها خارج معرض الصور وصعد الدرج، وقبل أن تدرك، كانت على سريرها، وهو فوقها.

وشفتاه لم تفارقا شفتيها قط.

قال بصوت أجش، ساحبًا فستانها عن جسدها بأصابع مرتجفة:

– "أحتاجكِ. أحتاجكِ كما أحتاج النفس. أحتاجكِ كالطعام، كالماء."

حاولت قول إنها تحتاجه أيضًا، لكنها لم تستطع، ليس وفمه قد أغلق على صدرها، ليس وهو يمتص بطريقة جعلتها تشعر بذلك في أسفل بطنها، حرارة

دافئة بطيئة تلتف وتنمو، تأخذها رهينة حتى لم تستطع فعل شيء سوى الوصول لهذا الرجل، زوجها، ومنح نفسها له بكل ما تملك.

رفع نفسه عنها، فقط لفترة كافية لخلع ملابسه، ثم انضم إليها مرة أخرى، هذه المرة مستلقيًا بجانبها. سحبها إليه حتى تلامست بطونهما، ثم مسد شعرها، بنعومة، برفق، ويده الأخرى مبسوطة عند أسفل ظهرها.

همس:

– "أحبكِ. لا أريد شيئًا أكثر من إمساكك و..."

ابتلع ريقه.

– "ليس لديكِ فكرة كم أريدكِ الآن."

تقوست شفتاها.

– "أظن أن لدي بعض الفكرة."

جعله ذلك يبتسم.

– "جسدي يموت. إنه شعور لم أشعره من قبل، ومع ذلك..."

مال أقرب ولامس شفتيه بشفتيها.

– "كان عليّ التوقف. كان عليّ إخباركِ."

لم تستطع الكلام، وبالكاد استطاعت التنفس. وشعرت بالدموع قادمة، تحرق في عينيها حتى فاضت، تتدفق على يديه.

همس:

– "لا تبكي."

قالت وصوتها يرتجف:

– "لا أستطيع منع نفسي. أحبك كثيرًا. لم أظن... أملت دائمًا، لكنني أظن أني لم أعتقد حقًا..."

قال، وكلاهما يعلم فيم يفكران:

لم أظن أبدًا أن ذلك سيحدث لي.

قال:

– "أنا محظوظ جدًا."

وتحركت يداه، تنزلقان أسفل قفصها الصدري، فوق بطنها، ثم حول مؤخرتها.

– "أظن أني انتظرت حياتي كلها لأجلكِ."

قالت إلويز:

– "أعرف أني كنت أنتظرك."

عصرها وسحبها نحوه، يكاد يحرقها بلمسته. قال وصوته يرتجف:

– "لن أتمكن من التمهل. أظن أني استنفدت حصتي الكاملة من قوة الإرادة للتو."

قالت، منزلقة على ظهرها وساحبة إياه فوقها:

– "لا تتمهل."

باعدت بين ساقيها، فاتحة المجال حتى استقر بينهما، عضوه يستقر عند مدخل أنوثتها. وجدت يداها شعره وغاصتا فيه، ساحبة رأسه لأسفل حتى صار فمه عند فمها.

– "لا أريده بطيئًا."

وفي حركة انسيابية واحدة، سريعة لدرجة أنها خطفت أنفاسها، كان بداخلها، منغرسًا حتى النهاية، يضرب ضد رحمها بقوة كافية لانتزاع "أوه!" صغيرة متفاجئة من شفتيها.

ابتسم بمكر.

– "قلتِ إنكِ تريدينه سريعًا."

استجابت بلف ساقيها حوله، مقفلة عليه بها. أمالت وركيها، مما سحبه لأعمق، وابتسمت في المقابل.

– "أنت لا تفعل شيئًا."

ثم فعل.

ضاعت كل الكلمات وهما يتحركان. لم يكونا رشيقين، ولم يتحركا كجسد واحد. أجسادهما لم تكن متناغمة، والأصوات التي أصدراها لم تكن موسيقية أو جميلة.

تحركا فقط، بحاجة ونار وتخلي تام، يصلان لبعضهما البعض، يصلان للقمة. لم يطل الانتظار. حاولت إلويز جعله يدوم، حاولت الصمود، لكن لم يكن هناك سبيل. مع كل ضربة، أطلق فيليب نارًا بداخلها لا يمكن إنكارها. ثم أخيرًا، حين لم تستطع احتواء نفسها للحظة واحدة أخرى، صرخت إلويز وتقوست تحته، رافعة كلاهما عن السرير بقوة نشوتها. ارتجف جسدها واهتز، ولهثت بحثًا عن النفس، وكل ما استطاعت فعله هو التشبث بظهره، وأصابعها تترك بالتأكيد كدمات على جلده وهي تتمسك به.

ثم، قبل أن تتمكن حتى من السقوط عائدة للأرض، صرخ فيليب، وضرب للأمام مرارًا وتكرارًا، مفرغًا نفسه بداخلها حتى انهار، وزنه الكامل يثبتها في المرتبة.

لكنها لم تمانع. أحبت شعوره فوقها، أحبت الثقل، أحبت رائحة وطعم العرق على جلده.

أحبته.

كان الأمر بتلك البساطة.

أحبته، وأحبها، وإن كان هناك أي شيء آخر، أي شيء آخر مهم في عالمها، فهو لم يهم. ليس هناك، ليس حينها.

همس، متدحرجًا عنها أخيرًا وسامحًا لرئتيها بالامتلاء بالهواء:

– "أحبكِ."

أحبكِ. كان ذلك كل ما احتاجته.

الفصل التاسع عشر

... أيامي مليئة بتسليات لا تنتهي.
أتسوق، وأحضر ولائم الغداء، وأقوم بالزيارات (وأتلقى الزيارات).
في المساء، عادة ما أحضر حفلًا راقصًا أو أمسية موسيقية،
أو ربما حفلًا صغيرًا. وأحيانًا أبقى في المنزل بصحبة نفسي وأقرأ كتابًا.
حقًا، إنها حياة كاملة وحيوية؛
ليس لدي سبب للشكوى. ما الذي، كما أسأل غالبًا، قد تريده سيدة أكثر من ذلك؟

– من رسالة إلويز بريدجرتون إلى السير فيليب كرين،
بعد ستة أشهر من مراسلتهما غير المعتادة

طوال ما تبقى من أيامها، ستتذكر إلويز الأسبوع التالي كواحد من أكثر أسابيع حياتها سحرًا. لم تكن هناك أحداث مذهلة، ولا نوبات من الطقس الجيد، ولا أعياد ميلاد، ولا هدايا باهظة أو زوار غير متوقعين.

ولكن مع ذلك، ورغم أن كل شيء بدا عاديًا جدًا من الخارج على الأقل... تغير كل شيء.

لم يكن نوع الشيء الذي يضرب المرء كالصاعقة، أو حتى، كما فكرت إلويز بابتسامة ساخرة، كباب يُصفق أو نوتة عالية في الأوبرا. كان تغييرًا بطيئًا ومتسللًا، نوع الشيء الذي يبدأ دون أن يدرك المرء، وينتهي قبل أن يعرف المرء أنه بدأ حتى.

بدأ الأمر بعد بضعة صباحات من لقائها بـ فيليب في معرض الصور. حين استيقظت، كان جالسًا بكامل ملابسه عند قدم السرير، يحدق فيها بابتسامة متساهلة على وجهه.

سألت إلويز وهي تدس الملاءات تحت ذراعيها وتزحف لوضعية الجلوس:

- "ماذا تفعل هناك؟"

أجاب:

- "أراقبكِ."

انفرجت شفتاها دهشة، ثم لم تستطع منع نفسها من الابتسام.

- "لا يمكن أن يكون ذلك مثيرًا للاهتمام."

- "على العكس. لا أستطيع التفكير في أي شيء يمكنه جذب انتباهي لفترة طويلة كهذه."

احمرت خجلًا، متمتمة بشيء عن كونه سخيفًا، لكن في الحقيقة، جعلتها كلماته ترغب في سحبه عائدًا للفراش فورًا.

كان لديها شعور بأنه لن يقاوم – لم يفعل أبدًا – لكنها كبحت رغبتها، بما أنه، في النهاية، ارتدى ملابسه بالكامل، وظنت أنه فعل ذلك لسبب ما.

قال مادًا طبقًا:

- "أحضرت لكِ كعكة مافن."

شكرته إلويز وأخذت الطبق المقدم. وبينما كانت تمضغ (وتتمنى لو فكر في إحضار شيء للشرب أيضًا)، قال:

- "ظننت أننا قد نخرج في نزهة اليوم."

- "أنا وأنت؟"

قال:

- "في الواقع، ظننت أن الأربعة منا قد يذهبون."

تجمدت إلويز، وأسنانها عالقة في الكعكة، ونظرت إليه. هذه، كما أدركت، المرة الأولى التي يقترح فيها شيئًا كهذا. المرة الأولى، لعلمها على الأقل، التي يمد يده لأطفاله بدلًا من تنحيتهم جانبًا، آملًا أن يعتني بهم شخص آخر.

قالت بهدوء:

- "أظن أن تلك فكرة ممتازة."

قال ناهضًا لقدميه:

- "جيد. سأتركك لروتينكِ الصباحي وأبلغ تلك الخادمة المسكينة التي أجبرتها على العمل كمربية بأننا سنأخذهم لليوم."

قالت إلويز:

- "أنا واثقة أنها ستشعر بالراحة."

لم ترغب ماري حقًا في تولي منصب المربية، ولو بصفة مؤقتة. لم يرغب أي من الخدم؛ جميعهم عرفوا التوأم جيدًا. وماري المسكينة ذات الشعر الطويل تذكرت بوضوح اضطرارها لحرق الملاءات بعد عجزهم عن إزالة شعر المربية السابقة الملتصق بالغراء.

لكن لم يكن هناك ما يمكن فعله، وانتزعت إلويز وعدًا من كلا الطفلين بمعاملة ماري بالاحترام الواجب للملكة، مثلًا، وحتى الآن كانا يفيان بوعدهما. كانت إلويز تعقد أصابعها أملًا في أن تلين ماري وتوافق على المنصب بصفة دائمة. إنه براتب أفضل من التنظيف، في النهاية.

نظرت إلويز للباب وفوجئت برؤية فيليب واقفًا ساكنًا تمامًا، مقطبًا جبينه. سألت:

- "ما الخطب؟"

طرف بعينيه، ثم نظر في اتجاهها، وحاجباه لا يزالان مقطبين في تفكير.

- "لست واثقًا مما يجب فعله."

مازحته:

- "أعتقد أن مقبض الباب سيدور في أي من الاتجاهين."

رمقها بنظرة، ثم قال:

– "لا توجد معارض أو أحداث في القرية. ماذا يجب أن نفعل معهما؟"

قالت إلويز مبتسمة له بكل الحب في قلبها:

– "أي شيء. أو لا شيء على الإطلاق. لا يهم حقًا. كل ما يريدانه هو أنت يا فيليب. كل ما يريدانه هو أنت."

بعد ساعتين، كان فيليب وأوليفر واقفين خارج متجر لاركين للخياطة الراقية والأزياء في قرية تيتبري، ينتظران بنفاد صبر نوعًا ما بينما تكمل إلويز وأماندا مشترياتهما بالداخل.

أنّ أوليفر، وكأنه طُلب منه ارتداء ضفائر وفستان:

– "أكان علينا الذهاب للتسوق؟"

هز فيليب كتفيه.

– "هذا ما رغبت والدتك في فعله."

تذمر أوليفر:

– "المرة القادمة، دور الرجال للاختيار. لو عرفت أن وجود أم يعني هذا..."

اضطر فيليب لإجبار نفسه على عدم الضحك. قال بنبرة جادة، مربتًا على كتف ابنه:

– "يجب على الرجال تقديم تضحيات لأجل النساء اللاتي نحبهن. هذه سنة الحياة، أخشى."

أطلق أوليفر تنهيدة طويلة المعاناة، وكأنه يقدم تضحيات كهذه بشكل يومي.

نظر فيليب عبر النافذة. لم تظهر إلويز وأماندا أي إشارة لإنهاء أعمالهما. قال:

– "لكن فيما يتعلق بمسألة التسوق، ومن يقرر النشاط المشترك التالي، أنا أتفق معك تمامًا."

في تلك اللحظة، أطلت إلويز برأسها للخارج.

– "أوليفر؟ أترغب في الدخول؟"

أجاب أوليفر هازًا رأسه بحزم:

– "لا."

زمت إلويز شفتيها.

– "اسمح لي بإعادة الصياغة. أوليفر، أريدك أن تدخل."

نظر أوليفر لأبيه، وعيناه تتوسلان.

قال فيليب:

– "أخشى أنه يجب عليك فعل ما تقوله."

تذمر أوليفر هازًا رأسه وهو يجرجر نفسه صاعدًا الدرجات:

– "تضحيات كثيرة جدًا."

سعل فيليب ليغطي ضحكة.

سأل أوليفر:

– "هل أنت قادم أيضًا؟"

كاد فيليب يقول: لا بحق الجحيم، ، لكنه تمكن من تدارك نفسه في الوقت المناسب ليغيرها إلى:

– "أحتاج للبقاء في الخارج لمراقبة العربة."

ضاقت عينا أوليفر.

– "لماذا تحتاج العربة للمراقبة؟"

تمتم فيليب:

– "إم، الضغط على العجلات. كل طرودنا، كما تعلم."

لم يتمكن من سماع ما قالته إلويز تحت أنفاسها، لكن النبرة لم تكن مجاملة.

قال مربتًا على ظهر ابنه:

– "اركض يا أوليفر. والدتك تحتاجك."

قالت إلويز بعذوبة، لتعذيبه فقط، كان واثقًا:

– "وأنت أيضًا. تحتاج لقمصان جديدة."

أنّ فيليب:

– "ألا يمكننا جعل الخياط يأتي للمنزل؟"

– "ألا تريد اختيار القماش؟"

هز رأسه وقال بتعالٍ:

– "أنا أثق بكِ تمامًا."

قال أوليفر، الذي لا يزال يحوم في العتبة:

– "أظن أنه يحتاج لمراقبة العربة."

تمتمت إلويز:

– "سيحتاج لمراقبة ظهره، إن لم..."

قال فيليب:

– "أوه، حسنًا جدًا. سأدخل. لكن للحظة واحدة فقط."

وجد نفسه واقفًا في النصف النسائي من المتجر، مكان مكشكش وأنثوي إن وجد شيء كهذا، وارتعد.

– "أي شيء أكثر، ومن المرجح أني سأهلك من رهاب الأماكن الضيقة."

قالت إلويز بصوت هادئ:

– "رجل كبير وقوي مثلك؟ هراء."

ثم نظرت إليه وأشارت له بذقنها للاقتراب.

سأل، متسائلًا عما يدور حوله الأمر:

– "نعم؟"

همست، مومئة نحو باب في خلفية الغرفة:

– "أماندا. حين تخرج، بالغ في الاهتمام."

نظر حول المتجر بشك. كان يمكن أن يكون في الصين، لشدة شعوره بالغربة.

– "لست جيدًا جدًا في المبالغة."

أمرت:

– "تعلم."

ثم حولت انتباهها لـ أوليفر قائلة:

– "الآن دورك يا سيد كرين. السيدة لاركين..."

أنين أوليفر كان ليليق برجل يحتضر. احتج:

– "أريد السيد لاركين. مثل أبي."

سألت إلويز:

– "أتريد رؤية الخياط؟"

أومأ أوليفر بقوة.

– "حقًا؟"

أومأ مرة أخرى، وإن كان بقناعة أقل قليلًا.

تابعت إلويز، بتنغيم يكفي لوضعها على مسرح درووري لين:

– "رغم أنك قبل أقل من ساعة أقسمت أن الخيول البرية لا يمكنها جرك لداخل واجهة متجر ما لم تكن هناك بنادق أو جنود لعبة في النافذة؟"

ارتخى فم أوليفر، لكنه أومأ. بالكاد.

همس فيليب في أذنها وهو يراقب أوليفر يجر نفسه عبر المدخل الفاصل بين نصف السيد لاركين ونصف السيدة لاركين:

– "أنتِ بارعة."

قالت إلويز:

– "الأمر كله يتعلق بإظهار مدى سوء البديل. القياس عند السيد لاركين ممل، لكن السيدة لاركين... الآن، ذلك سيكون بائسًا."

شق عواء ساخط الهواء، وجاء أوليفر راكضًا عائدًا – مباشرة لـ إلويز، مما ترك فيليب يشعر بقليل من الحرمان.

أراد أن يركض أطفاله إليه، كما أدرك.

أعلن أوليفر:

– "لقد وخزني بدبوس!"

سألت إلويز دون أن يرف لها جفن:

– "هل كنت تتلوى؟"

– "لا!"

– "ولا حتى قليلًا؟"

– "القليل جدًا فقط."

قالت إلويز:

– "حسنًا إذًا. لا تتحرك في المرة القادمة. أؤكد لك أن السيد لاركين جيد جدًا في عمله. إن لم تتحرك، فلن تُوخز. الأمر بتلك البساطة."

استوعب أوليفر ذلك، ثم التفت لـ فيليب بنظرة توسل في عينيه. كان من اللطيف أن يُنظر إليه كحليف، لكن فيليب لم يكن ليناقض إلويز ويقوض سلطتها. خاصة حين كان يتفق معها تمامًا.

لكن أوليفر فاجأه. لم يتوسل ليتحرر من مخالب السيد لاركين، ولم يقل شيئًا مريعًا عن إلويز، وهو ما كان فيليب واثقًا من أنه كان ليفعله قبل بضعة أسابيع فقط، عن أي بالغ يحبط رغباته.

نظر أوليفر إليه فقط وسأل:

– "هل ستأتي معي يا أبي؟ أرجوك."

فتح فيليب فمه للرد، لكنه اضطر للتوقف بشكل لا يفسر. بدأت عيناه تلسع بدموع غير مذروفة، وأدرك أنه، ببساطة، مغمور بالمشاعر.

لم تكن اللحظة فقط، حقيقة أن ابنه أراد صحبته لطقس مرور ذكوري. توسل أوليفر صحبته من قبل.

لكن هذه كانت المرة الأولى التي شعر فيها فيليب بقدرته الحقيقية على قول نعم، واثقًا من أنه إن ذهب، فسيفعل الشيء الصحيح ويقول الكلمات الصحيحة.

وحتى إن لم يفعل، فلن يهم. هو ليس والده، ولن يكون أبدًا – لا يمكن أبدًا أن يكون مثله. لا يستطيع تحمل أن يكون جبانًا، أن يستمر في دفع أطفاله نحو أشخاص آخرين، فقط لأنه قلق من ارتكاب خطأ.

سيرتكب أخطاء. هذا حتمي. لكنها لن تكون أخطاء ضخمة، ومع إلويز بجانبه، هو واثق تمامًا من قدرته على فعل أي شيء.

حتى إدارة التوأم.

وضع يده على كتف أوليفر.

– "سيسعدني أن أرافقك يا بني."

تنحنح، إذ أصبح صوته أجش عند الكلمة الأخيرة. ثم انحنى وهمس:

– "آخر ما نريده هو نساء في الجانب الرجالي."

أومأ أوليفر بموافقته القوية.

استقام فيليب، مستعدًا لتبعية ابنه لجانب السيد لاركين من المؤسسة. ثم سمع إلويز تتنحنح خلفه. التفت، وكانت تشير برأسها نحو خلفية الغرفة.

أماندا.

تبدو بالغة جدًا في فستانها الخزامي الجديد، وتظهر مجرد لمحة من المرأة التي ستصبح عليها يومًا ما.

للمرة الثانية في نفس العدد من الدقائق، بدأت عينا فيليب تحترقان.

هذا ما كان يفقده. في خوفه، في شكه بنفسه، كان يفقد هذا. كانا يكبران بدونه.

ربت فيليب على كتف ابنه ليشير إلى أنه سيعود حالًا، ثم عبر الغرفة لجانب ابنته. دون كلمة، التقط يدها وقبلها. قال، وقلبه في عينيه، وصوته، وابتسامته:

– "أنتِ، يا آنسة أماندا كرين، أجمل فتاة رأيتها علي الاطلاق."

اتسعت عيناها وشكلت شفتاها "أوه" صغيرة من البهجة الخالصة.

همست بذعر:

– "ماذا عن الآنسة... الأم؟"

نظر فيليب لزوجته، التي بدت على وشك البكاء هي الأخرى، ثم التفت لـ أماندا، منحنيًا ليهمس في أذنها:

– "لنبرم اتفاقًا، أنا وأنتِ. يمكنكِ الاعتقاد أن أمكِ أجمل امرأة على قيد الحياة. لكن يحق لي الاعتقاد أنها أنتِ."

وفي وقت لاحق من تلك الليلة، بعد أن دسهما في الفراش، وقبل كل واحد على جبينه، وتوجه للباب، سمع ابنته تهمس:

– "أبي؟"

التفت.

– "أماندا؟"

همست:

– "كان هذا أفضل يوم على الإطلاق يا أبي."

وافق أوليفر:

– "على الإطلاق."

أومأ فيليب وقال بهدوء:

– "بالنسبة لي أيضًا. بالنسبة لي أيضًا."

بدأ الأمر بملاحظة.

في وقت لاحق من تلك الليلة، وبينما تنهي إلويز عشاءها ويُرفع طبقها، أدركت وجود ورقة مدسوسة تحته، مطوية مرتين حتى شكلت مستطيلًا صغيرًا.

استأذن زوجها، مدعيًا حاجته للعثور على كتاب يحوي قصيدة كانا يناقشانها أثناء الحلوى، وهكذا، ودون أن يراقبها أحد، ولا حتى الخادم المشغول بنقل الأطباق للمطبخ، فردت إلويز الورقة.

لم أكن جيدًا بالكلمات قط.

قالت الورقة، بخط فيليب الذي لا تخطئه العين. ثم، بخط أصغر، في الزاوية:

اتجهي لمكتبكِ.

مأخوذة بالفضول، وقفت وخرجت من غرفة الطعام. بعد دقيقة دخلت مكتبها.

وهناك، في وسط مكتبها، كانت ورقة أخرى.

لكن الأمر كله بدأ برسالة، أليس كذلك؟

متبوعة بتعليمات للذهاب لغرفة الجلوس. فعلت، هذه المرة مضطرة للتركيز بجد لمنع مشيها الذي تحول لنصف قفز من التحول لركض كامل.

ورقة صغيرة، مطوية مرتين مرة أخرى، جلست على وسادة حمراء موضوعة في مركز الأريكة تمامًا.

وهكذا إن بدأ بالكلمات، فيجب أن يستمر بها أيضًا.

هذه المرة وُجهت للردهة الأمامية.

لكن لا توجد كلمات لشكركِ على كل ما منحتِني إياه، لذا سأستخدم الوحيدة المتاحة لي، وسأخبركِ بالطريقة الوحيدة التي أعرفها.

وفي الزاوية السفلية للملاحظة، وُجهت لغرفة نومها.

صعدت إلويز السلم ببطء، وقلبها يخفق بترقب. هذه وجهتها النهائية، كانت واثقة من ذلك. فيليب سيكون بانتظارها، بانتظار أخذ يدها، لقيادتها لمستقبلهما معًا.

أدركت أن الأمر كله بدأ بملاحظة. شيء بريء جدًا، غير ضار جدًا، ونما ليصبح هذا، حبًا ممتلئًا وغنيًا لدرجة أنها بالكاد تستطيع احتواءه.

وصلت لردهة الطابق العلوي وبخطوات هادئة شقت طريقها لباب غرفة النوم. كان مواربًا قليلًا، مجرد بوصة أو نحو ذلك، وبيد مرتجفة دفعته مفتوحًا، بالكامل...

وشهقت.

لأن هناك، على السرير، كانت الزهور. مئات ومئات من الزهور، بعضها بوضوح في غير موسمها، قطفت من مجموعة فيليب الخاصة في دفيئته.

ومكتوب بزهور حمراء، على خلفية من البتلات البيضاء والوردية:

أنا أحبك.

قال فيليب بهدوء، خارجًا من الظلال خلفها:

– "الكلمات ليست كافية."

التفتت إليه، بالكاد واعية للدموع المترقرقة على خديها.

– "متى فعلت هذا؟"

ابتسم.

– "بالتأكيد ستسمحين لي ببعض الأسرار."

– "أنا... أنا..."

أخذ يدها، وسحبها قريبة. همس:

– "عاجزة عن الكلام؟ أنتِ؟ لا بد أني أفضل في هذا مما ظننت."

قالت، مختنقة بالكلمات:

– "أحبك. أحبك كثيرًا."

التفت ذراعاه حولها، وحين وضعت خدها على صدره، نزل ذقنه ليستقر برفق على رأسها.

قال بهدوء:

– "اليوم، أخبرني التوأم أنه كان أفضل يوم على الإطلاق. وأدركت أنهما محقان."

أومأت إلويز، عاجزة عن الكلام.

تابع:

– "لكن بعد ذلك، أدركت أنهما مخطئان."

نظرت إليه، والسؤال في عينيها.

اعترف:

– "لم أستطع اختيار يوم. أي يوم معكِ يا إلويز. أي يوم معكِ."

لمس ذقنها، وقرب شفتيه من شفتيها. همس:

– "أي أسبوع، أي شهر، أي ساعة."

قبلها حينها، برفق، ولكن بكل الحب في روحه. همس:

– "أي لحظة، ما دمت معكِ."

خاتمة

هناك الكثير مما آمل تعليمه لكِ، يا صغيرتي. آمل أن أتمكن من فعل ذلك بالقدوة، لكني أشعر بالحاجة لوضع الكلمات على الورق أيضًا. إنها نزوة من نزواتي، واحدة أتوقع أنكِ ستميزينها وتجدينها مسلية بحلول وقت قراءتكِ لهذه الرسالة.

كوني قوية.

كوني مجتهدة.

كوني ذات ضمير حي. لا يوجد مكسب أبدًا من اتخاذ الطريق السهل. (إلا إذا كان الطريق، بالطبع، سهلًا في البداية. الطرق تكون كذلك أحيانًا. إن كان هذا هو الحال، لا تشقي طريقًا جديدًا أكثر صعوبة. الشهداء فقط من يخرجون بحثًا عن المتاعب).

أحبي إخوتكِ. لديكِ اثنان بالفعل، وبإذن الله، سيكون هناك المزيد. أحبيهم جيدًا، فهم دمكِ، وحين تكونين غير واثقة، أو تكون الأوقات صعبة، هم من سيقفون بجانبكِ.

اضحكي. اضحكي بصوت عالٍ، واضحكي كثيرًا. وحين تستدعي الظروف الصمت، حولي ضحكتكِ لابتسامة.

لا ترضي بالقليل. اعرفي ما تريدين واسعي إليه. وإن لم تعرفي ما تريدين، كوني صبورة. الإجابات ستأتيكِ في الوقت المناسب، وقد تجدين أن رغبة قلبكِ كانت تحت أنفكِ طوال الوقت.

وتذكري، تذكري دائمًا أن لديكِ أمًا وأبًا يحبان بعضهما ويحبانكِ.

أشعر بكِ تتململين. والدك يصدر أصوات لهاث غريبة وبالتأكيد سيفقد أعصابه تمامًا إن لم أنتقل من مكتبي لسريري.

مرحبًا بكِ في العالم، يا صغيرتي. نحن جميعًا مسرورون جدًا بلقائكِ.

– من إلويز، الليدي كرين،

لابنتها بينيلوبي،

بمناسبة ولادتها

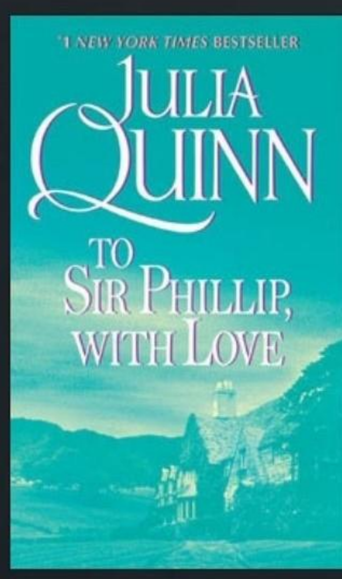
-تمت-

إلى السير فيليب، مع حبي

جوليا كوين

كان السير فيليب يعلم، من واقع مراسلاته مع قريبة زوجته الراحلة، أن إيلويز بريدجرتون "عانس"، ولهذا تقدم لخطبتها؛ مفترضاً أنها ستكون امرأة متواضعة الجمال، منزوية، وتائقة بشدة -وربما بيأس- لأي عرض زواج. إلا أنها... لم تكن كذلك. فتلك المرأة الحسناء التي وقفت على عتبة بابه كانت كل شيء عدا أن تكون هادئة، وحينما كانت تتوقف عن الحديث لوهلة تكفي لأن تغلق فمها، لم يكن يدور في خلده سوى رغبة واحدة: أن يقبّلها...

لم يكن بوسع إيلويز بريدجرتون أن تتزوج رجلاً لم تره قط! لكن الأفكار بدأت تراودها... والتساؤلات تلح عليها... وقبل أن تدرك ما يحدث، وجدت نفسها داخل عربة مستأجرة في جوف الليل، تمضي لمقابلة رجل أملت أن يكون شريكها المثالي. غير أنه... لم يكن كذلك. فالزوج المثالي لا يمكن أن يكون عبوساً وفظاً هكذا. وبالتأكيد كان يجدر به أن يذكر أن لديه طفلين صغيرين -وجامحين بلا شك- يحتاجان إلى أم، بقدر حاجة فيليب إلى زوجة.



ترجمات مكتبة الوادي
t.me/wadistreambooks

ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks